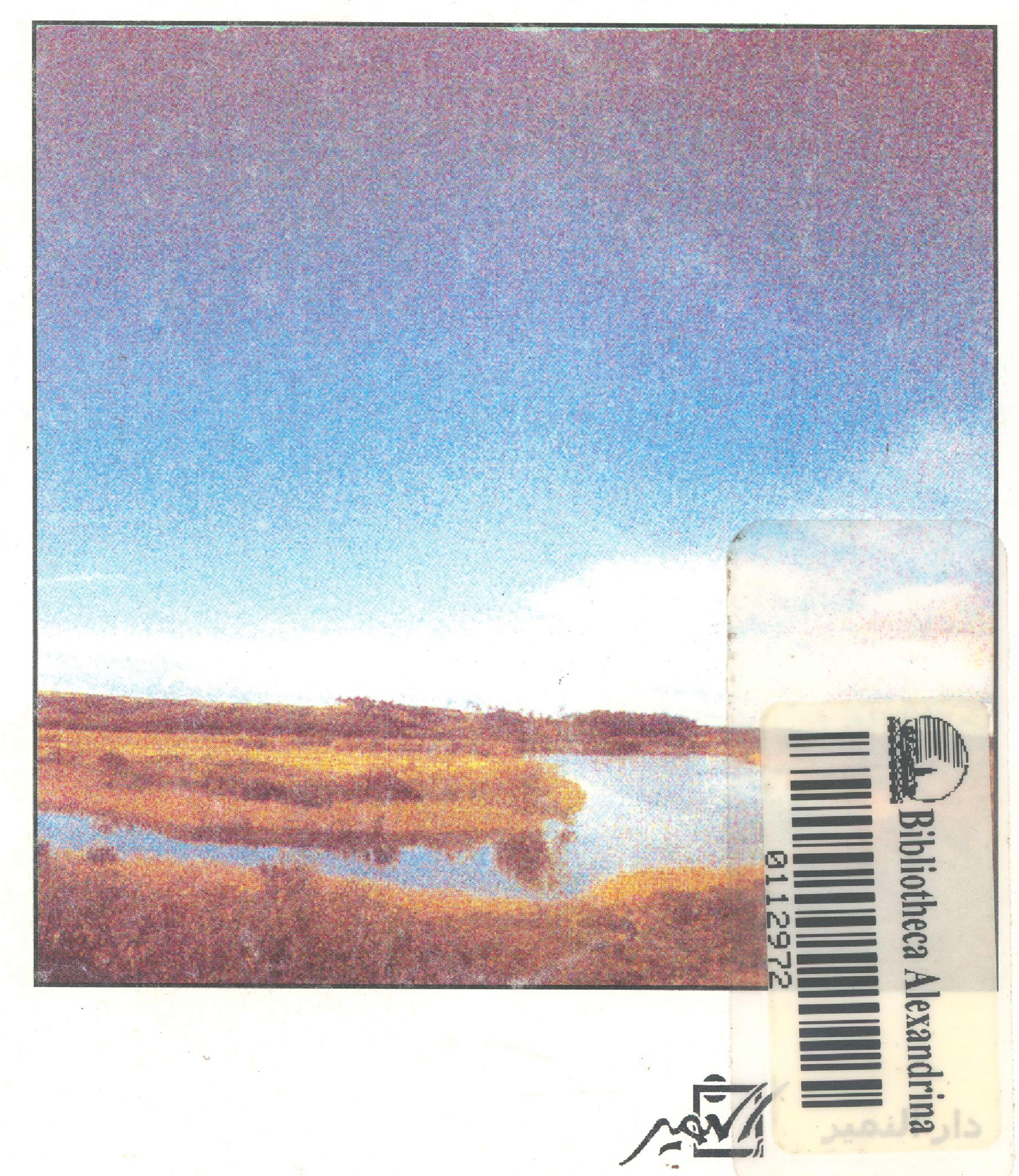
غطاس أبو عيطة

الحنين إلى أريحا

استعادة لتجربة حياتية وسياسية



دار النمير

غطاس أبو عيطة

الحنين إلى أريحا

غطاس أبو عيطة

الحنين إلى أريحا

الطبعة الأولى ١٠٠٠ نسخة ١٩/٠٩/١٩٩٩

موافقة اتحاد الكتاب العربي رقم ٩٥٧ تاريخ ٢٧ / ١٢ / ١٩٩٨

دار النمير

طباعة ـــ نشر ـــ توزيع

دمشق

هاتف ٢٢٢٦٢٠٧

ص . ب ٥١٧٥



أحسست دائماً، أن تلك الأعوام الستة التي عشتها في أريحا، هـي الأعوام الأجمل في حياتي. فقد كانت أعوام الشباب، وأعـوام اختبـار إمكاناتي ومعارفي ووضعها على محك التجربة العمليـة، وهـي أعـوام الصداقات الجميلة، وأعوام مغامرة التعليم، والعمل السياسي.

وطالما فكرت أن أصنع شيئاً من تلك الأعوام، عملاً أدبياً مـا، أحاول أن أقول عبره بأني قد عشت حياتي، وأن العمر الذي يندفـع بي الآن نحو شوطه الأخير لم يذهب بدون معنى، ذلك أني قد عشت تلـك الأيام الغنية في أريحا. وقد ترددت دائماً في الإقدام على هذه المغـامرة، خشية أن أبدو كمن يريد إظهـار نفسه دون مبرر لذلك، فلـم تكـن تجربتي في الحياة بأغنى من تجربة مئات الآلاف من أبناء شعبي، و لم تكـن معاناتي في ظروف الاحتلال والنفي لتزيد عن معاناة الملايين منهم.

لكنني كلما كنت أقرأ عن تجربة إنسانية مدونة علـى الـورق، كانت تحفزني للعودة إلى مشروعي الذي طالما ألح علـي. وفي مقدمـة مذكرات لجبرا إبراهيم جبرا بعنوان (شارع الأميرات)، رأيـت أديبنـا الراحل يقول ما معناه، أن كل إنسان مهما كانت حياته عادية، يمكن أن تكون مذكراته ذات أهمية، لما تقدمه من صورة حية عن مجتمع، وعـن زمان ومكان معينين، وعن تجربة إنسانية.

وفي عمل أدبي رائع لهرمان هيسة، رأيت غولدمونـد التلميـذ، حريص على تثبيت ملامح أستاذه نرسيس، في تمثال يعكس غنى داخـل هذا الأستاذ، وفكرت: لعلي أنجز شيئا جيدا، بصنع تمـاثيل متواضعـة

لأولئك الناس الذين عرفتهم وهم في أوج عطائهم، وقبل أن يحالوا على التقاعد في رحلة العمر الأخيرة، وأولئك الذين كانوا في تلك المرحلة الأخيرة من العمر، وقد مضوا إلى حيث يمضي جميع الأحياء مخلفين ذكرى ما كانوا وهم على قيد الحياة.

ولكي أقول ما لا يقال عادة في السير الذاتية،فكرت بأن استحضر راويا آخر يتحدث عن تلك الأيام وعن أولئك الناس الذين عرفتهم خلالها، لكن جعلني عدم درايتي بالأشكال الروائية: استبعدهذه الفكرة. ولكي لا اضطر إلى استئذان الآخرين وخاصة الأحياء منهم في الكتابة عن حياتهم، آثرت أن أحور ، معظم الأسماء التي سأقدم أصحابها، مع إبقاء أسماء أخرى كما هي.

والآن وبعد أن أنجزت محاولتي في شكلها الأولي، أشعر بأني لم أقدم على عمل لا طائل تحته، بل إني وعبر هذا الجهد، إنما حاولت أن أنجز كتابة ما يعمد الزملاء إلى روايته شفويا في كل يوم، ضمن أحاديث عابرة، سوف يبددها مرور الزمن إذا لم تجد من يدونها ومن يضعها في خدمة الأجيال القادمة كتجارب معاشة.

وبعد كتابتي لهذه المادة في شكلها الأولي، أحس بأنني مهما اقترفت من أخطاء، ومهما اندفع بي قلمي إلى مواطن من اللغو، فإن ما أقدمه للقارئ المعاصر والآتي، سيكون ذا فائدة، خاصة أني أعود للكتابة عن تجربة قد مضى عليها الآن ما يقارب ربع القرن، وبعد أن تسلحت بما حصلته من معارف ومن تجارب في هذه الفترة عساها أن تكون ذات فائدة فيما أنا مقدم عليه. وفيما سعيت إلى كتابته، حاولت أن أتعرض بالنقد للثقافة التي حكمت أعضاء الحزب الذي انتسبت إليه، والتي قادتهم إلى مواقع لا تتلاءم مع تضحياتهم، آملا ألا أكون قد

أقحمت الأيديولوجيا بما لا يحتمله عملٌ كان يجب أن يســوده الطــابع الأدبي.

ولقد حاولت جهدي بألا أثقل على القــارئ بــــ "أمجــادي" الـــخاصة في هذه المحاولة، وأن أقدّم الآخرين الذين عرفتـــهم في تلـــك الفترة أكثر مما أقدم تجربتي الذاتية، لكن ما قدمته في النهاية، هو رؤيـــتي الخاصة للآخرين وذلك ما آمل أن يغفره لي القارئ مقدراً ما بذلته مـــن جهد لأن أظهر ما أستطيع من الموضوعية، ولأن يكون مــــن أقدمـــهم، أقرب إلى نماذج إنسانية أتحكم مسارها بظروف الحياة الـــتي عاشـــوها، وبواقع الثقافة التي كانوا أسرى لها.

لقد قسمت مادتي إلى بضعة فصول، بدأتها بالتعريف بالمدينة الـــتي عشقتها وهي أريحا، وبمجتمع هذه المدينة الذي يختلف عـــن ســـائر مجتمعات المدن الفلسطينية، ثم عرّفت بالحزب الذي التحقت بصفوفـــه، وهو الحزب الشيوعي، وقدمت نماذج من أعضاء هـــذا الحـــزب، ممـــن ارتبطت تجربتي النضالية بتجربتهم في تلك الفترة، وتحدثت عـــن تجربـــتي في التعليم، وقدمت نماذج من بين الذين عرفتهم في الهيئات التدريســـية ومن بين أناس ربطتني بهم علاقة إنسانية جميلة. وتوقفت أخيرا عنـــــد بعض الأحداث البارزة التي عشتها في هذه المدينة والمرتبطة بمـــا عاشـــته المناطق المحتلة والمنطقة العربية جميعها من أحداث، وأترك للقـــارئ بعـــد ذلك أن يحكم على ذلك كله.



(١)
الوصول إلى أريحا

دخلت أريحا على متن حافلة قديمة، من النوع الذي شهد الحرب العالمية الثانية، فأمضيت في الطريق من القدس إلى أريحا، والذي لا يتجاوز الثلاثين كيلو مترا، أكثر من ثلاثة أرباع الساعة، كنت أراقب خلالها السائق الهرم، الذي لا يقل عمره عن عمر حافلته العتيدة، والذي بدا كأن مرور الزمن لا يعني شيئا بالنسبة له بعكس ما كنت أحس به في تلك المرحلة من العمر. الذي كنت فيه شديد الإحساس بمرور الوقت، محاولا استغلال كل لحظة فيه، لتحصيل خبرة ومعرفة جديدة.

وما زلت أذكر تاريخ ذلك اليوم الذي وصلت فيه إلى أريحا، باعتباره تاريخ استلامي لعملي الأول، وبالتالي تاريخ انتقالي من مرحلة الانجراف وراء ميولي ونوازعي الذاتية خلال أعوام الدراسة، إلى مرحلة إثبات الجدارة العملية. وكان ذلك اليوم، هو العشرين من أيلول عام ١٩٦٨م.

وفي المدرسة المشادة حديثا، التي كانت السلطات الأردنية قد تركتها بدون سور يحيط بها حين غادرت الضفة نتيجة الاحتلال، والتي كانت مدرسة للطالبات في المرحلة المتوسطة والثانوية، استقبلتني المديرة وكانت تقوم بجولتها الصباحية الأولى بين الصفوف، فقدمت نفسي لها من خلال الرسالة التي أحملها من مديرية التربية في بيت لحم، فهتفت

فرحة بحضوري، وعبرت عن شكرها لمدير التربية الذي لم ينس مدرستها القائمة في هذا المنفى الذي باتت تمثله مدينة أريحا، واصطحبتني فورا إلى أحد الصفوف الثانوية، وقدمتني للطالبات باعتباري أستاذ الاجتماعيات الذي كن بانتظاره، وحرصت بعد ذلك بأن تقدمني لكل صف أدخله، محاولة إضفاء جو من الرهبة على هذا التقديم، الذي كان يتضمن التعريف باسمي وبمؤهلي العلمي، مرفقا بالتحذير تلميحا، من مغبة إساءة الأدب مع الأستاذ الجديد.

ولفت نظري في ذلك اليوم، قلة عدد الطالبات في الصفوف، وخاصة في المرحلة الثانوية، وكذلك الجمال المميز للطالبات، وكان قسم منهن كما علمت فيما بعد، من بنات الأسر المنعمة، ثم أن شمس أريحا بل مناخها العام، قد أضفى على جمالهن ذلك السحر الخاص، ومنحهن ذلك النضج الأنثوي الذي ليس له ما يشبهه في المدن والبلدات التي عرفتها سابقا.

وقبل أن أمضي في رسم انطباعاتي الأولى عن ذلك المكان الذي أمضيت فيه ستة أعوام، وهو ثانوية بنات أريحا، وذلك ما سأعود إليه لاحقا، أود الوقوف عند لقائي الأول مع مدينتي التي عشقت، وأن أقدم هذه المدينة في صورتها العامة كما شاهدتها لأول وهلة، وكما عرفتها بعد ذلك وطيلة الأعوام الستة.

كانت أريحا عندما دخلتها ما تزال مدينة شبه مهجورة، وذلك بنتيجة الحرب التي لم يكن قد مضى على وقوعها إلا عام وبعض العام، فما جرى في هذه المدينة الحدودية لم يجر في غيرها وبالحجم ذاته من العدوان، إذ دكها المحتلون بالمدفعية وبقذائف الطائرات، بذريعة مرور الجيش المتقهقر شرقا من داخلها، وقد أرجأ المحتلون دخولهم إليها ثلاثة

أيام كاملة، استمروا بقصفها خلالها، مفسحين المجال عن عمد، لتروح أكبر عدد ممكن من أبنائها ومن ساكني المخيمات المحيطة بها. ومن مجموع أكثر من مئة وعشرين ألف مواطن (مع سكان المخيمات المحيطة) كانوا يشكلون سكان أريحا، لم يبق هنالك في الأيام الأولى للاحتلال، أكثر من بضع مئات، ثم ارتفع العدد بعد ذلك إلى ثلاثة آلاف، من بين من تسللوا عائدين إلى بيوتهم وأملاكهم خلال الشهور الأولى للاحتلال، مغامرين بحياتهم، حيث قتل الكثيرون منهم على المخاضات برصاص الجنود الصهاينة، ثم استقر العدد بعد ذلك على تسعة آلاف، أضيف إليهم قرابة ثلاثة آلاف من أبناء غزة، ممن تقطعت بهم السبل وهم في طريقهم إلى شرق النهر.

وعند تعرفي على أهالي المدينة، وخاصة الرجال منهم الذين كانوا يتجمعون في العشيات في ساحتها الرئيسية أمام المقاهي وأمام محلات البقالة التي عادت إلى فتح أبوابها، كنت أحس بأن هؤلاء الناس، ما زالوا يعيشون خارج واقعهم الجديد، فكل من رحلوا من المعارف والأقارب والأصدقاء، كانوا حاضرين في أحاديثهم، شأنهم في ذلك، شأن من بترت ساقه، أو بتر أكثر من طرف من أطرافه، وما زال يحس بوجود هذه الساق وتلك الأطراف، إذ كما أخبرني أحد مشوهي حرب لبنان فيما بعد، أنه كان يحس بتنميل أصابع قدمه التي لم تعد موجودة في جسده.

وإن أحدا من سكان المدينة، لم يكن قادرا على أن يصدق، بأن الحياة يمكن أن تمضي على هذه الشاكلة، مع انفصال هذا الجزء الواسع من أعضاء هذا الكيان المجتمعي الذي ألفه، والذي عاش ضمنه طيلة الأعوام الماضية، لذلك فقد كان الجميع وبدون اتفاق فيما بينهم،

يتشبثون بذلك الماضي القريب بكل طاقتهم، ويعيشون ذلك الانتظار الذي عاشه مئات الآلاف من الناس داخل التجمعات الفلسطينية في المنافي التي فرضت عليهم، وهم بانتظار العودة إلى الحياة الطبيعية التي خلفوها في مدنهم وقراهم التي استولى عليها الغزاة بعد النكبة.

وقد لاحظت كيف كانت تلك المجموعات الصغيرة، تلتقي فيما بينها في ساحة المدينة، فتتصافح وتتعانق، وقد غمرها فرح الشعور بأن هناك من نجا من سكان المدينة بعد الطوفان، وغمرها في الوقت ذاته، ذلك الحزن الأصم، على فقد من طوحت بهم بعيداً تلك القوة الغاشمة. ولقد تحوّل الناجون الذين ربما لم يعرف أحدهم الآخر قبل الحرب معرفة وثيقة، إلى ما يشبه الأسرة الواحدة، بل إن ما ربط بين هؤلاء الناس، هو شيء أكثر عمقاً مما يربط أفراد الأسرة، وهو ذلك الشعور الذي يربط أفراد النوع المهدد بالانقراض، إنه الشعور الغريزي الذي لا تعرفه غير الشعوب التي واجهت خطر الإبادة كما هو حال شعبنا.

وكان هؤلاء الناس، يتحسسون مدينتهم تحسس من عادت إليه الحياة، فيتلمسون بوجد، كل شارع فيها، وكل حجر وبناية وشجرة، وكأنهم يعيدون ربط وجودهم بوجود ما يمثل هذه المدينة من أشياء، تغدو إذا تجمعت في جسم حي، ذلك المكان الذي أحبوه، والذي كان يضج بالحياة وخاصة في فصل الشتاء، حيث تأتي حشود القادمين من السواح من أبناء الوطن، ومن أرجاء العالم، فيتعرفون في كل يوم في أحضان مدينتهم العامرة على أناس جدد، يقيمون معهم تلك العلاقات الكريمة التي لا تعرفها غير المدن السياحية، ويتعرفون على عوالم جديدة عبر أحاديث يتبادلونها بكل لغات الأرض الحية.

في مثل هذا المناخ الفجائعي، استقبلني أبناء هذه المدينة أو من تبقى

منهم، بل لأقل أنهم احتضنوني، وأدمجوني بدون تردد بأفراحهم الصغيرة النابتة في تربة الألم، وأشركوني في عملية إعادة اكتشاف مدينتهم التي غدت جديدة عليهم بعد الرحيل الكبير، وحاولوا ما وسعهم ذلك، إبعادي عن أحزانهم، ضمن مسعى غريزي لإقناعي بأن أبقى بينهم، وأن أضيف خلية لهذا الجسد الذي نزف معظم خلاياه، ولعلهم قد أدركوا بفطرة ما، بأني ربما سأكون أحد الشهود على ما حل بهذه المدينة على يد الغزاة الصهاينة.

وبمثل هذا الحب وتلك المودة، استقبلني طلاب أريحا وطالباتها، وتعزز هذا الشعور لديهم، بعد تعرفهم على ميلي الوطني، واهتمامي العميق بالشأن العام وبالإنسان، وكرهي لأولئك الغزاة الذين هبطوا على تلك المدينة فأحالوا حياتها إلى جحيم حقيقي.

(٢)
المدينة التي عشقت

حين يقترب المرء من أريحا وهو ماض نحوها من جهة القدس، يحس بثقل غريب يضغط على أذنيه، ويغدو يسمع الأصوات وكأنها آتية من خلف حاجز قطني سميك، وذلك ناجم عن الارتفاع الكبير في الضغط الجوي بسبب انخفاض النقطة التي يدلف إليها. وحين يقرأ المسافر ما كتب على لوحة تقوم على جانب الطريق "٣٩٢ م تحت سطح البحر"، يدرك بأنه يمر في أخفض نقطة على سطح الأرض، والتي هي جزء من ذلك الانهدام الذي يفصل إفريقيا عن آسيا، مشكلا غور الأردن من بحيرة الحولة إلى البحر الميت، وصولا إلى البحر الأحمر بكل امتداده الطولي.

وفي هذا المنخفض، وعند التقاء نهر الأردن مع بحيرة لوط (البحر الميت)، قام ذلك المستنبت الطبيعي الضخم الذي اسمه أريحا، على شكل واحة مترامية الأطراف، تعبق في أرجائها روائح الزهر، لتعطيها اسمها الذي عرفت به على مر التاريخ، وحيث احتضن هذا المستنبت، أقدم تجمع بشري، فغدت هذه الواحة، أقدم مدينة عرفها تاريخ الإنسان، حيث سكنها قبل سبعة آلاف عام، قرابة ألفين من المواطنين، كانوا يتاجرون بالملح والقار كما تذكر كتب التاريخ.

وما أن تدخل هذه المدينة، حتى تطالعك تلك الخضرة العجيبة أو هذا الحضور المذهل للأخضر، الذي لا يرى المرء مثيلا له إلا في الغابات الاستوائية ربما. فعلى مدخل المدينة، تطالعك شجرات عملاقة يتجاوز

حجم الواحدة منها حجم بناية ضخمة من عدة طبقات، بأوراقها الملساء اليانعة الخضرة، وتجد من يخبرك بأنها أشجار الكوشوك التي تنشر ظلالها في أرجاء المدينة.

وتحت تلك الشجرات، تستقبل القادم إلى أريحا، استراحات صغيرة، مكونة من بضع طاولات وكراس، يقدم أصحابها المرطبات للزائرين، ويعرضون عليهم تحفهم السياحية القادمة من بيت لحم وبيت ساحور والقدس والمصنوعة من خشب الزيتون والمطعمة بالصدف.

وفي أحد تلك الاستراحات، يطالعك الوجه الأنيس لذلك الشيخ الذي يعيش وحيدا في استراحته المتواضعة، وهو يقوم على خدمتك مستعينا بعكازيه، ويحادثك بعربيته الهجينة، فتدرك أنه من أفراد تلك الجالية الأرمنية التي طوحت المجزرة ببعض أفرادها نحو القدس، ووصل بعضهم إلى أريحا بحثا عن لقمة العيش.

وخلف تلك الشجرات، وبين أشجار الحمضيات ونباتات الزينة، يطالعك بناء قديم هو دير الروم (الأرثوذكس)، حيث يقوم ما يسمى بالفندق الذي اعتاد على استقبال الحجاج القادمين لزيارة المكان الذي تعمد فيه المسيح في "مغطس" نهر الأردن. ويحمل هذا المغطس الذي لم يقيض لي رؤيته بسبب انتشار جنود الاحتلال في محيطه، متحولا إلى منطقة عسكرية، معنى الاسم الذي ألصقه الأهل بي حال ولادتي، والمرتبط بتعميد المسيح.

وفي مقابل دير الروم، يقوم دير آخر لطائفة اللاتين، وهو أضخم بناء وأكثر جدة وفخامة، وفيه مدرسة للطالبات، تتعرف عليهن(إذا ما اشتغلت بالتدريس) في المدارس الرسمية بعد إنهاء المرحلة المتوسطة في

مدرسة الدير، فيجئن إليك بعربية ضعيفة في الغالب، وبسلوك مطبوع بثقافة الرهبان والراهبات.

ويكتمل المثلث المحيط بتلك الساحة التي تشكل مدخل المدينة، بجامع ضخم، شيد حديثا باسم أحد أعلام المدينة وأكبر أثريائها وملاكها، وهو ذلك الشيخ العملاق صالح عبدة، ابن إحدى عائلات القدس، الذي يملك شارعا باسمه، وفندقا، وشركة باصات، إضافة إلى الأراضي الواسعة، وقد غدا رئيسا للبلدية قبيل وقوع الاحتلال.

وما أن تتقدم نحو مركز المدينة، حتى تغمرك مناخات غامضة من السحر تحار في مصدرها، وتظل بعد ذلك مشغولا في تفسير تلك المناخات دون أن تصل إلى نتيجة، وأعتقد الآن، بأن ذلك السحر الذي يغمر القادم إلى أريحا، إنما مصدره عملية التلاقح الجارية في هذا الخصب الأسطوري، ولعلها رائحة الطلع هي ما يبعث الخدر والنشوة في حواس الإنسان الذي يجد نفسه فجأة في هذه الجنة المزهرة.

فبعد شجرات الكوشوك العملاقة، تغرق ناظريك في شجرات النخيل المنتشرة على جانبي الشارع الممتد إلى وسط المدينة، فتدخلك في نشيد الخصب الذي تغنى به شاعر جيكور العظيم، ويتردد في داخلك وقع ذلك النشيد "عيناك غابتا نخيل.. مطر مطر مطر". ولا تكاد تستعيد وعيك، وتعود إلى رشدك، حتى تغمرك تلك السياجات الخضراء المنهمرة من فوق الأسوار المحيطة بالمباني والبيوت، والمتفجرة بألوان لا تستطيع حصرها، فتعبر مسامات جسمك روائح أزهارها العطرة، لتنقلك إلى حالة من العشق الصوفي، وعبثا تحاول أن تدرك مصدر هذه الروائح، ونوع تلك الأزهار التي تطلقها، وقد تمضي أعواما في هذه المدينة، دون

أن تتعرف إلى كل تلك الأنواع من الأشجار والورود، والأزهار والأسيجة التي تعطي لأريحا اسمها.

وتلك الساحة الصغيرة التي تشكل مدخل المدينة، تدخلك إلى شوارع هي أقرب إلى الخمائل الكثيفة الأشجار، ففي ناحية الغرب، تتجه إلى "شارع العشاق" الذي غدا خاويا من عشاقه، وبقيت أشجاره الوارفة الظلال تنتظر عودتهم، وإلى ناحية الشمال، تتجه نحو شارع المنتزهات التي كانت عامرة بروادها، وكذلك نحو شارع عين السلطان، وحي الخديوي، وقصر هشام بن عبد الملك الأثري، وإلى الشرق، تتلقفك الخضرة الزاهية لتقودك نحو النهر، حيث غابات النخيل والحمضيات تحف بك من كل جانب وتدخلك في عرس الأخضر الصارخ بالبهجة.

وإنك في معبد الطبيعة هذا، لتمضي الأيام مشغوفا إلى حد الهذيان، وتحاول في ذاكرتك، أن تنقب بين تلك التسابيح الشعرية التي تغنى بها الشابي بطبيعة تونس، والتي تغنى بها شعراء المدرسة الرومانسية في الغابات الإنجليزية، لعلك تجد ما يلائم هذه الطبيعة التي تراها في أريحا، فلا تجد ما يلائم ذلك، فهذه الدنيا من الخصب، هي نسيج وحدها، إنما هبة ذلك الدفء الأسطوري المحتضن لهذا التعدد من ألوان النماء والذي تجتمع فيه كل المناخات الملائمة لانفجار هذا الخصب.

ومنذ الأيام الأولى لوجودي في أريحا، أحسست بأني قد التقيت بمدينتي التي كنت قد افتقدتها بابتعادي عن دمشق بغوطتها الشاسعة، وخلال الأعوام الستة التي عشتها في هذه المدينة، كنت أشعر بأني أزداد عشقا لها، ومثلما أحببت شتاءها الحاني، فقد أحببت كذلك صيفها بكل عنفوان شمسه ذات السطوة والجبروت، فما كانت ترهبني تلك الشمس

التي تجعل الإسفلت رخواً تحت عجلات دراجتي بينما أهيم مستزيداً من سحر هذا النماء العبقري.

وما زلت حتى الآن، ورغم مرور أكثر من عقدين من الزمن، أعيش تلك الصورة للأخضر الزاهي التي رأيتها عندما أطللت على بساتين المدينة المتشابكة، من ذلك المرتفع الذي تقوم عليه خرائب المدن القديمة التي تعاقب بناؤها على تلك التلّة قرب منبع عين السلطان، لتشكل جميعها، وضمن طبقات متراكبة "الأريحات" التي بناها الإنسان في هذه البقعة من الأرض. فمن هذا المرتفع، تلوت صلواتي للأخضر الذي حاولت أن أستعيده في قصة كتبتها في أعوام المنفى، وإني لأفكر الآن، أية لوحة كان سيرسمها إنسان مهووس بالأخضر مثل فان جوخ، الذي رأى في ريف بلاده حقل الحنطة مشتعلاً متفجراً بالخصب فخلّده في تلك اللوحة التي منحته الخلود.

ومع مرور الأيام، تتعرف على أنواع من الثمار التي تمنحها تلك المدينة للإنسان، وهي أنواع تتدرج بين ثمار منطقة المتوسط، كالحمضيات والزيتون والتوت والإكيدنيا، والعنب والتين وأنواع الخضار، إلى ثمار المناطق الموسمية والاستوائية، مرورا بالمناطق المدارية، وواحات الصحاري، حيث الموز الريحاوي، والقشطة، والبباي، والبيحلو، والبلح بأنواعه، وكل ما استحضره أبناء هذه المدينة وغرسوه في تربتها فاحتضنته كأم لم يشوه أمومتها أي تمييز عرقي، وإذ تسائل نفسك مرارا عن مصدر هذا الخصب العاتي الذي تلتقي به في هذه المدينة، فإنك لتحار في الجواب، فهل هو دفء هذه المدينة الحاني، وهل هو شمسها الساطعة القوية، أم هو ماؤها المتدفق من عين السلطان والمتفجر من جوف الأرض قبل أن تسلبه المستوطنات التي أقامها الغزاة

المحتلون، أم أنه تلك التربة الخالية من الحجارة، أم ذلك الجهد الـــدؤوب لمزارعي شعبنا الذين سلبت أرضهم في اللد ويافا والولجة وكل أرجــــاء فلسطين، فحاؤوا يوسّعون بسواعدهم وعرقهم مساحات الخصــــب في هذه الأرض المعطاء.

لكن ما أسرني في هذه المدينة وملك علي مشاعري، ليس نباتهـــا وحسب، بل ناسها كذلك الذين رضعوا من ذلك الخصــــب الرائــع، والذين لا يقلون تنوعاً وغنىً عن تنوع وغنى طبيعتها، وهم الذين تجمعـوا من كل المنطقة المحيطة من غرب النهر وشرقه، لينغرسوا في تلك التربـــة، وليظللهم ذلك المناخ الريحاوي الذي يجعل الإنسان أكثر ثراءً.

(٣)
مجتمـــع أريحـــا

هل لأريحا مجتمع؟؟ذ لك هو السؤال الذي أخذت أقلبه وأنا بصدد الحديث عن ناس هذه المدينة. والسؤال هنا ليس مبعثه ما ذكرته مـن أن الاحتلال قد مزق هذا الجسد المجتمعي وبتر جزءا واسعا من أعضائـــه، بقدر ما هو نابع من طبيعة تشكل هذا المجتمع، من تراكم أفراد وأســر قدموا إلى هذه المدينة من مختلف مدن وقرى فلسطين. ومن بعض مــدن شرق النهر وخاصة من السلط، ليكونوا مع مرور الزمن، ذلك المجتمـــع الفريد في تنوعه.

لكنـــه برغم الاندماج الذي تم مع مرور الزمن بين هذا الخليـــط مـــن السكان، فقد ظل في أريحا أكثر من مجتمع واحـــد، أمكنـــها أن تتعـــايش وأن تتآلف في أحضان طبيعتها الدافقة بالعطاء، متحررة مـــن تلك الروابط العشـــائرية التي تشد سكان المدن والبلدات الأخـــرى في وطننا الصغير، لتمنحني تلك الحرية التي طالما تطلعت إليها، بـــأن أقيـــم علاقات لا تستند إلى رابطة الدم بقدر ما تستند إلى التوافـــق الفكـــري والنفسي.

إن هذا الوضع الذي وجدت عليه سكان أريحا، هو ما ســأحاول الحديث عنه تحت هذا العنوان العام عن مجتمعها، لأقول بداية، أن خصب هذه المدينة، وجاذبية مناخها، وما اختزنته من ثروات، قد حفز جماعـات من أبناء المدن الأخرى، وخاصة القريبة، للهجرة إليها، والاستقرار فيـها، وإقامة المزارع والمنازل والقصور في أرجائها، مـــع الاحتفـــاظ ببيوتهـــم

وأملاكهم في مدنهم وبلداتهم الأصلية وذلك بالنسبة لمن لم يفقدوا تلك المدن والبلدات بفعل النكبة.

وإن غالبية من قدموا إلى أريحا خاصة قبل النكبة، هم من أبناء القدس، ومن أبناء الخليل الذين ضاقت بهم مدينتهم، فانطلقوا نحو القدس يوسعون فيها رزقهم، ثم من أبناء البلدات والقرى المحيطة بالقدس كالعيزرية وأبو ديس وغيرها، وقد غدا هؤلاء جميعا ملاكين كبارا، بعد أن استحصلوا على الأراضي الشاسعة من أبناء المدينة الأصليين بأثمان زهيدة، وغدوا كذلك، أصحاب عقارات، وأصحاب تجارة مزدهرة، فشكلوا شريحة من الأغنياء الذين عاشوا برخاء في هذه المدينة.

وإن هذه الفئة من أصحاب الثراء، كان لهم مجتمعهم الخاص، رغم تعددية هذا المجتمع، فكان لأبناء عائلات القدس من الملاكين الكبار، ولأبناء العشائر من المنطقة المحيطة، ولكبار الموظفين المترعين في المدينة، صالوناتهم الخاصة، ونواديهم، وأماكن لهوهم في الفنادق وفي المتنزهات، فكانوا يصلون الليل بالنهار وهم يعبون من المتع التي تؤمنها الثروات الطائلة التي انهالت عليهم من الأرض والعقار، ومن ازدهار المدينة السياحي.

أما التجار وخاصة من أبناء الخليل، وأصحاب المزارع والأراضي الشاسعة منهم، فقد اقتصرت متعتهم على تعظيم ثروتهم، وتوسيع ملكياتهم، و لم تجتذبهم حياة اللهو في النوادي والمقاصف والصالونات، و لم تغرهم الموائد الخضراء ولا ما يجري في الليالي الحمراء، وظلوا محافظين على تقاليدهم التي تتسم بالمحافظة وبالجدية.

ومن خلال عملي في التدريس، تعرفت على أسماء العائلات المقدسية والخليلية التي استقرت في هذه المدينة وغدت من أعيانها،

وتعرفت على ما تملك من ثروات، والسلوك المرتبط بتلك الثروات من اتجاه نحو التبذير والبذخ، أو نحو التقتير والحفاظ على تلك الثروة.

ويروي سكان المدينة في كل يوم، كيف أضاع أبناء المدينة الأصليين أراضيهم، فقايضوها بالسكر والشاي الذي كانوا يكثرون من احتسائه في مناخهم الحار، ليخلقوا تلك الطبقة من كبار الملاكين الذين استحوذوا على الأرض بثمن بخس، ثم أصبحت تدر عليهم الأموال بدون حساب، بعد أن غدت المدينة ذلك المشتى القادر على اجتذاب الموسرين والسواح من الجهات الأربع.

لقد خرج من هذه الطبقة بفئاتها المختلفة، ما أسميته فئة الوجهاء، التي اتسع حجمها في أريحا على نحو لا مثيل له في المدن الأخرى. وقد انقسمت هذه الفئة على أساس موقفها من الاحتلال إلى قسمين، إذ كان بضمنها العديد من الناس الوطنين الذين ينأون بأنفسهم عن مهادنة المحتلين بهدف الحفاظ على مصالحهم الخاصة، وكان بضمنها أيضا، تلك الفئة المهادنة والمتخاذلة والتي تعودت على الخضوع للسلطة القادمة، والتذيل لها، ارتباطا بمصالحها الأنانية والرخيصة أحيانا.

وإلى جانب كبار الملاكين والتجار، يمكن الحديث عن طبقة الفئات الوسطى، والتي تتكون من أبناء المدينة الأصليين الذين تمسكوا بأرضهم وملكياتهم أو بأقسام منها، فبقي لديهم من الدخل ما جنبهم التحول إلى إجراء، وما مكنهم من تعليم أبنائهم، وكذلك من الوافدين إلى المدينة من سكان البلدات والقرى الفلسطينية، من ذوي الملكيات الزراعية المتوسطة، وذوي البقالات والمتاجر الصغيرة، ومن الموظفين والمهنيين، وقد شكلت فئات هذه الطبقة بمجتمعها المنفصل نسبيا عن مجتمع الشريحة العليا ذات الجاه والنفوذ، والمنفصل كذلك عن تلك

البروليتاريا الرثة، التي هي في غالبيتها من سكان المدينة الأصليين. ورغم أن كل بلدة وقرية من أرجاء فلسطين، كان لها "سفارتها" في أريحا، أي أسرة أو أكثر، تحمل طابع وعادات ولباس تلك البلدة أو القرية، وحتى لهجتها، فقد كانت هذه الأسر في مجموعها، تشكل أفراد تلك الطبقة التي تتكون منها غالبية المجتمع الريحاوي، يضاف إلى هؤلاء، تلك الأسر التي قدمت من السلط، والتي تنتمي إلى عشيرتين من عشائر تلك المدينة الأردنية.

ولقد سكنت تلك الأسر(الأصلية والوافدة) داخل أرضها المحاطة بالأسوار والمسيجة بالأشجار الحرجية ونباتات الزينة، لتغدو داخل ملكياتها وأماكن سكنها، أشبه بجزر معزولة لا تكاد إحداها تتدخل بشؤون الأخرى. وبين تلك الجزر الخضراء، نهضت المنازل الطينية التي لا يشاهدها المرء إلا إذا تغلغل بين أشجار النخيل والحمضيات ومعرشات الدوالي وطعوم الأكيدنيا والتوت وألوان الشجيرات والورود ذات الرائحة المبهجة.

وهذه الأسر التي تتسم بتلك التعددية، هي من تعرفت عليها خلال إقامتي في المدينة، واستقبلتني في بيوتها، وعبرت عن تضامنها مع الخط الوطني الذي كنت أمثله مع باقي الرفاق والأصدقاء، وهي التي قدمت للعمل الوطني قبل وبعد معرفتي بها، إبنا أو أكثر من أبنائها ممن كانوا أسرى في سجون المحتلين، أو ممن سقطوا شهداء في سبيل وطنهم.

وإلى جانب هذه الطبقة بكل فئاتها المتنوعة، كان هنالك أبناء المخيمات أو من تبقى منهم إثر الهجرة الكثيفة التي ضربت مجتمعهم جراء الغزو، وقد انتقلت غالبيتهم إلى أريحا، واستقروا في البيوت الكثيرة التي

أصبحت خالية من سكانها، لتغدو المخيمات أقرب إلى مدن أشـــباح لا يقيم فيها إلا من عجزوا عن الانتقال إلى المدينة، وعن دفع أجور المنـــازل فيها رغم تواضعها.

أما الفئة الدنيا من أبناء المدينة، فقد تشكلت في الغالب من سكانها الأصليين، ممن فقدوا ملكياتهم وبقيت لهم أكواخهم البائســـة في وســط المدينة، وقد تحول هؤلاء إلى عمال زراعيين ينفقون أجورهم الزهيدة على الشاي وعلى الخمور، وعلى أشكال من الكرم الذي لا يبقي شـــيئا في جيوبهم، واشتغل بعضهم في مصلحة المياه، يشرفون على توزيـــع مـــاء السقاية المتدفقة في قنوات تجيء من عين السلطان، وعمل البعض الآخـــر حجابا في الدوائر الرسمية، في البلدية، والمدارس، والمحكمـــــة، والماليـــة، ودائرة البيطرة، والزراعة، وانخرط الآخرون في ذلك النوع البائس مـــــن الخدمات السياحية، كسقائيين، وطبالين، ومروجي مخدرات، ومتعـــهدي غانيات، وبعد الاحتلال، خدم قطاع واسع من هذه الفئة كعتالين علـــى الجسر.

وقد حافظ أبناء هذه الطبقة وأوساط مـــــن الطبقـــة الوســـطى(الريحاويين)، على زيِّهم التقليدي وخاصة بالنسبة لكبار السن، فـــارتدى الرجال القمباز والحطة والعقال، بينما ارتدت النساء ذلك الثوب الأسود العجيب، الذي ينسدل على الجسم بطول أربعة أمتار، يتم طيّـــها عنـــد الخصر الذي يلفّه زنار قماشي عريض، فيتحوّل إلى طبقات ثلاث بحيـــث يحمي الجسم من حرارة الجو الرهيبة، بينما تغطي الرأس، عمامة واســـعة مثل خيمة لا نجد شبيهاً لها إلا عند نساء السلط، ولعـــل هـــذا الغطـــاء الضخم لرأس المرأة، قد انحدر إلى هذه المناطق المنخفضة الشديدة الحرارة، من عصور سحيقة في القدم، شأنه شأن الثوب الريحاوي الغريب.

لقد برز من أوساط هذه الفئة، ما يمكن تسميته بالبروليتاريا الرثة التي كانت تخترقها الروح الكوزموبوليتانية تجاه القضايا الوطنية والقومية، إذ لم يكن يشغلها أساساً الشأن العام، لكنه مع تنامي النهوض الوطني في المناطق المحتلة، لم يبق أبناء هذه الفئة بعيدين عن النشاطات الوطنية، وقد انخرطوا وعلى نطاق واسع في انتفاضة عام ١٩٨٧ المجيدة، التي كانت بحق، انتفاضة كل الجماهير الفلسطينية بكل قواها، وكل شرائحها الطبقية وفئاتها المهنية.

ورغم تعددية مجتمع أريحا التي لم تجعل منه وحدة متماسكة، تعبّر عن موقفها السياسي في مواجهة مؤامرات القوى التي استهدفت تصفية قضية فلسطين، ورغم وجود ذلك الحشد من كبار الملاكين والوجهاء وأبناء العائلات، الذين أغرى وجودهم أولئك المتواطئين مع النظام الأردني لعقد مؤتمرهم في أريحا عام ١٩٥٠ معلنين موافقتهم على مشروع ضم الضفة الغربية إلى المملكة الهاشمية، فإن هذا المجتمع،كان له دوره في النهوض الثوري الذي عمَّ الضفتين الغربية والشرقية في منتصف الخمسينات، وقدَّم أبناؤه، وخاصة من ساكني المخيمات، العديد من الشهداء إبان التصدي لمؤامرة التوطين، ولحلف بغداد، ومن أجل إسقاط المعاهدة الأردنية- البريطانية، وطرد الضباط الإنجليز المسيطرين على الجيش الأردني، وكان لهذا المجتمع، دوره كذلك في المعارك الوطنية التي خاضتها جماهير الضفة والقطاع، في مواجهة المحتلين ومشاريعهم الرامية إلى تأبيد احتلالهم عبر ما يسمى بالإدارة الذاتية.

لقد استطاع الجسد المجتمعي الريحاوي، رغم تعدديته التي حولته إلى مجتمعات، ورغم الجراح التي أثخنته ومزقته وشتتت أجزاء واسعة منه في المنافي بعد حرب حزيران، أن يتعافى من جديد، وأن يلئم جراحه، وأن

يجمع ما تبقى من أجزائه، وأن يعود للانخراط في الكفاح الوطني، معبراً بذلك عن إصراره على دفع الموت عنه واستنبات الحياة في جنباته، مقدماً في سبيل ذلك ألوان التضحيات، مواكباً الهبات الشعبية التي عمت الضفة والقطاع المحتلين والتي بلغت ذروتها في انتفاضة عام ١٩٨٧ التاريخية، شأنه في ذلك شأن كل التجمعات الفلسطينية الأخرى داخل الوطن، وفي مواقع الشتات، التي أحيتها الثورة الوطنية المعاصرة المندلعة منذ عام ١٩٦٥م، لتنهض من رقادها كما ينهض أبطال أساطير هذه المنطقة، شأن أسطورة تموز، وشأن أسطورة أوزريس الذي قطّع أعداء الحياة جسده، ونثروا أشلاءه في أرجاء مصر، فعادت أخته ايزيس إلى جمع هذه الأشلاء، ثم روتّها بدموعها الغزيرة، فعادت الحياة إليها لتنتصر بذلك إرادة الحياة ولتنهزم إرادة القتلة.



(٤)
الحـــــزب

عندما جرى احتلال الضفة الغربية عام ١٩٦٧م، والـــتي كـــانت خاضعة للنظام في الأردن، كانت القوى والأحزاب السياسية مهشّــــمة فيها، وحركة الجماهير قد جرى ضربها، لذلك لم تشهد هذه المنطقة على اتساعها، مقاومة عنيفة وواسعة للاحتلال كما جرى في قطـــــاع غـــزة، والذي ظلّت جماهيره وقواه الوطنية تقاتل وتقاوم وحدها حـــــتى عـــام ١٩٧٢م، حين أعاد السفاح شارون احتلال مخيماتهـــا وأحيـــاء مدنهـــا بالدبابات وبالجرارات والمدافع وبكل ألوان البطش.

وإبان الهجمة الضارية والشاملة التي شنها النظام علــــى القـــوى الوطنية منذ انقلاب عام ١٩٥٧م وحتى نيســـان ١٩٦٥م، واســـتؤنفت صيف عام ١٩٦٦، نال الحزب الشيوعي الأردني الذي كان يضـــم في صفوفه الشيوعيين الفلسطينيين والأردنيين، النصيب الأكبر من القمــــع، وقد جرت الانهيارات في قيادته وقواعده خلال الموجة الثانية من القمـــع كما هو الحال بالنسبة للقوى الأخرى.

وقبيل الاحتلال، تسلطت علـــى الحـــزب (الشـــيوعي الأردني)، العناصر القيادية التي رضخت للحملة، والتي أطلق النظام سراحها بعد أن عقدت صفقة مع أجهزة الأمن، فأخذت تنظّر من وحيها، لفكرة مفادهـا أن مجتمعاتنا العربية الإسلامية لا تتقبّل أحزاباً شيوعية بين ظهرانيها ، وأنه

يمكن بناء الاشتراكية في هذه المجتمعات، عن طريق قيادة وطنية تقوم على رأس النظام، وذلك في إطار عملية الانتقال العالمية الجارية من الرأسمالية إلى الاشتراكية بقيادة الاتحاد السوفييتي ومنظومة الدول الاشتراكية، وسهّل على تلك العناصر، طرح أفكارها تلك، النهج الذي عبر عنه خروتشيف آنذاك في موسكو، وما طرحه منظروه عن التطور اللارأسمالي في البلدان المتأخرة.

وقد أهملت هذه" القيادة "مسألة إعادة بناء التنظيم الحزبي، وحين أطلق سراح الرموز القيادية التي صمدت بوجه الحملة، وذلك قبل شهر واحد من اندلاع حرب حزيران، لم يكن هناك بناء حزبي متماسك لا في شرق الأردن، ولا في الضفة الغربية التي داهمها الاحتلال بعد ذلك.

وعبثاً حاولت الرموز الصلبة، محاسبة الرموز المنهارة في قيادة الحزب، إذ برز تيار انتهازي ، راح يبرر هذه السقطة للرموز المنهارة، ويدعو إلى تجاوز ما فات بدعوى الحرص على وحدة الحزب، وقد أعاق التياران (المنهار والانتهازي) عملية انخراط الحزب في المقاومة الوطنية التي نهضت مع قيام فصائل المقاومة الفلسطينية واتساع نفوذها وبروز الثورة الوطنية المعاصرة التي سيطرت على منظمة التحرير الفلسطينية منذ عام ١٩٦٨م، وظلت القيادة الرسمية المهيمنة على الحزب تنظر بحذر إلى ظاهرة المقاومة المسلّحة، وترى فيها ظاهرة مغامرة، وتعوّل على الموقف الدولي الذي تبلور في قرار مجلس الأمن ٢٤٢، وعلى دور النظم الرسمية بما فيها النظام الأردني، في إزالة احتلال عام ١٩٦٧، وقد طرحت هذه القيادة فكرة "مؤتمر وطني" في الأردن، يرئسه الملك حسين لمواجهة "آثار العدوان".

لقدارتبط هذا الموقف المتراخي إزاء الاحتلال، بالموقف التاريخي

من جانب التيار الرسمي للشيوعيين تجاه الكيان الصهيوني، والذي برز في أوساط الشيوعيين الفلسطينيين والعرب في خريف عام ١٩٤٧م، حين أيدت أحزابهم قرار التقسيم نتيجة الالتحاق بالموقف السوفييتي آنذاك، والذي أيد وزير خارجيته ذلك القرار في الأمم المتحدة، كما أيد قيام دولة للمستوطنين الصهاينة على جزء من فلسطين.

ومن وحي هذا الموقف الذي ناهضته في حينه المنظمات العمالية في "عصبة التحرر الوطني في فلسطين" والتي تحولت إلى "الحزب الشيوعي الأردني" بعد النكبة وبعد ضم الضفة الغربية إلى دولة شرق الأردن برئاسة الملك عبد الله وارتباطاً بدوره في التآمر على القضية الفلسطينية، أخذ يجري التنظير لحق اليهود في تقرير المصير داخل دولتهم، ولاعتبار المستوطنين اليهود القادمين إلى فلسطين، بأنهم "أمة في طور التكوين".

ولقد غالى التيار المؤيد للتقسيم في دفاعه عن حق اليهود في تقرير مصيرهم باعتبارهم "أمة"، حين أدان في وثيقة إعلان قيام الحزب الشيوعي الأردني في صيف عام ١٩٥١م، ما اعتبره انقساماً قومياً مثّلته "عصبة التحرر الوطني في فلسطين" التي كانت بمثابة حزب شيوعي عربي للجماهير الفلسطينية التي تخوض نضالاً وطنياً تحررياً ضد الاستعمار البريطاني وحليفته الحركة الصهيونية.

في مثل هذه الظروف، وعلى قاعدة هذا الإرث الفكري السياسي، أعاد الشيوعيون المقيمون في الضفة الغربية المحتلّة نشاطهم، وعملوا على إعادة بناء تنظيمهم الحزبي متصادمين مع المحتلين من جهة، ومع التيار المهيمن على قيادة الحزب، والمعرقل لانخراطه في المقاومة المسلحة لكي يأخذ دوره في الثورة الوطنية الفلسطينية المعاصرة من جهة أخرى، وقد أحدثت قيادة تنظيم الضفة المحتلة، ما تستطيعه من دفع في

دور الحزب النضالي، ومن تطوير في خطه السياسي، لكن هجوم الجانبين، المحتلين، والتيار المهيمن في عمانهقاد إلى هزيمة الخط التحوري-الكفاحي لتلك القيادة، وإلى سيطرة الخط السائد في الحركة الشيوعية العربية ضمن مسارٍ أقرب إلى الانقلاب الرجعي داخل تنظيم الضفة المحتلة.

لقد مثّل عربي عواد، العنصر القيادي الثابت للتنظيم الحزبي في الضفةً المحتلّة حتى إبعاده خارج الوطن من جانب سلطات الاحتلال وذلك في ١٠ كانون الأوّل عام ١٩٧٣م، وبعد ذلك جرى تغيير أعضاء النواة القيادية للتنظيم الحزبي، حيث استغلت قيادة عمان والرموز المرتبطة بها في الداخل، حملة السجن والإبعاد التي تعرضت لها الرموز الثورية على يد سلطات الاحتلال فأحدثت ذلك التغيير في البيئة القيادية للتنظيم الحزبي.

وبينما عملت النواة القيادية الثورية على إعادة بناء قواعد التنظيم الحزبي ومدها في أرجاء الضفة المحتلة، وسعت لربط العناصر الشيوعية في غزة بهذا التنظيم، فقد عمدت في الوقت ذاته، إلى بناء حركة وطنية، ذات قاعدة شعبية، تضم مختلف القوى، ضمن مسعى لتفعيل أشكال المقاومة ضد المحتلين.

وعلى هذا الطريق، تشكلت "لجان التوجيه الوطني" خلال الشهور الأولى التي أعقبت الاحتلال، ثم تشكلت "الجبهة الوطنية المتحدة" عام ١٩٧١، مع العناصر الشيوعية والماركسية في غزة، ونحت نحو الجمع بين النضال السياسي الجماهيري، والنضال العسكري، مستفيدة من خبرات وإمكانات أبناء غزة في المجال الثاني.

ثم تشكلت بعد ذلك، "الجبهة الوطنية الفلسطينية" في الضفة والقطاع في آب عام ١٩٧٢م، لتكون ذراع منظمة التحرير الفلسطينية

في المناطق المحتلة عام ١٩٦٧م، ولتقطع الطريق على مشروع "المملكة المتحدة" الذي طرحه النظام الأردني، ومشروع الإدارة الذاتية الذي طرحته سلطات الاحتلال وخاصة حكومة حزب العمل وشمعون بيريز.

لقد بدأت علاقتي بالشيوعيين منذ عام ١٩٦٣م على وجه التقريب، ولأنه لم يكن هنالك منظمة حزبية في بلدتي (أو في غيرها آنذاك)، فقد بقيت العلاقة ذات طابع فكري ثقافي، وتطورت هذه العلاقة قليلاً صيف عام ١٩٦٥م، مع خروج ذلك العدد من الشيوعيين من السجون عبر قرار العفو العام الذي أصدره رأس النظام في نيسان من ذلك العام. لكن هذه العلاقة مع الحزب لم تنتظم آنذاك في ظل هجمة عام ١٩٦٦م الإرهابية.

وعندما عدت إلى الضفة المحتلّة في نهاية عام ١٩٦٧م، حيث داهمني الاحتلال وأنا في جامعة دمشق في الخارج، مضيت نحو توثيق علاقتي بالحزب، وأصبحت عضواً في منظمة قاعدية محلية في بلدتي.

وفي نهاية العام الدراسي ١٩٦٨/٦٧، درّست شهرين في ثانوية الطلبة في بيت لحم بدلاً عن معلم غائب، بوعد أن يتم تثبيتي في تلك المدرسة في السنة الدراسية الجديدة، لكنه بسبب تقارير مدير المدرسة ضدّي بشأن نشاطي السياسي، جاء قرار إبعادي إلى أريحا، وقد رفضت هذا القرار في حينه الذي اعتبرته عقوبة بحقي، ومضيت اشتغل مع والدي في أعمال البناء، ولكن تحت إلحاح مدير التربية، وفي ظل وعوده الكاذبة بأن إقامتي لن تطول في أريحا، وافقت على الذهاب إلى هناك، وكان ذلك في الأساس بسبب توجيه الحزب الذي رأى بأن وجودي سيكون مفيداً في هذه المدينة. وقبل أن أمضي إلى هناك، حملت عنوان الرفيق المسؤول فيها لكي لا أتأخر عن ممارسة نشاطي الحزبي.

(٥)
المنظمة الحزبية في أريحا

كان لقائي بالرفيق المسؤول عن منظمـــة أريحـــا الحزبيـــة، مـــن الأحداث التي ما زلت أذكرها جيداً. فهذا الرفيق هو أول من تعرفـــت عليهم من أبناء هذه المدينة التي قدمت إليها، وقد قدمني بدوره إلى أهلـها الذين كان له مكانته بينهم، فغدوت سريعاً أحد أبنائها، وموضع ثقـــة قطاع واسع منهم، وسهَّل علي ذلك مهمتي النضالية خلال تلك الأعوام التي قضيتها في هذه المدينة.

لقد ذهبت أبحث عن هذا الرفيق ما أن أنهيت يوم عملـي الأول في المدرسة، وكان يسكن في حارة صبيحة كما دلني العنوان الذي حصلـت عليه من الرفاق في بلدتي، ولذلك فسوف أدعو رفيقـــي هـــذا "الحـــاج صبحي"، وفي ساحة المدينة الأولى قرب "دير الروم" سألت أحد الفتيـــة الصغار إن كان يعرف منـــزل الحاج صبحي، فتحفز الفتى في ردة فعـلٍ حذرة، وأخذ يسألني عن هويتي، وما الذي أريده من الحـــاج صبحـــي، فعرَّفته بنفسي، وحاولت طمأنته، وقلت له بأني صديقه وأني قادم مـــن مكانٍ بعيد وأريد رؤيته.

وكان الفتى وهو طالب مدرسة، وكان أهله من بلدة دير ياســين كما عرفت فيما بعد، وهو يسكن مع ذويه في أحد المنازل الكثيرة الخالية لأقارب الحاج صبحي، بل كان يسكن في منـــزل أخيه الذي يعمـــل في السعودية. وقد أوصلني إلى منـــزل والدة الحاج، وأشار إلى رجلٍ ممشوق القامة، يرتدي منظاراً داكن اللون ويقف على مدخل المنـــزل بعد عودته

من مكان ما، وقال لي: هذا هو الحاج صبحي، ثم دعاه بصوت مرتفع، وأخبره بأني اسأل عنه. فسلمت وعرَّفت بنفسي وبمن أرسلني إليه، فاستقبلني مرِّحباً بحرارة، وأدخلني إلى البيت الذي كانت والدته تسكنه وحدها، حيث كان يسكن وحيداً بدوره في منزل بالجوار، وقد أحضرت الوالدة -وهي سيدة متقدمة في السن- طعام الغداء وأحضر هو المشروب من البراد، وابتدأت تلك الصداقة التي ربطت بيننا أعواماً طويلة.

لقد كان الحاج صبحي من الرفاق المخضرمين، فهو من بين الذين قضوا ثمانية أعوام متواصلة في سجون النظام في الأردن، وتعرضوا لألوان القمع والاضطهاد و لم يضعفوا طيلة فترة السجن، وكان قد غدا في منتصف الثلاثينات من عمره ولم يتزَّوج بعد. وكان من بين القلائل الذين لم يغادروا أريحا إبان الحرب وفي موجة النزوح الهستيري التي دهمت سكانها، ووقف يدعو الناس إلى الثبات في بيوهم وفي أراضيهم كي لا تتكرر نكبة عام ١٩٤٨م. وقد ظل لمدة شهرين أو ثلاثة يقوم وحيداً على خدمة مزرعة الأبقار التي كان أنشأها عقب خروجه من السجن ربيع عام ١٩٦٥م، بعد أن نزح المزارع الذي كان يعمل في المزرعة، وقد عمل فيها بعد ذلك، عمالٌ قدموا من غزة.

وقد عرض علي الحاج بعد ذلك منزلاً أسكن فيه من بين منازل أقاربه المهجورة، فغدونا بذلك جيران لا يفارق أحدنا الآخر خاصة وأنه كان يجمع بيننا الاهتمام بالموسيقى إلى جانب ميلنا السياسي المشترك.

ثم عرَّفني على المنظمة الحزبية القاعدية اليتيمة التي ساغدو مسؤولاً عنها، ثم تعرفت على المنظمة المسؤولة التي غدوت عضواً فيها ثم

مسؤولها، وتعرفت بعد ذلك على أصدقاء الحزب من الرموز الشيوعية القديمة.

وكان الوضع الحزبي في هذه المدينة ليس بأفضل منه في أرجاء الضفّة بل ربما كان أكثر تضعضعاً وضعفاً بسبب الوضع الاجتماعي الناشيء عن الاحتلال والهجرة وعن واقع تشكُّل مجتمع المدينة.

المنظمة القاعدية

كان الحاج صبحي هو من نظّم حديثاً هذه الخلّية الحزبية القاعدية المشكلة من ثلاثة معلمين، اثنان منهما عُيِّنا في العام ذاته في المدارس الرسمية وقد انهيا دراستهما الثانوية، والثالث كان من معلمي وكالة الغوث في أحد المخيمات المحيطة، ولم تكن هذه الخلّية بالمنظمة الصلبة التي يركن إلى أعضائها، إذ أُتحكم صاحبنا في اختياره لهؤلاء الأعضاء، إلى واقع المدينة المجتمعي من ناحية، وإلى فارق السن بينه وبين هذا الجيل من الشباب، ثم لواقع غيابه عن المدينة فترة طويلة في أعوام السجن، ولعله قبلهم في عضوية الحزب دون تمحيص كبير حين التفوا من حوله عقب الاحتلال ولدى إبدائهم الرغبة في ذلك مدفوعين بدوافع مختلفة.

وقد غادرنا أكبرهم، واسمه عزيز، وهو معلم الوكالة منذ البداية، بعد أن خُيِّبت آماله بتعييني مسؤولاً للخلية، وكان يطمح بأن يكون هو المسؤول بما يضعه على سلم الارتقاء الحزبي، ويوصله سريعاً إلى موقع الوجهاء في المدينة.

أما الرفيق الثاني واسمه شكري، فقد لمست أن دافعه للدخول في الحزب لم يكن مختلفاً عن دافع الأوّل، فقد كان يرى في نفسه مشروع وجيه هو الآخر، وكان مسلكه مع الطلبة الصغار الذين يدرّسهم لا صلة

له بمسلك الشيوعيين، إذ كان يعتمد على العصا في فرض هيبته على أولئك الأطفال، وعبثاً حاولت تغيير موقفه إزاء التعامل معهم، فهذا الأسلوب القمعي، كان قد ورثه عن والده الذي كان موظفاً في مصح لذوي الأمراض العصبية، وكان يعامل مرضاه وأفراد عائلته، بذلك العنف الذي يذكّر بعنبر تشيخوف في قصته المعروفة عن العنبر رقم (٦).ولعل صاحبنا في تعامله القاسي مع هذا النشء، إنما كان ينفّس عن عقده التي أورثته إياها معاملة والده القاسية له ولأفراد عائلته.

وقد علمت فيما بعد من المدرسِّين القدامى، أن هناك عُقداً أخرى لدى صاحبنا تراكمت لديه في طفولته وصباه، حيث بقي موضوعاً للاعتداء الجنسي من زملائه الطلبة، وكان والده قد نقله إلى مدرسة أخرى علّه يبعده عن الزملاء الذين تعودوا عليه، يدفعهم في ذلك مناخ أريحا المحفِّز لهذا النوع من المتع الحسيِّة، لكن زملاءه الجدد ما لبثوا أن تعرفوا على استعدادته الكامنة، وواصلوا ما انقطع من سيرته في المدرسة السابقة. وقد رأيت أن هذه النشأة قد أثّرت على بناء شخصيته، و لم يستطع العمل الحزبي أن يشفيه من مسلكه الاستعراضي، ومن استعلائه الهش تجاه من يمكنه الاستعلاء عليهم، مدعياً مظاهر من الرجولة والوجاهة كانت تنعكس في تعامله مع أهل بيته ومع الأطفال الذين يدرسهم.

ومع مرور الوقت، أخذت الشبهات تدور حول علاقته مع أجهزة السلطة، التي استغلت ربما تعطشه للوجاهة، ورغبته بالظهور بمظهر المهم في المدينة، والذي يملك القدرة على إيذاء من ينتقصون من مكانته ممن عرفوه في أيام طفولته وصباه.

وقد سعى ذات يوم لتوريطنا في اتصالٍ مع منظمات الخارج مدعياً

زيادة في الثورية، حيث عرض علينا الحصول على أسلحة خلال وجوده في بيروت لتقديم امتحانات في جامعاتها، ودفعنا ذلك لاتخاذ موقف الحذر إزاءه إذ لم نكن نرى بأن الحماس الوطني هو دافعه لذلك. وتضاعفت شكوكنا نحوه، حين عمد ضابط الأمن المسؤول عن أريحا، إلى التهجُّم عليه أمامنا خلال أحد الاستدعاءات، وقد شعرنا بأنه يحاول تلميع صورته في نظرنا، إذ كان هجومه عليه مفتعلاً ومن دون مناسبة. وترسَّخت هذه الشكوك بعد ذلك، حين عمد صاحبنا إلى استفزاز الحاكم العسكري لدى استدعائه لنا (أنا والحاج صبحي وشكري) ليحذرنا من التخريب على المعرض الزراعي الذي سعى الاحتلال لإقامته في أريحا، فقد رد عليه بفظاظة، من شأنها أن تثبِّت التهمة التي كانت السلطات تريد إلصاقها بنا، وهي العمل على تخريب المعرض

وقد ابتعدنا بكل حذرٍ وهدوء عن هذا الرفيق، الذي لم يلبث أن انضم لفئة المتوجِّهين الذين أخذ يعتمد عليهم المحتلون في الإمساك بقطاع التعليم، بعد رؤيتهم بأن الطلبة هم العنصر الأكثر نشاطاً في مواجهة الاحتلال ومشاريعه العدوانية.

وقد بقي من هذه المنظمة الرفيق الثالث أسعد، الذي جذبني إليه كرم نفسه، وحيويته، ومكانته بين أبناء المدينة الأصليين، حيث كان والده أحد الوجهاء المرموقين داخل هذا الوسط من السكان، وكذلك قدرته على إقامة العلاقات الواسعة داخل صفوف المعلمين وبين أوساط الطلبة الكبار.

ولفت نظري منذ البداية في صاحبنا، ورغم تكتمه الشديد، ولعه بالنساء، وقدرته على إقامة طيفٍ واسع من العلاقات النسائية، وكان قد تزوّج من امرأةٍ بعد علاقةٍ عاصفة أقامها معها من وراء زوجها، فتبعته

مدفوعة بغرائز ملتهبة مخلفّة لزوجها خمسة أطفال، وقد تعرفت عليها في منزله الواسع الذي ورثه عن والده، ورأيت أن عقلها ومداركها كانا أصغر من القدرة على السيطرة على جسدها المترامي الأطراف، و لم يلبث أن ملّها هذا الإنسان وانفصل عنها لتعود إلى أهلها وقد خسرت كل ما تملك في هذه الحياة.

لقد امتلك صاحبنا جاذبية لدى النساء لا تقاوم، وقد كان ربعة القوام، متين البنية وسيماً، باسم المحيَّا، كريماً إلى حد الإسراف، وحين تعرفت على الممثل اللبناني الفلسطيني الأصل، محمود سعيد، في مسرحية "موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح السوداني إثر وصولي إلى بيروت، تذكرت صديقنا أسعد، فقد كان يحمل نفس الملامح الرجولية الغورانية التي جعلت من هذا الممثل بطل مسلسلات العشق البدوي دون منازع، بل ظللت أخلط بين اسمي الرجلين فيما بعد لشدة الشبه بينهما.

وقد ذهب صاحبنا بعيداً في ملاحقته للنساء، فتزوّج فتاة شديدة السحر، من والدٍ سوداني كان قد قدم إلى أريحا كضابط في البوليس الإنجليزي، ومن أمٍ مصرية عرفت بتحررها الجسدي، و لم يمكث معها طويلاً هي الأخرى، فتركها دون أن يخلّف أبناء من هذا الزواج، وأخذت أشعر آنذاك، أن صاحبنا يتهرب عامداً من أن تكون له أسرة وأبناء، ولعل ذلك عائدٌ إلى علاقةٍ غير سويَّة كانت تربطه وأفراد أسرته بوالده، إذ علمت أنه لم يحزن لدى وفاة هذا الوالد، بل إنه حوَّل أمسيات العزاء التي أقيمت له في منزل العائلة، إلى مسرحٍ للعبث، فقد عمد إلى إضحاك الزملاء خلال سخريته من الفقيد الراحل.

وهذا الميل إلى حياة الفوضى والبوهيميَّة، لم يلبث أن جرَّه إلى

مباذل لا يستطيع حتى مجتمع متسامح مثل مجتمع أريحا أن يتقبلها، فقد كثرت غزواته النسائية، وكان يبدِّل الصديقات كما يبدِّل ثيابه، إلى أن أقدم على سقطةٍ أثارت ضده أهالي المدينة، ودفعتنا لشن حملةٍ عليه وعلى شريكه في تلك السقطة، والذي كان أحد زملائه في ثانوية البنين، وكان قريب الشبه به من حيث الاهتمام بالنساء والمتع الحسيَّة المنفلتة، إضافة إلى سوء سمعته السياسية، إذ كانت تدور الشبهات حول علاقته بأجهزة السلطة.

ولقد جرى الأمر، عندما استدرجا أحد الطلبة إلى منزل المعلم الثاني أثناء غياب زوجته، بعد أن وعداه بتعديل علاماته في مادتيهما (الرياضة والأحياء)، وكانا قد انقصا هذه العلامات عن سابق عمد لكي ينالا مأربهما منه، وقد جذبتهما نعومته وجمال خلقته، وكان الثمن المعلن، هو إقامة وليمة متواضعة لهما، وقد أحضر الفتى ما طلب منه من أطباق الطعام، وجاء إلى الموعد متوجساً، لكنه لم يلبث أن فرَّ هارباً حين انكشفت نوايا المُعلميْن، وهرع أخاه مذهولاً نحونا يسألنا ما الذي يمكن فعله إزاء هذا الفعل الشنيع، وبدون تردد، سيرَّنا وفداً من وجهاء المدينة إلى مدير التربية ليعلمه بما جرى، ولكي يتخذ إجراءاته الردعية، واكتفى المدير بأن نقلهما إلى مدارس أخرى خارج أريحا، ولعله خشي من إغضاب الجهات الأمنية إذا هو فصل معلِّم الأحياء الذي كانت له سوابق في سوء السلوك، وكان المعلم المذكور، قد جرى نقله كعقوبة من بيت لحم إلى أريحا في الفترة السابقة. وسوف نعود إلى هذا المعلم سيء الصيت في مناسبة أخرى، إذ كان قد تمكَّن من دفع مجموعة من الشباب إلى السجن وإلى النفي، قبل أن يثير تلك الفضيحة التي أدت إلى عزلته وتقييد حركته في المدينة.

لقد شغلني دائماً موضوع هذا الأسعد، وكنت أتساءل، ما الذي دفعه إلى هذا النمط من الحياة العابثة، وهو الذي يملك من النباهة والذكاء، ومن الكياسة والتهذيب والقدرة على كسب ود الآخرين واحترامهم، ويملك من التعليم والثقافة بالقياس إلى أبناء جلدته من سكان المدينة الأصليين ما يمكنه من أخذ موقع مرموق بين سكان المدينة، إضافة إلى الإمكانات المادية التي ورثها عن والده، وربما الحس الوطني(إذ لم يتمكن المحتلون من استغلال عبثه لجرِّه نحو التعاون معهم، وقد ثبت ذلك بعد مرور أكثر من ربع قرن على احتلالهم.) لقد كانت كل هذه الصفات والإمكانات، تؤهِّله لأن يكون عضواً ذا مكانة في مجتمع هذه المدينة، لكنه أدار ظهره بكل استهتار لمثل ذلك، وظل يعيش حياته العابثة التي أدت إلى تدمير مكانته وصحته.

وقد سألت عن أحواله مؤخراً، وكيف دارت به الأيام، فعلمت أنه ما زال أسير حياة الفوضى، وأنه يعيش في كنف امرأة، لا يكاد يغادر بيتها، وتتولى هي تأمين حاجاته من الطعام والشراب والسجائر بعد أن انقطع عن القيام بأي عمل. ولعله رغم الحياة الماجنة التي عاشها، ما زال قادراً على تقديم خدمات جسدية لامرأة ما زالت رغم تقدمها في السن تبحث عن مثل تلك الخدمات.

لقد عرفني هذا المواطن على العشرات والمئات من أبناء المدينة الأصليين وكذلك من المعلمين والموظفين الوافدين إليها، وقد استمرت هذه العلاقة بعد أن انصرمت مع صاحبنا، وبرز من بين من عرفتهم عن طريقه، أصدقاء مخلصون انخرط عدد منهم في صفوف الحزب وفي غمرة العمل الوطني.

(٦)
المنظمة الحزبية المسؤولة والأصدقاء

تشكلت المنظمة الحزبية المسؤولة في أريحا، من الحـــاج صبحـــي سكرتير المنظمة، ومن أحد أقاربه (أبو خليل)، ومن صاحب محل حـدادة اسمه سليم، وقد انضممت بدوري إلى هذه المنظمة ثم غدوت ســكرتيرها فيما بعد.

وبالإضافة إلى الرفاق الحزبيين، كان هناك عدد من الأصدقاء مـــن الشيوعيين القدامى، وممن كانت لهم علاقة بالحزب ممن درسوا في البلدان الاشتراكية.

لكن هذا العدد المحدود من الرفاق والأصدقـــاء، لا يعكـــس دور المنظمة الحزبية التي كانت محور النشاط السياســـي في المدينـــة، والـــتي استقطبت (قبيل قدومي لأريحا) وعبر تجربة "لجان التوجيه الوطني"، كـــل العناصر الوطنية من مستقلين، وبعثيين، وقوميين، وحتى مـــن أوســـاط حركة الإخوان المسلمين التي كان لها تواجدها النشط في مخيم عقبة جبر عبر مؤسسة التعليم المهني التي كانت تديرها.

وقـــد أمكن لنـــا (أنا والحاج صبحي بوجه خـــاص)، خـــلال الأعوام اللاحقة، أن ننشـــئ شبكة من حلقـــات الأصدقـــاء داخـــل القطاعات المختلفة، والتي انضم العـــديد من أفرادها إلى الحزب، وخاصة بعد إبعادنا ورداً على جريمة الإبعـــاد، وسنتوقف هنا للتعريف بعدد مـــن الرفاق والأصدقاء الذين أسهموا في النشاط الوطني في تلـــك الفـــترة، والذين كانوا من ضمن الكتلة التي أعادت اللحمة لذلك المجتمع الممـــزق

في أريحا، وأسهمت في دفعه نحو خضم العملية النضالية ضد الغزاة المحتلين.

الرفيق أبو خليل

كان هذا الرفيق قد بلغ الأربعين من العمر عندما تعرفت عليه، وكان من القلّة من أبناء المدينة ممن يملكون سيارة خاصة، وهي سيارة صغيرة متواضعة كانت تقله إلى مكان عمله كموظف كبير في إدارة وكالة الغوث، وكانت السيارة بالإضافة للوظيفة المرموقة، تسبغ عليه مكانة اجتماعية كان يُحب أن يظهرها دون مبالغة، وكانت تمنحه دالّة على شريحة الوجهاء وأبناء العائلات في المدينة، سيما وأنه ينتمي إلى عشيرة لها وزنها وهيبتها وأملاكها الواسعة فيها.

وقد تميَّز هذا الرفيق بأناقة رجولية كان يحرص عليها، واتسم بتهذيب كان يريده أن يضع حاجزاً بينه وبين الآخرين، حيث أقام علاقات رسمية مع أبناء المدينة فلم يختلط بهم إلا بحساب، لكنه لم يكن يتأخر عن خدمتهم من خلال وظيفته وعبر موقعه الاجتماعي، وكثيراً ما لجأ إليه المزارعون لحل الخلافات الناشئة بينهم وبين أصحاب الأملاك والتجار،وفيما عدا ذلك، فقد كان عالمه محصوراً في بيته ومكتبه.

ولعله ما كان شديد الارتياح لزياراتي المتكررة له في البيت والمكتب، حيث كنت أحمل له جريدة الحزب، وأنقل له الأخبار، وأناقش معه بعض المسائل العملية المتعلقة بنشاطنا في المدينة. لكنه كان يستقبلني بما طُبع عليه من تهذيب، ولم يكن يتأخر عن إبداء رأيه في المسائل المطروحة، وقد ظل بعيداً عن النشاط العملي للحزب التزاماً بتعهده لرئاسة الوكالة بألاّ ينخرط في أحزاب أو في نشاطات سياسية.

وفي أحاديثه كان يشير بتقدير كبير لما اكتسبه من الشيوعية من قدرة على التحليل وعلى رؤية الأمور بوضوح أكبر، وكان يقول بأنه لولا هذه العلاقة مع الشيوعيين لتاه مثل الكثيرين في غمرة الأحداث المعقدة التي تعيشها المنطقة، بل ربما ضلّ الطريق على صعيد مسلكه الاجتماعي وانخرط فيما انخرط فيه غيره من أبناء العائلات من حياة الترف واللهو.

وكان على هذا الصعيد، يخص الأخ الأكبر للحاج صبحي بالتقدير والاحترام، والذي كانت قد أبعدته سلطات الاحتلال إلى شرق النهر منذ مطلع عام ١٩٦٨م، وكان هذا الأخ بثقافته العميقة، وقوّة شخصيته، ذا تأثير عميق على أفراد عشيرته النابهين، والذين استطاع تخليصهم من الوعي التقليدي لأبناء العشيرة، واستطاع إخراجهم من تحت نفوذ زعيم العشيرة الذي ربط نفسه بكل سلطة قادمة.

لقد انعكس هذا الوعي الحديث لدى صديقنا على علاقته بزوجته وبأفراد أسرته، ولا يستطيع المرء أن يحدد سبب ارتقاء وعي الزوجة وحداثة سلوكها مع الآخرين، وبعدها عن الاجتماعات النسوية التقليدية التي يغلب عليها جو الثرثرة والأقاويل وتبادل الشائعات، إذ كثيراً ما كانت تجلس إلينا، وتناقش الوضع العام، وتبدي ملاحظات سديدة في السياسة وفيما يتعلق بالمحيط الاجتماعي. فهل كانت هذه المرأة مؤهّلة لاكتساب هذا الوعي الحداثي أم أن وعي زوجها قد انعكس عليها فانسلخت عن وسطها النسائي التقليدي المشغول بصغائر الأمور؟.

وبالنسبة لأبناء هذا الرفيق وبناته، فقد اتسموا جميعاً وحتى الأطفال منهم، بالجدية، والتهذيب، وكانوا متفوقين في دراستهم، وقد أنهى الأكبر منهم دراسة الطب في اليونان، حيث حصل على منحة

دراسية هناك من البطركية الأرثوذكسية التي كانت ترسل في الغالب الطلبة المسيحيين من أبناء الطائفة إلى جامعات اليونان، لكن علاقة العشيرة التي ينتمي إليها صديقنا بالبطركية، وهي علاقة قديمة تعود إلى أيام الأجداد، وكذلك علاقته الخاصة بها، مكنته وهو المسلم، من الحصول على هذه المنحة لابنه.

لقد ظل أبو خليل عضواً في الحزب طيلة فترة وجودي في المدينة، وظل على صلة بالشيوعيين بعد إبعادنا خارج الوطن أنا وقريبه الحاج صبحي، لكن هذه الصلة تراجعت بعد أن أمسك بالمنظمة الحزبية عناصر شابة من خارج المدينة، أخذت تنظر بقلة اهتمام إلى دوره وإلى خصوصية علاقته بالحزب، وربما اعتبرت أن لا مكان له في صفوف الشيوعيين الذين يجب أن يكونوا من أفراد الطبقات الكادحة، دون انتباه لواقع مجتمعاتنا التي لم تتبلور فيها الطبقات، ولم يقم فيها الفرز على الأساس الطبقي الواضح، إضافة إلى طبيعة المرحلة التي يمر بها مجتمعنا الفلسطيني، وهي مرحلة التحرر الوطني وليس بناء الاشتراكية.

وإخلاصاً مني لذكرى هذا الإنسان الذي عرفته طيلة تلك الأعوام، لابد من الإشارة، إلى أنه في إطار العمل الوطني الذي كنا منخرطين فيه، والذي يتسع لجهود كل فئات المجتمع وكل أفراده في ظل احتلالٍ من نوع خاصٍ استيطاني توسعي إجلائي تهويدي، كان هذا الرفيق، قناتنا المضمونة للاتصال بتلك الشريحة من الوجهاء من كبار الملاكين والتجار، وكان من موقعه الاجتماعي، وبما يتمتع به من سمعة طيبة، قادرا على التأثير على قطاع واسع من أبناء المدينة، ومن كسب ثقتهم بدور الحزب، وذلك ما كنا نُعنى به، بعيداً عن النظرة الطبقوية الضيقة التي أشاعتها في صفوف الحزب القيادة الجديدة، وذلك من قبيل

المزاودة، وبهدف الانفصال والانعزال عن فصائل المقاومة الفلسطينية،و بدعوى" الحفاظ على نقاء الحزب الطبقي"، مع أن تلك القيادة برموزها الأساسية، انحدر معظمها من فئة أبناء كبار الملاكين ومن عشائر لعبت زعاماتها دوراً سلبياً في تاريخ النضال الوطني كما هو شأن عشيرة رفيقنا.

وخدمة للحقيقة، لابد من القول أيضاً، أنه رغم أية ملاحظات يمكن أن نضعها على شخصية هذا الإنسان، والتي أشرت إلى بعضها في حديثي السابق، إلا أنني أسجل له، إخلاصه الصادق للقضية الوطنية، وعدم تأخره عن تقديم أي دعم لنشاط الحزب بما في ذلك استعداده لتوفير مستلزمات العمل العسكري التي سعى الحزب إلى توفيرها في فترة من فترات نشاطه، وقد وقف هذا الإنسان بالمرصاد، لمساعي الوكالة لإغلاق المخيمات المحيطة بالمدينة، وتجميع من تبقى من قاطنيها بهدف تقليص الخدمات للاجئين من أبناء شعبنا، وكان إلى جانب غيرته على المصلحة الوطنية، حريصاً على مصالح أقاربه الذين تشتتوا في المنافي والمهاجر، تاركين بيوتهم وأراضيهم، فظل يرعى هذه المصالح بكل أمانة دون أن يتطلع لأي كسبٍ خاص، مع أن أحداً ما كان باستطاعته أن يحاسبه فيما يقوم به.

الرفيق سليم الحداد

كان في الثلاثينات من عمره عندما عرفته، وهو رجل طويل القامة، عريض المنكبين، واسع الجبهة، فاحم الشعر، يتسم بالهدوء الذي لم يكن ينم عن رصانة بقدر ما ينم عن بطء في التفكير والانفعال والحركة، لم أتعرَّف إلى تاريخه الحزبي، ولكن لعلّه لم يكن ذلك التاريخ

القديم، ولعله مرتبطٌ بصداقة والده مع الشيوعيين القدامى وربما من أيام يافا قبل عام ١٩٤٨م، وكان هذا الوالد، الذي كان صاحب المحل الفعلي للحدادة، أكثر وعياً وحيوية من هذا الابن العملاق.

وأذكر أن الرفيق سليم، كان يشارك في اجتماعات المنظمة الحزبية (ولم تطل تلك المشاركة)، لكنه كان دائماً في وضع المستمع في تلك الاجتماعات، ولم تكن له مساهمة متميِّزة في النشاط الحزبي، ولا أتذكَّر قولاً ينم عن حكمة تفوَّه به طيلة معرفتي به التي لم تمتد طويلاً.

ولعلي أتذكر أحاديثي مع والده أكثر مما أتذكَّره هو، فقد كان يستقبلني في محل الحدادة ببشاشة واهتمام حين أمرَّ على المحل سائلاً عن رفيقنا سليم، وكان يُعنى بالجلوس معي وبسماع أخبار السياسة ومناقشة هذه الأخبار، وكان واضحاً بأنه يملك قدرة على التحليل ومتابعة التطورات، وعلى إقامة العلاقات الحميمة مع الآخرين أكثر من ذلك الابن، ولم تكن شخصية الابن الآخر الذي تعرفت به، بأفضل من شخصية الأوَّل عضو المنظمة القيادية، إذ كان بدوره محدود التفكير، بطيء الفهم والحركة، ولا أدري إن كانت شخصية الوالد، وضمن علاقات أبوية بطريركية، كانت تطغى على شخصية الأبناء العاملين معه في نفس المهنة وفي نفس المكان، ولربما كان هذا الوالد، لا يظهر تلك الأريحية والتبسُّط في علاقاته إلا مع الغرباء وبعيداً عن أفراد أسرته شأن كافة الآباء التقليدين في مجتمعنا.

ولقد حدث ما أنهى علاقتنا بالرفيق سليم، ففي آذار عام ١٩٦٩م، وجد في أريحا أحد الشبان المطاردين من قبل السلطة وهو من حركة فتح، ومن بين الذين شاركوا في عمليات عسكرية. وقد قدم هذا الشاب متهرباً من القدس إلى أريحا بانتظار نقله عبر النهر بعيداً عن أيدي

المحتلين، وفي أريحا التجأ إلى سيدة مقدسية الأصل، تربطه بها صلة قرابة، ولأن زوج هذه السيدة الملقب بالبرنس(أي الأمير)، كان من المشبوهين بل من أبرز المتعاونين مع الاحتلال، فقد لجأت إلى رفيقنا القديم رضوان الحلو (أمين عام الحزب الشيوعي الفلسطيني السابق)، وإلى الرفيق سليم، لإخفائه ريثما يتيسر له من يحمله إلى الأردن، وبعد فترة من الزمن، وبعد أن طال اختفاء هذا الشاب لديهما، تم إقناع الحاج صبحي بإيوائه عنده، بذريعة أن وقوعه بيد المحتلين، وهو الشاب الغض العديم التجربة، من شأنه أن يلحق الضرر بأعضاء آخرين في المجموعة التي عمل معها من تنظيم فتح وبمن آووه من أبناء المدينة. وبوصوله إلى الحاج صبحي، غدا هذا الشاب في عهدة المنظمة الحزبية، و لم أعد بدوري بعيداً عن قضيته وكذلك الأمر مع بعض معارفي الجدد في المدينة.

وقد ألقي القبض على تلك السيدة وأختها بشكل مفاجئ رغم أن الشاب كان ما يزال مختبئاً لدينا، و لم يلبث أن اعتقل رضوان الحلو والرفيق سليم، وجاء دور الحاج صبحي، حيث كان الأمر يتعلق بصمود الرفيق سليم في التحقيق، كونه هو الذي سلّم الشاب المطارد له. وأخذ الحاج يهيئ نفسه للاعتقال، فأحرق كل ما لديه من أوراق حزبيّة، ومنع أي أحدٍ من الأصدقاء وهم كثر، من زيارته أو النوم عنده، وفي الليل، داهم حشد من الجيش منزله المنفرد القائم بين أشجار الحمضيات، وتم اقتحام المنزل من قبل الجنود بعد تطويقه، وبدأ التحقيق مباشرة معه وسط الإرهاب والضرب، في محاولة لانتزاع اعتراف منه، بأنه يقيم في بيته المنعزل، مركزاً لإيواء "المخرِّبين" ولتهريبهم شرق النهر.

وبعد نقله إلى مركز المسكوبية في القدس، وهو مكانٌ متميّزٌ للتعذيب يشرف عليه أكثر المحققين خبرة وشراسة، جرت مواجهة الحلج

بالرفيق سليم الذي كرر اعترافه بأنه هو من سلّمه الشاب المطلوب، فأنكر صاحبنا الواقعة، وشتم سليم وبصق في وجهه، فانهال المحققون عليه بالضرب، ثم أخضعوه لحفلةٍ من التعذيب الوحشي التي كادت أن تقضي على حياته، ولم يُرفع التعذيب عنه إلا بعد إلقاء القبض على الشاب الهارب، وكان قد عاد إلى القدس، وإثر وفاة المناضل قاسم أبو عكر في نفس مركز التعذيب، مما أثار موجة واسعة من الغضب في القدس وفي أرجاء المناطق المحتلّة عام ١٩٦٧م.

وقد أطلق سراح الرفاق الثلاثة بعد فترة بكفالة مالية، وربما لقناعة المحتلين بأن ما جرى هو حادث فردي، وأن الشيوعيين لم ينخرطوا بعد في المقاومة المسلَّحة، وكان من نتيجة هذه الحادثة، أن أبعد الرفيق سليم عن المنظمة الحزبية وانقطعت صلاتنا به.

وعلمت بعد عشرين عاماً من مغادرتي لأريحا، أن هذا الرفيق قد أصيب بجفاف في الدماغ، وبات يعاني من فقدان الذاكرة، فغدا غريباً بين أهله ومعارفه، إذ كان يجلس بينهم كالغريب، لا يتذكر أحداً منهم، ولا يعلم بماذا يحادثهم، لتختم حياته بتلك الصورة المحزنة وهو ما يزال على قيد الحياة.

ولعله من المناسب هنا أن أتوقف عند شخصية البرنس التي كان لها شأن في حياة أريحا، وربما كان يشكل ظاهرة في مجتمع المدينة وجد ما يماثلها من المنتفعين في المدن و المناطق الأخرى، ممن باعوا أنفسهم للمحتلين غير عابئين بنظرة المجتمع المعادية تجاههم.

لقد كان هذا الإنسان من بين المغامرين الذين قدموا إلى أريحا بحثاً عن الثراء، ولا أعلم الجهة التي قدم منها إلى هذه المدينة، وبحسه النفعي، تزوج فتاة من بنات عائلات القدس، مستغلاً سعيها إلى زوج وإلى أسرة

تنشئها بعد أن فاهّا قطار الزواج، ولعلها حملت له بائنة معقولة، مكنته من فتح مكتب للتجارة والاستيراد ولكل أنواع السمسرة في مركز المدينة، ليغدو من فئة الوجهاء رغم أن دخله ما كان يؤهله لذلك. وبعد الاحتلال، تحوَّل مكتبه إلى مركز للصرافة، ثم مكنّه المحتلون من فتح فرع لهذا المكتب على جسر اللنبي الذي كان يعبر عليه المسافرون باتجاه الضفتين، وتولى بالإضافة إلى ذلك، إعداد تصاريح السفر والزيارة للمواطنين كو سيطٍ عند أجهزة السلطة العسكرية، وكل ذلك وفر له مداخيل ما كان ليحصل عليها لولا تعاونه مع المحتلين.

ومع مرور الزمن، غدا مكتبه مكاناً لالتقاء ضعاف النفوس من الوجهاء وذوي الأملاك، ممن يسعون إلى إيجاد خيط يربطهم مع المحتلين حماية لمصالحهم وتجارهم، وتردد على منزله مشاركاً في الحفلات التي كان يقيمها بالاضافة إلى هؤلاء الوجهاء، بعض من كانت لهم صلة بتلك العناصر من متعهدي المقاومة الذين نشرهم عرفات في" مكاتب الغربي"، في بيروت مدفوعين إلى ذلك بحسٍ نفعي مادي، وقد ارتضى هؤلاء أن يجالسوا الحاكم العسكري وضباط الأمن في ذلك المنزل، بدافع التمويه على صلاقم مع أجهزة القيادة العرفاتية.

وقد ألقي القبض على مجموعةٍ من زوار البرنس، وكشفوا عن مخزن سلاح في أحد بساتين أريحا، وأطلق سراحهم بعد فترة من الزمن، ولعل ذلك قد جرى بعد تعهدهم بالتعاون مع أجهزة أمن الاحتلال، بما يكشف عن أساليب عمل تلك القيادة التي أدت إلى كشف الكثير من المجموعات المناضلة قبل أن تنفّذ مهامها القتالية ضد المحتلين. وإن ذلك لا يعني بالطبع، أنه لم تكن هنالك مجموعات اعتمدت على أمنها الذاتي، وأفادت من الإمكانيات التي تقدمها قيادة فتح دون أن تكشف تنظيمها

للمتعهدين القابعين في المكاتب البعيدة، ومكنها ذلك من توجيه الضربات الموجعة للمحتلين.

ولا أستطيع هنا أن أحدد حجم الدور الذي اضطلع به البرنس في تأليب سلطات الاحتلال ضدنا، وفي استصدار قرار الإبعاد بحقنا(أنا والحاج صبحي)، لكنه من المؤكد، أن هذا الشخص كان له دور بذلك، بل كان له الدور الأساسي، إذ كنا من يهدد مكانته ونفوذه في المدينة، ومن يعمل على فضحه وعلى عزله في أضيق الأطر داخل مجتمعها، وكان يحمل لنا من الحقد ما يفوق ما يحمله المحتلون،وذلك يكشف بالطبع، عن خطر الدور الذي يضطلع به العملاء، ويؤكد ضرورة ردعهم، وضرورة تصفية من لا يرتدع من بينهم كما جرى إبان الانتفاضة.

رضوان الحلو

عندما عرفته كان قد بلغ الستين من عمره، فهو من مواليد عام ١٩٠٨م كما سمعته يقول، وهو رجلٌ مربوع القامة رشيق القوام، فيه وسامة رجولية وبشاشة و حيوية وقدرة على إقناع الحضور بأحاديثه الطليَّة. وقد جمع ثروة لدى قدومه إلى أريحا عبر تعهدات لوكالة الغوث عمل فيها مع رفيق عُمره سعيد قبلان، فامتلك منزلاً واسعاً في وسط المدينة أجَّره مدرسة ابتدائية لوزارة المعارف، وأشاد منزلاً فخماً من طابقين في منطقة كتف الواد، كان يؤجر أحدهما للسائحين، وعاش حياةً متقشفة من ريع منزليه.

بدأ حياته العملية في يافا من سن الطفولة، حيث عمل كصبي فرَّان وهو في الثامنة من عمره، وقد جاء اسم عائلته (الحلو)، من عمل أفرادها في الأفران وصناعة الحلويات كما ذكر ذات يوم، واشتغل في المقاولات

بعد أن اعتكف العمل الحزبي عام ١٩٤٣م مع قيام العصبة، وبعد النكبة عاد إلى حياة الكدح، فعمل جابياً في شركة للباصات في نابلس وذلك قبل أن ينتقل إلى أريحا في أوائل الخمسينات.

تعلم القراءة والكتابة بعد دخوله الحزب الشيوعي الفلسطيني في السابعة عشرة من عمره، وترك ذلك تأثيره على شخصيته، إذ كان معنياً دائماً بإبراز ثقافته أمام الآخرين، وكان من بين الدفعات الأولى من الشيوعيين الذين أوفدوا إلى مدرسة الكادر في موسكو وذلك في أوائل الثلاثينات، ونُصِّب أميناً عاماً للحزب بعد عودته من مدرسة الكادر في عام ١٩٣٣م، وتم ذلك بتوصية من "الكومنترن" التي كانت تحث دائماً على "تعريب" الحزب الشيوعي الفلسطيني" التي كانت غالبية قيادته من أوساط المهاجرين اليهود، وخاصة بعد هبة البراق التي أحدثت ارتباكاً في خط الحزب، وأدت إلى انضمام قيادته إلى معسكر المنظمات الصهيونية لدى اعتبارها ما يجري في فلسطين"مذبحة" ضداليهود.

وعندما حدث الفرز في الحزب بين العرب واليهود، بتأثير الانقسام الذي أحدثته ثورة عام ١٩٣٦م - ١٩٣٩م، حيث انحاز المستوطنون اليهود إلى معسكر المستعمرين الإنجليز، وشاركوا في مقاومة ثورة التحرر الوطني العربية إلى جانب القوات البريطانية، عارض رضوان الحلو مبدأ الانقسام في صفوف الشيوعيين، ولم يشارك في بناء "عصبة التحرر الوطني في فلسطين" كحزب للطبقة العاملة والمثقفين العرب، طرح في برنامجه، مهمة تحرير فلسطين من الاستعمار البريطاني وحليفته الحركة الصهيونية، واعتكف السياسة معتبراً ما جرى، خيانة للأممية كما تعلّمها في مدرسة الكادر على يد مستشرقين كان لليهود الروس نفوذ واسع في وسطهم.

وقد روى يوسف خطار الحلو (الشيوعي اللبناني) فيما بعد، أثــر هؤلاء المستشرقين اليهود في مدرسة الكادر على نظرة الشيوعيين العـرب تجاه القضية الفلسطينية، ودورهم في محاربة العناصر المناهضة لفكرة قيــام دولة يهودية في فلسطين باعتبارهم قوميين ومعادين للروح الأممية، حيث كان فؤاد الشمالي أمين عام الحزب الشيوعي السوري اللبناني، وأحــد القادة البارزين في الحركة الشيوعية العربية، أحد ضحايا مكائد أولئـك المستشرقين،إذ نُحي عن قيادة حزبه عام ١٩٣٧م، واتهم بعــد ذلـك بالتعاون مع البوليس الفرنسي، وذلك بسبب توجهاته القومية الصلبــة. ومعاداته للمشروع الاستعماري-الصهيوني في قلب الوطن العربي.

لقد تزوّج رضوان الحلو مرّات عدّة، فترك زوجة وابنة في روسيا، وزوجة وابنة في بلغاريا، ثم طلّق قريبته التي تزوج منــها في يافـا أو في نابلس وحمل ابنتها معه إلى أريحا، وتزوّج بعد ذلك من سـيدة كـانت نزحت مع ذويها إلى قطاع غزة، ورزق منها ثلاث بنات. وهي الزوجـة التي تعرفت عليها في منــزله، ولم تكن تتميَّز بأي حظٍ من النباهة، بـل لعل شخصيته الطاغية قــد حــالت دون تطــور وعيــها السياســي والاجتماعي.

وكان رضوان الحلو، معنياً بوضع نفسه في دائرة وجهاء المدينــة، وكان صديقه وتابعه من بين هؤلاء الوجهاء،فقد جمع ثروة من الكويـت، ثم عمل في تجارة الأراضي والعقارات في أريحا، وما كان يتمــيَّز هــذا الصديق بأية صفات إيجابية غير استعداده لأخذ موقـــع التــابع للقــائد التاريخي، محاولاً من خلال هذا الموقع، التسلل لفئة الوجهاء مــن كبــار الملاكين وأبناء العائلات والذين كان لبعضهم ميول سياســية تجعلــهم ينظرون باحترام لتاريخ رضوان الحلو، وكان هذا الصديـــق شــحيحاً،

وبعيداً عن أي حسٍ وطني، وكانت تبرعاته للعمل الوطني إذا ما أقدم على ذلك، هزيلة لا تتلاءم مع إمكاناته المالية.

لقد ظل صديقنا يعيش على أمجاده عندما كان أميناً عاماً، وعندما كانت جدران يافا والمدن الأخرى مغطاة بالشعارات التي تدعو لإطلاق سراحه من سجون الإنجليز إبان ثورة عام ١٩٣٦-١٩٣٩ . وبسبب ذاكرته القويَّة عن أيام الشباب، غدا أحد المراجع الحيَّة عن تلك الفترة من تاريخ الحزب والطبقة العاملة، وتاريخ فلسطين، وصدف أن التقيت في منزله بالعديد من الدارسين لتلك الفترة، ومن بينهم الدكتور موسى البديري الذي كان يعدُّ رسالة دكتوراه عن "الحركة الشيوعية في فلسطين" والتي نشرت في كتاب ذا أهمية فيما بعد.

وكان يزوره في منزله الرفاق القدامى من قادة "الحزب الشيوعي الإسرائيلي"، من أمثال إميل حبيبي وتوفيق زيَّاد اللذين كانت لهما حُرية التنقل بحكم عضويتهما للكنيست الإسرائيلي، وكان يحضر أحياناً توفيق طوبي وغيره، ولم يصدف أن التقيت بشيوعيين وباحثين يهود عنده مع أني كنت أعلم بزيارتهم له.

غير أن ما ذكرته عن هذا الإنسان، لا يختزل شخصيته، إذ هناك سفحٌ آخر لهذه الشخصية شأن العديد من الشيوعيين الذين كانوا مخلصين لوطنهم ولشعبهم وضحوا في سبيل الشأن العام رغم خلل موقفهم إزاء القضية الفلسطينية، المتحدِّر إليهم من مركز الحركة الشيوعية في موسكو، وكذلك رغم أية ملاحظات على مسلكهم الخاص.

فرضوان الحلو الذي انعزل عن النشاط السياسي عام ١٩٤٣م، عاد لينشط بعد النكبة، مشاركاً في تظاهرة نابلس التاريخية التي تصدرها الشيوعيون ضد "مؤامرة الضم والإلحاق، وشطب فلسطين من الخارطة

السياسية للمنطقة". والتي نُفذت عبر مؤتمرات الوجهاء المزوّرة، وعبر الانتخابات البرلمانية بمشاركة أهالي الضفة التي رتبها النظام في الأردن، وقد تعرَّض للاضطهاد مع باقي الرفاق، حين أمر الملك عبد الله بجرهم خلف أذناب الخيل من سجن نابلس إلى عمان، حيث توقفت مسيرة الجر المرفقة بالضرب والإهانة عقب وفاة أحد القادة الشيوعيين وهو روحي زيد الكيلاني.

وقد نشط كذلك، عقب نكسة عام ١٩٦٧م، واحتلال باقي فلسطين من قبل الصهاينة، وكان أحد الأعضاء الفاعلين في "لجنة التوجيه الوطني" التي تشكلت في أريحا، وبدا على استعداد للمشاركة في مختلف النشاطات المعادية للاحتلال والمتصدية لمشاريعه الإلحاقية وخاصة مشروع الإدارة الذاتية التي طرحتها حكومة حزب العمل منذ الأيام الأولى للاحتلال. ولم يكن بعيداً عن المذكرات والمسيرات التي نظمت في المدينة، وذلك في أصعب اللحظات التي كانت تشن فيها حملات الاعتقال والإرهاب والإبعاد ضد الوطنيين.

وأذكر أنه صعق كغيره بنبأ وفاة عبد الناصر، وكان أوّل من سمع بالنبأ قبل بزوغ فجر الثامن والعشرين من أيلول عام ١٩٧٠م، فنهض لتوه، وذهب إلى الجامع ليكون بين المصلين صلاة الفجر، ثم أخذ يطوف على التجمعات في أرجاء المدينة مهيئاً للجنازة الرمزية الضخمة التي انطلقت صبيحة اليوم التالي.

وتوفي رضوان الحلو في مطلع عام ١٩٧٥م بذبحةٍ صدرية، وقد علمت بأنه قد نشط بشكلٍ واسع عقب إبعادنا من جانب المحتلين، وكان في خضم الهبة الشعبية التي اندلعت في تلك الفترة، ولعلها يقظة الموت هي التي حفزت هذا الإنسان لأن يختم حياته بجهدٍ نضالي كان مثار

حديث المدينة، أو لعل هذا الجهد، هو ما سرَّع بموته، ليتذكره النـاس في صورة إيجابية وليكرموه كشهيد من شهداء الوطن.

سعيد قبلان

كان في منتصف الخمسينات عندما عرفته، وهو رجـلٌ ضخـم الجثة، بارز البطن، ثقيل الحركة، مصابٌ بمرض النوم، واضـح النشـأة الريفية، إذ كانت علاقاته تدور بين المزارعين من أبناء الطبقة الوسـطى بعيداً عن شريحة الوجهاء من أبناء العائلات المدينيَّة.

وقد ارتبط تاريخه الشيوعي بالحركة العمالية في يافا، فكان أحـد أعضائها البارزين، و لم يملك ثقافة عميقة حيث غلب على نشاطه الجانب العملي، وكان يعوِّض ذلك، بحب الناس له من المحيطين، إذ كـان بيتـه الواسع مفتوحاً لبسطاء المزارعين، وعلى مائدته كان يجتمع من لهم علاقة بالحزب من الأطباء والموظفين، وكان في هذا الجانب على النقيض مـن صديقه القديم، وشريكه السابق في أعمال المقاولات أي رضوان الحلـو، الذي كان شديد التدبير في الجانب المالي.

ولفت نظري في هذا الكهل، اهتمامه بالنسـاء، إذ كـان دائـم التفكير بالجنس الآخر، ولعل مردٌ ذلك، مرض زوجتـه الـتي هرمـت وفقدت الذاكرة إثر الحادث الذي أودي بحياة ابنتها الكبرى. وقد كنـت وأنا الشاب في مطلع العشرينات، لا أستوعب حديثه عن النساء وهـو في تلك السن. لكن صاحبنا ما كان يندفع وراء صبواته حرصاً منه علـى سمعته مكتفياً بالأحاديث والتعليقات على هذا الصعيد، فحين كنا نجلـس أمام المقهى سوية، وتمر السائحات في مجموعات عارية السيقان والنحور، كان يردد بحرقةٍ: "أهذه نعجة، وتلك التي عندي نعجة؟؟" ثم أن وضعـه

الصحي، لم يكن يؤهله لتلك الصبوات المتأخرة، إذ أصيب بنزف دماغي بعد زواجه الثاني إثر وفاة زوجته، وعاش بعد ذلك بضعة أعوام مريضاً عاجزاً. وإذ أقارن الآن بين الرفيقين اللذين كنت أراهما قادمين من زمنٍ آخر، هو زمن ما قبل النكبة ومن أيام فلسطين التي لم يعرفها جيلي قبل تمزيقها وتشتيت شعبها، فإنني أشعر أنني أكثر قرباً من سعيد قبلان، وأكثر محبة لبساطته وطيبته وكرم نفسه، وهو ذلك الكرم الذي أوصله لحالةٍ من العوز في أيامه الأخيرة.

لكن بساطته التي قربت الناس إليه، لا يمكن أن تعوض ضعف نشاطه السياسي، وذلك على النقيض من صاحبه، الذي ظل يرى في نفسه قائدا سياسيا، وظل يسعى للحفاظ على موقعه في العمل الوطني، ولم يكن بعيدا عن رموز "الجبهة الوطنية" التي تشكلت عام ١٩٧٢م في الضفة والقطاع، كما لم ينعزل عن الوسط السياسي في المناطق المحتلة عام ١٩٤٨م.

لقد ارتضى سعيد قبلان حياة التقاعد في الجانب السياسي، وبقي رضوان الحلو متشبثا بموقع ما في الحياة السياسية، يحفزه إلى ذلك، وعيه المتقدم، وشخصيته الجادة وطموحه الإجتماعي.

(٧)
الحاج صبحي والتجربة الحزبية في أريحا

كان في منتصف الثلاثينات حين التقيت به، رحمه القوام، متين البنية، أشقر الشعر، مرتب الهندام، شحيح النظر بسبب عاهةٍ في الشبكية فاقمتها أيام السجن الطويلة.

ربطتني به صداقة استمرت طويلاً، فإضافة لما جمع بيننا من المعتقد الفكري والتوجه السياسي، جمع بيننا كذلك الاهتمام بالموسيقى، فكان يتقن العزف على العود وقد درس ذلك في القاهرة في أيام صباه، وكان يحفظ أغاني التراث المديني الذي حفظه خلال حياته في القدس، والذي كان مختلطاً بتراث المنطقة، في مصر وسورية الطبيعية والعراق.

وكان يحظى بمكانة جيدة في أريحا، ارتبطت بمكانة عشيرته من ناحية، وبموقع أخيه الأكبر في الحركة الوطنية والتقدمية، والذي مكنته ثقافته، وعلاقته الوثيقة برابطة المثقفين العرب التابعة للعصبة، ثم تربية والدته المقدسية ذات الأصل الخليلي، من التمرد على تقاليد العشيرة، ومعارضة خط زعيمها السياسي الذي وضع نفسه بتصرف كل سلطة قادمة. وقد تربى صديقنا في محيط هذا الأخ الذي حافظ على نقائه، وعلى صلاته الوطنية والتقدمية حتى بعد بلوغه الثمانين من العمر.

وأعطته هذه المكانة أيضا في مجتمع أريحا، تجربته الطويلة في السجن، وصموده (وهو ابن العائلة الميسورة، وابن العشيرة التي زودت السلطات الحاكمة بكبار الضباط ورجال البوليس) أمام قمع السلطة، و بوجه تعذيب الخبير الألماني النازي، الذي أعارته المخابرات الأمريكية

للنظام في الأردن كي يتمكن من القضاء على الشيوعية، ومن ضرب الحركة الوطنية بوجه عام وذلك في مطلع الستينات، وكانت على هذا الصعيد، تُروى الحكايات عن صلابته في السجن، وعن بسالته في التصدي لرجال الأمن في أريحا الذين كان يطلقهم النظام لإرهاب الوطنيين.

وتعززت مكانته فيما بعد، بالموقف الذي عبر عنه في مواجهة الاحتلال، حيث كان من بين القلة الذين ثبتوا في أرضهم ومنازلهم أمام ضراوة العدوان، مسهما بثبات المحيطين به من الأقارب والمعارف، وتعززت هذه المكانة أيضا، بالوعي الديمقراطي الذي تمثله والذي مكنه من القطع مع الوعي العشائري التقليدي، وكان يحب أن يردد، بأنه خائن لطبقته، ولعل تربية والدته، هي ما حرره مع أخوته من تلك العنجهية القبلية التي طبعت أفراد عشيرته.

وإلى جانب بساطته وتفتح فكره، فقد تميز بروح الدعابة التي يتسم بها الناس الأقوياء القادرين على الابتسام في الظروف الصعبة، وقد مكنته هذه الشخصية السلسة والصلبة، من الدخول إلى قلوب الناس من مختلف الفئات الطبقية، ومختلف المشارب الفكرية والتوجهات السياسية. ومما لا شك فيه، أن علاقتي الوثيقة به، قد مكنتني من إقامة أوسع الصلات في المدينة، ومن أخذ موقعي في حركتها الوطنية المتنامية.

لقد كنا نجلس أمام المقهى الرئيسي في المدينة في الأمسيات، وكان رواد المقهى يتحلقون حولنا يستمعون لآخر الأخبار ولتحليلاتنا السياسية، وكانت تلك الجلسات أشبه بالمنتدى اليومي، فكان يزيد عدد الحضور أو ينقص ارتباطا بالمناخ السياسي المحلي، فإبان موجات القمع، كان ينفض الناس من حولنا، ويغدو المقهى خاليا حال وصولنا إليه، ثم

تعود الحلقة إلى الانتظام والاتساع مع عبور الموجة، وكان ذلك مثار تندرنا، حيث كنا نقيس درجة القمع في المدينة بضيق أو اتساع حلقة الحضور من حولنا.

وقد حزن صاحب المقهى لدى اعتقال صديقنا في آذار عام ١٩٦٩م، فشكا إلي خسارته من جراء ذلك قائلا: "لقد كان الحاج يجلس هنا ويقوم بعمله بينما أقوم أنا بعملي" مشيرا بذلك إلى إفادته من الزبائن الذين يتجمعون حول صديقنا.

وبشأن عشيرة هذا الرفيق والتي لا يختلف تاريخها عن العديد من العشائر التي ظهرت في فلسطين والمنطقة، فقد روى لي شذرات عن تشكلها وعن دورها، فجدها الأكبر يتحدر من إحدى القبائل البدوية التي كانت تتنقل في سورية الطبيعية، وقد لجأ إلى قرية قرب القدس حين غدا مدميا ومطلوبا لثأر، ومن بطن الجبل الذي كمن فيه على مشارف القرية أخذت العشيرة اسمها الذي عرفت به، وقد تزوج من بنات القرية، وأنجب فرسانا مقاتلين وأنجبوا بدورهم محاربين شجعانا عاشوا من حد سيوفهم وفوهات بنادقهم.

ولم تلبث أن ألزمتهم السلطات العثمانية بحماية طريق الحجاج المسيحيين القادمين إلى القدس مقابل جراية مالية، ونظير هدايا كانوا يحصلونها من قناصل الدول الأجنبية، ولعلهم عمدوا إلى سلب الحجاج في حال تأخر الجهات المعنيةعن إرضائهم، وقد ظلوا يقومون بهذه الوظيفة إلى أن خضعت البلاد للاستعمار البريطاني الذي سعى لبسط سيطرته الأمنية على ضفتي النهر، فدخل بعض أفراد هذه العشيرة في البوليس البريطاني، وطلب آخرون منهم الهجرة إلى البلاد الجديدة. وبعد إلحاق الضفة الغربية بالمملكة التي أقيمت شرق النهر، سعى النظام لإدماج أبناء

العشائر في أجهزته ليعمق نفوذه في المناطق التي جرى إلحاقها بمملكته من فلسطين، مثلما عين الوجهاء وأبناء العائلات في وزاراته وفي مجلس أعيانه.

وعاش أفراد هذه العشيرة في الغالب على أمجاد غابرة من السطوة والنفوذ، وأنشأ بعضهم ملكيات واسعة في أريحا ضاقت بأفراد أسرهم الكثيرة العدد، فاتجه بعضهم للجيش وجهاز البوليس محافظين بذلك على تقاليد العشيرة، بينما اتجه البعض الآخر للتعليم، فحازوا على مؤهلات علمية متقدمة، وبقي بعض الخريجين منهم في المهاجر، وقد أبت سلطة عرفات الوهمية فيما بعد، إلا أن تعين من بين هؤلاء الخريجين وزيرا لديها، مثلما عينت وزراء آخرين من أبناء العائلات والعشائر الأخرى التي وضعت نفسها بتصرف السلطات المتعاقبة التي مرت على هذه البلاد.

لقد شكلنا سوية، أنا وهذا الرفيق، محورا للعمل الوطني في أريحا، ونظمنا مع مرور الوقت، حلقات من الناس الذين هم موضع ثقة في مختلف القطاعات داخل المدينة، بما في ذلك المدارس وتجمعات المعلمين، ومراكز الصحة بما فيها المشفى الحكومي، ومركز البريد، والبيطرة والإرشاد الزراعي، والمحكمة، والمالية، والكهرباء، وأوساط المزارعين، وباقي الأهالي، وذلك بالإضافة إلى شريحة الوجهاء والتجار، وقد غدونا قادرين على إسماع رأينا لكل سكان المدينة وفرض موقفنا السياسي وتوجهاتنا داخل مجتمعها.

غير أن اقتصار نشاطنا على الجانب السياسي ـ الجماهيري، جعلنا نبتعد شيئا فشيئا عن ذلك الجيل من الشباب، الذي أخذ يبحث عمن يلبي تطلعه للمشاركة في أشكال المقاومة العنيفة، وبسبب قلة خبرة

أولئك الشبان، وضعف حسهم الأمني، أمكن لأجهزة الأمن أن تنصب لهم الأفخاخ عبر العملاء الذين جرى تنظيمهم لتلك الغاية.

وإذ أقيِّم الآن تجربتنا في العمل الحزبي، فإنني لابد أن أشير مجدداً، إلى أن هذه التجربة قد انحكمت بواقع مجتمع أريحا الذي خسر أبناء المخيمات بالدرجة الأولى نتيجة الاحتلال، والذين يشكلون الجسم الأكثر صلابة والأشد مراساً في مقاومة الاحتلال، وكان علينا أن نعتمد على فئات الطبقة الوسطى الأقل تضحية رغم كرهها للمحتلين، ورغم توقها إلى نزع نيرهم ودحر مشاريعهم التوسعية العدوانية. وقد فرض ذلك أن نُنزل سقف نضالنا ليبقى في إطار النضال الجماهيري.

يضاف لذلك، سياسة الحزب بوجهٍ عام، وبرنامجه الملتبس المعبَّر عنه في وثيقة "إزالة آثار عدوان ١٩٦٧". وهي الوثيقة التي لم يلبث أن تجاوزها الزمن، حين بدأت الجماهير الفلسطينية تعيد طرح قضيتها من جذورها، كقضية تحرر وطني للشعب العربي الفلسطيني، وليست فقط قضية عدوان جديد أدى إلى احتلال الضفة والقطاع.

وعلى هذا الصعيد، سعت قيادة التنظيم الحزبي في الضفة، إلى إقناع قيادة الحزب في عمان، بإعادة النظر في هوية الحزب لجهة إبراز الهوية الفلسطينية في تسميته، وذلك كي يتمكن التنظيم في الداخل، من مواكبة توجه الجماهير التي طرحت جانباً فكرة العودة للسيادة الأردنية، كما سعت هذه القيادة، لإقناع التيار المهيمن في عمان (مدعوماً من موسكو)، إلى توفير الإمكانات لتنظيم الداخل، كي ينخرط في المقاومة العنيفة ضد المحتلين إلى جانب أشكال المقاومة الأخرى، لكن قيادة عمان رفضت هذين التوجهين، وضربت حصارا على تنظيم الداخل، بانتظار الفرصة الملائمة لتغيير قيادته ذات النزعة "القومية المتطرفة". وقد تم لها

ذلك بإبعاد هذه القيادة من قبل سلطات الاحتلال وخاصة مسؤول العمل التنظيمي فيها الرفيق عربي عواد.

كما أثّر على هذه التجربة، موقع أريحا الحدودي، وتكثيف النشاط الأمني للمحتلين فيها، الأمر الذي جعلنا أكثر حذراً بالنسبة لتوسيع قاعدة المنظمة الحزبية، والتركيز من ثم على أسلوب الصداقات الشخصية والاجتماعية تجنباً لضربات تنظيميَّة محتملة.

لقد أنشأنا في هذه المدينة، صيغة من العمل الجبهوي الجماهيري التي تضم ممثلين عن مختلف القوى ومختلف الشرائح الطبقية، وعندما أنشأ الحزب، بعد اتصالٍ مع قيادة الفصائل الأساسية في بيروت، "الجبهة الوطنية الفلسطينية"، وقد تم ذلك من خلال تجاوز إرادة التيار المهيمن في قيادة عمان الحزبية، شعرنا في أريحا، بأن هذه الصيغة لا تضيف عناصر قوَّة للعمل الوطني، وأنها لا تعدو بأن تكون بجرَّد قلب لاسم الصيغة القائمة والمشكلة من الحزب وأصدقائه، وقد أوضح لنا الرفاق، بأن هذه الصيغة من شأنها أن توحِّد النضال الوطني الفلسطيني في الداخل والخارج، كما أنها تشكل التفافاً على موقف القيادة في عمان التي ظلت ترفض إبراز الهوية الوطنية، وترفض انخراط الشيوعيين في الثورة الوطنية المعاصرة، كما أن العديد من الشخصيات المستقلة التي لها وزنها في أرجاء الضفة والقطاع، وجدت في هذه الصيغة إطاراً ملائماً لانخراطها في نضالٍ وطني موحَّد.

لقد جاءت تجربتنا في مثل هذه الظروف المحيطة، وقد عشنا عبر هذه التجربة أياما غنية بالنشاط والعطاء، ولم نكن نهدأ عن الحركة لا في الليل ولا في النهار، وقد جاءت حرب تشرين وما أحدثته من نهوض وطني لتضاعف من أعبائنا، ولتسرع من وتيرة تحركنا في محاولة للإمساك

بنبض الشارع الذي أخذ يمور بالحركة. وأذكر أنه عندما جرى توقيفي في خريف عام ١٩٧٤م، شعرت بأنها إجازة للراحة بالنسبة لي، وفرصة لتمديد ساعات نومي بعد أن أصابني الإرهاق جراء النشاط المتواصل.

وإذ أمضي في التعريف بشخصية صاحبي الحاج صبحي، فإني أنتقل الآن للسفح الآخر من هذه الشخصية، ذلك أن هذا الإنسان الذي قدمته كنموذج للمناضل الصلب، قد انحاز فيما بعد للتيار الذي هيمن على تنظيم الداخل عبر الانقلاب الذي نظمته رموز التيار الكوسموبوليتي في قيادة الحزب في عمان. وقد انحسم موقف هذا الرفيق، لدى الإعلان عن قيام الحزب الشيوعي الفلسطيني عام ١٩٨٢م، والذي أراد له هذا التيار، بأن يكون حزبا لأبناء الشعب الفلسطيني في الضفة والقطاع فقط، على أساس أن الدولة الموعودة لهذا الشعب ستنحصر في هذه المناطق، لتقوم دولة فلسطينية إلى جانب دولة إسرائيل، فتقيم علاقات من "حسن الجوار" مع تلك الدولة الجارة.

وقد لعب صاحبنا دورا بارزا في عملية التخريب ضد التيار الثوري في الحزب، والذي غدا مركزه في لبنان وامتد نفوذه إلى ساحات الخارج وخاصة في أوساط المنظمات الطلابية، حيث عمل التيار "الكوسموبوليتي" على إعادة تنظيم فروع الخارج، مستبعدا العناصر الثورية. وبدا هذا الرفيق مغاليا في عدائه للخط الثوري الذي اعتبر "خطا قوميا متطرفا معاديا للسوفييت ومتذيلا لفصائل المقاومة"، وقد أفاد منه كثيرا التيار الكوسموبوليتي، نظرا لمعرفته الوثيقة بميول العناصر الحزبية في الخارج.

وعقب انهيار المنظومة الاشتراكية وتفكك الاتحاد السوفييتي، وتخلي قادة التيار "الكوسموبوليتي" عن الهوية الشيوعية وتبنيهم اسما آخر

لحزبهم الذي غدا "حزب الشعب"، ذهب صاحبنا بعيدا في التنكر لتاريخ الشيوعيين، مرددا مقولة إميل حبيبي بأن كل هذا التاريخ كان كذبة كبرى، وملتزما بما طرحه مؤتمر حزبه، من أن تسمية الأحزاب الشيوعية في مجتمعات كمجتمعاتنا العربية، قد تمت تحت ضغط وابتزاز من المركز السوفييتي(؟؟).

وعلى الصعيد الوطني، فقد شارك هذا الحزب (حزب الشعب) في تخريج صفقة أوسلو، بل اعتبر وصول قيادة المنظمة لهذه الصفقة، بمثابة عودة للنهج الواقعي الذي طالما عبر عنه هذا الحزب، وقد كوفئ صاحبنا نتيجة ارتباطه بهذا الحزب، بأن كان من أوائل العائدين إلى الضفة ليسهم قدر استطاعته في الترويج لأوسلو وذلك في خريف عام ١٩٩٣م.

وحرص أن يزورني في منزلي قبل عودته بيوم واحد، وكان اللقاء متوترا بيننا، وقلت له: ها قد بعتم الشيوعية بعد أن لم تعد مربحة لكم، مثلما بعتم في السابق القضية الوطنية من خلال اعترافكم بالكيان وموافقتكم على عدم مقاومة احتلاله عن طريق العنف.

وقد رشح صاحبنا نفسه لعضوية مجلس الإدارة الذاتية للسلطة الوهمية التي أقامها تيار عرفات في الداخل على قاعدة أوسلو، فلم ينل في أريحا، غير عشرات الأصوات، حيث اختارت الجماهير من هو أكثر أصالة منه في النهج العرفاتي، ولقد تخلت الجماهير عمن تخلى عن الشخصية التي عرفته بها، وهي شخصية المناضل الصلب.

وحين نلقي بسؤالنا على هذا الصعيد، ما الذي أوصل هذا "المناضل" الذي عرف بصلابته، إلى ما وصل إليه من انحدار فيما يتعلق بالموقف من الشيوعية، ومن القضية الوطنية والقومية؟. فإن جوابنا على ذلك، ولكي يكون موضوعيا، لابد أن يتطرق للعوامل الموضوعية

والذاتية . فما هو موضوعي عام، إنما يرتبط بثقافة الشيوعيين الفلسطينيين (والعرب)، إزاء دولة إسرائيل، وإزاء الصراع العربي-الصهيوني، بينما يعود ما هو خاص، إلى شخصية هذا الرفيق، وإلى البذور الكامنة فيها التي أوصلته إلى العدمية الثورية، حيث ترعرعت هذه البذور، في مناخ النهج الذي عبر عنه حزبه، والتيار الذي انحاز إليه.

لقد سادت في صفوف الشيوعيين ثقافة الاغتراب عن هويتهم العربية الإسلامية، شأنهم في ذلك، شأن سائر النخب المتغربة العربية، التي رأت المخرج فيما تعيشه مجتمعاتنا من تأخر وضعف، إنما يتم بنسخ تجربة التقدم الغربية، سواء منها الرأسمالية أو الاشتراكية، وذلك دون الغوص في خصوصية مجتمعاتها، ودون استيعاب خصوصية الظروف التي تمر بها بلدان العالم الثالث في ظل واقع العولمة الرأسمالية.

وارتباطا بهذا الاغتراب، وواقع التبعية للمركز السوفييتي (الغربي)، شاعت في صفوف الشيوعيين العرب، ثقافة العداء للروح القومية، من خلال إقامة تعارض بين الأممية والقومية، ولم تدرك أحزابنا بأننا في العالم الثالث، لم نحقق بعد أهدافنا القومية، وأنه لابد من المزاوجة والربط بين الهدف القومي وهدف بناء الاشتراكية ضمن الظروف الخاصة بمجتمعاتنا ودون القطع مع موروثها الثقافي.

وبوحي المركز أيضا، ومن موقع التبعية، شاعت في أوساط الشيوعيين العرب، ثقافة تقبل الكيان الصهيوني، واعتبار هذا الكيان تجسيدا لحق اليهود في تقرير مصيرهم على جزء من وطننا العربي، وأن تجمعهم الاستعماري الاستيطاني، قد تحول بقدرة القوى الإمبريالية، وعدوانية وعنصرية الصهيونية، إلى" أمة في طور التكوين"، لها من الحقوق الديمقراطية -كحق تقرير المصير- ما للأمم الأخرى، بما في ذلك

الشعب العربي الفلسطيني، رغم أن العدوان الإمبريالي-الصهيوني، قد قرر على الأرض، مصير هذا الشعب عبر الاقتلاع وعبر نفي هويته الوطنية، وتمزيق الوطن العربي، بزرع هذا الحاجز البشري الغريب في موقع مفصلي من خارطته الجغرافية.

لقد عجزت هذه الأحزاب بسبب تبعيتها وخضوعها للمركز، وتلقيها للوصفات الجاهزة منه، عن ابتكار فهم خلاق للماركسية يحلل واقع مجتمعاتها، وواقع الصراع الذي تعيشه الأمة العربية في مواجهة مشروع الإخضاع الإمبريالي الصهيوني، وتجاهلت كل الوقائع التي تؤكد على أن الكيان الصهيوني، هو استعمار استيطاني من طراز خاص، ففي حين قامت الكيانات الاستعمارية الاستيطانية بدافع اقتصادي في الأساس، سواء في العالم الجديد أو في عدد من البلدان الإفريقية، فإن الكيان الصهيوني، إنما قام بدفع من الحلف الاستعماري الغربي، بهدف منع وحدة الوطن العربي، ومن أجل استترافه وإخضاعه للمصالح الغربية.

وفيما يتعلق بشخصية الرفيق، فإنه بالإضافة لهذه الثقافة الكوسموبوليتية (اللاوطنية)، فقد ظلت كامنة لديه بذور الحنين إلى العشائرية، والتي تبرز عادة، شأن كل النزعات ما دون الوطنية والقومية، في مراحل الانهيار والإحباط.

فقد عاد رفيقنا لوضع نفسه في صف كبار الملاكين، وغالى بعد ذلك في هذه النزعة، واضعا يده على أملاك أسرته التي شردها الاحتلال، وهجرها الظروف القسرية التي عاشها شعبنا منذ النكبة، مستعديا كل أفراد الأسرة التي كانت تحيطه برعايتها واحترامها.

يضاف إلى ذلك، ميله إلى حياة البطالة المليئة بما يسد فراغ هذه

الحياة من إغراق في الشراب وجلسات الأنس والمسرح، وفي رحلات النقاهة إلى البلدان الاشتراكية، التي كانت بمثابة رشوة للمناضلين المتبطلين، ثم عدم القدرة صحيا، على القراءة والتثقيف الذاتي، والتعويل بالتالي على الثقافة الشفوية، التي غدت ثقافة معلبة جاهزة، مستوردة من المركز بالنسبة لغالبية الشيوعيين، دافعة إياهم نحو الكسل الفكري، إضافة إلى تلك العطالة التي تصيب اللاجئين السياسيين فتقرض كل ما حملوه ذات يوم من مبادئ ومن قيم ثورية

(٨)
حلقة الاتصال الحزبي

لقد تداول الاتصال بمنظمتنا الحزبية في أريحا خلال الأعوام الستة، ثلاثة رفاق من قيادة المنطقة، هم: أبو جميل، وأبو وديع، ومحمد السواحري، وإن التعريف بهؤلاء الرفاق وتتبع مصائرهم ومساراتهم السياسية، من شأنه أن يلقي المزيد من الضوء على جانب من النضال الفلسطيني، والمتعلق خاصة بتلك الفترة من تاريخ الشيوعيين الفلسطينيين، التي حاول فيها تنظيم الداخل، تجاوز السقوف المرسومة له من قبل المركز (في عمان وفي موسكو)، لكنه أثقل بالقيود المفروضة عليه، وترك أعضاؤه وحدهم في مواجهة بطش الصهاينة بدل أن تثار حملات التضامن معهم من جانب قيادة الحزب، ويقدم الدعم لأسرهم وأبنائهم.ثم جرى الانقلاب على النهج الذي جسدته قيادة التنظيم آنذاك وانساق من انساق مع النهج الجديد-القديم.

أبو جميل

عرفت هذا الرفيق منذ كنت طفلا وذلك في أوائل الخمسينات، وكان في ذلك الوقت شابا صغيرا متمردا، يبحث عن طريق آخر ينفس فيه طاقته غير طريق والده مرتل الكنيسة أو طريق خاله الكاهن. وقد نشأ في أسرة معوزة، إذ كان دخل والده في شغل الصدف لا يغطي أدنى احتياجات الأسرة الكثيرة الأفراد. واضطره ذلك للعمل صغيرا قبل أن ينهي السنة الخامسة من دراسته، حيث عمل في دق الحجارة، وهي المهنة

السائدة في بلدتنا (بيت ساحور) التي ضربت الشيوعية جذورا في مجتمعها، وخاصة في فترة النهوض القومي في المنطقة في منتصف الخمسينات.

وقد خلقت منه ظروف عمله، وتمرده الفطري، وحياته القاسية، إنسانا مقاتلا كان يتقدم الصفوف في المعارك الوطنية التي اندلعت في تلك الفترة، ولا أكاد أذكر أحدا غيره من الشيوعيين الذين كانوا يحضرون إلى مدرستنا لإخراج التلاميذ للمشاركة في المظاهرات التي بلغت أوجها في معركة إسقاط حلف بغداد أواخر عام ١٩٥٥م.

وبعد عام ١٩٥٧م، غاب هذا الإنسان ثمانية أعوام عن البلدة، قضاها في السجون، وذلك إثر الانقلاب الذي قاده الملك ضد حكومة النابلسي الوطنية. وأذكر أن رجال المخابرات ظلوا يلاحقونه فترة من الزمن قبل أن يتمكنوا من إلقاء القبض عليه، فكانوا في كل يوم يداهمون منزله وسط مظاهر من الإرهاب، وكثيرا ما كان يفر من النافذة أو من الباب الخلفي فلا يجرؤون على مطاردته لما عرف عنه من شراسة وقدرة بدنية استحق عليها لقب "الغول" الذي كان في الأصل لقب عائلته.

وفي هذه الأعوام الثمانية التي خيم على البلاد فيها جو القمع، جاء تفتحنا كجيل جديد، فكان سماع إذاعة القاهرة أو صوت العرب، كفيلا بإرسال السامع إلى السجن، فتركت هذه الأوضاع تأثيرها على وعينا، واتخذ تمردنا شكل التمرد الفردي الوجودي، واجتذبتنا كتابات سارتر بدل الكتب الماركسية التي كانت محظورة آنذاك.

وفي نيسان ١٩٦٥م، جاء العفو العام الذي لم يستمر غير بضعة شهور، فعاد رفيقنا إلى البلدة، واجتذبتني ثقافته التي حصلها في السجن وكذلك مسلكه الجاد، واقتربت أكثر من الشيوعية، وبعد عودتي إلى

البلاد عقب حرب حزيران، انخرطت في منظمة حزبية كان أبو جميل هو المشرف عليها، ثم غدا حلقة الاتصال بمنظمة أريحا الحزبية بعد سفري إلى تلك المدينة.

وقد كان رفيقنا يحضر إلى أريحا بين فترة وأخرى ليجتمع بالمنظمة المسؤولة، ويحضر معه نشرة الحزب السرية (الوطن)، وقد أخذت ألاحظ مع تقدم وعيي ومعارفي، أن رفيقنا لا يملك القدرة على قيادة منظمة تضم أعضاء يفوقونه ثقافة ومعرفة وقدرة على التحليل، ثم أن الحاج صبحي الذي عاش معه طيلة أعوام السجن، ما كان مقتنعا بأن يكون هذا الرفيق مسؤوله الحزبي، فطالبنا بتغييره، وبإرسال رفيق أكثر كفاءة منه في مجال التحليل السياسي، وأكثر قدرة على عكس سياسة الحزب ونقل توجهاته.

لقد غادرنا الرفيق دون أن يترك ذلك أية حساسية لديه، وظللت على علاقتي الطيبة به بعد ذلك، فكان يزورني كلما قدمت إلى البلدة، وكان يطيل السهر لدي ساردا كل ما تجمع عنده من أخبار عن أهل البلدة طيلة فترة غيابي، وقد لاحظت بشكل أعمق ضحالة اهتماماته، إذ كثيرا ما كان يشغل نفسه بأحداث تقليدية من نزاعات العشائر، مسبغا عليها مضامين طبقية وسياسية لم تكن تمت لها بصلة، وأكثر ما كان يستفز الشباب من معارفي إزاء الرفيق، دخوله معهم في حوارات ثقافية وفنية، محاولا تقديم صورة عن الشيوعي كعارف في كل المجالات. وكذلك إثارته معارك في نادي البلدة، حول مسائل ثانوية لا تستحق العراك.

ورغم ارتقاء مكانة الرفيق الاجتماعية ارتباطا بموقعه في الحزب، وبما حصله من تقدير بسبب تضحياته، فقد ظل الإنسان العملي الشديد

النشاط، ولم يركن إلى مظاهر الوجاهة، وقد برزت صلابته مجددا، حين أخضع لحملة من التعذيب إلى جانب الرفاق الذين كانت لهم صلة بالعمل العسكري، وذلك في عام ١٩٧٤م، وقد تعرض لموجة تعذيب مكثفة على يد الجلادين الصهاينة، فكان يحمل في كل صباح، وأحيانا في ساعات الليل، على عربة من النوع الذي يستخدم في ورشات البناء، بعد أن غدا عاجزا عن السير، وتبدأ عملية التحقيق معه مترافقة بألوان الضرب وألوان التعذيب بالكهرباء، وبالمواد الكيماوية التي ترش على جسده العاري، وقد اقتلعت كل أظافر يديه ورجليه تحت التعذيب.

لكن صلابة الرفيق الفولاذية، لم تحمه من الخضوع للتيار الذي انقلب على سياسة التنظيم في الداخل، فما كان يملك الوعي الكافي الذي يمكنه من التمرد على قادة الانقلاب من أبناء الملاكين الكبار وأثرياء الريف، وغدا يدافع عن السياسة الجديدة للتنظيم، متأثرا بدوره بالثقافة التي ظلت سائدة بين صفوف الشيوعيين، ولم يجر نسفها ودحضها، وهي الثقافة التي لا تنطلق من نفي الكيان الصهيوني بوصفه قاعدة استعمارية جرى زرعها في المنطقة، وما يترتب على هذا الفهم من ضرورة مقاومة هذا الكيان بكل الأساليب وخاصة العنيفة منها، كونه إنما يفرض وجوده ومشاريعه عن طريق العنف.

وقد غدا هذا الرفيق عضوا في "حزب الشعب" بعد أن تخلى قادته عن الشيوعية، ورغم عضويته في اللجنة المركزية للحزب، إلا أنه نحي جانبا بعد أن أمسكت بقرار الحزب، مجموعة من المثقفين من أبناء العائلات الميسورة الذين يرتبطون فيما بينهم بعلاقات من القرابة والمصاهرة. وقد ألتقيته في الأعوام الأخيرة، فوجدت أنه قد فقد

تلك الروح القتالية، في ظل قيادة تريد حزبا ينظّر للسلام والوئام مع المحتلين.

أبو وديع

تعرفت على هذا الرفيق في مدرسة بيت لحم الثانوية عندما درست هناك في ربيع عام ١٩٦٨م، وقد أقصي مثلي عن هذه المدرسة، حيث عين في ثانوية البنات في المدينة نفسها، بهدف إبعاده عن جو الطلاب الذكور، الذين هم حسب تقييم المحتلين، الأكثر انخراطا في النضال الوطني.

والرفيق في الأصل من قرى رام الله، وأحد أبناء أسرة فقيرة، وقد مكنه عمل أخوته المبكر في شتى المهن، من الدراسة في القاهرة، والحصول على شهادة في العلوم متخصصا في الرياضيات.

لقد عرفت فيه رفيقا هادئ الطباع، قوي الشكيمة، ودودا ودؤوبا، منظم التفكير، وبدا حين بعثته قيادة المنطقة إلى منظمة أريحا، أكثر قدرة على عرض سياسة الحزب وتوجيهاته، ولكني لا أذكر أنه كانت له ملاحظات على عملنا، و لم تكن لديه توجيهات لتطوير هذا العمل، ولعله وجد بأننا نقوم بدورنا بشكل مقبول في تلك المدينة، وأننا أدرى بظروفها وإمكانات العمل فيها، لكنه أشار علينا ذات يوم، بأن نهتم بعمال الزراعة، لكن ظروف عمل هؤلاء العمال من مطلع الشمس إلى مغيبها، وتجمعهم في وسط خاص بهم كمجتمع غزاوي، وعدم انفصال عمل الرجال عن النساء داخل محيطهم، جعلنا بمنأى عن هذا الوسط، وقد اقتصرت علاقاتنا على المزارعين الصغار ممن يعملون في المزارع بنظام المحاصصة.

وكان الرفيق راضيا كل الرضى عن شبكة العلاقات التي أقمناهـــا في المدينة مع مختلف الأوساط والقطاعات فيها، وكان ينقـــل للمركـــز، أخبار معاركنا الصغيرة في مواجهة المحتلـــين وأعوانهـــم، وفي التصـــدي لسياساتهم. كما أنه كان يظهر اهتماما بتوجهاتي الثقافية وحتى الأدبيـــة، وحتى بعد تفرقنا على الاتجاهين اللذين برزا في الحـــــزب منـــذ مطلـــع الثمانينات، ظل يحثني على الاهتمام بالكتابة الأدبية، معتبرا بأن ما كتبتـــه في السابق، كان موضع اهتمام من جانب المعارف والأصدقاء.

وطيلة فترة اتصاله بنا، ساد بيننا نوع من الانسجام والتفـاهم، إلى أن دار حوار بيننا في أواخر أيلول عام ١٩٧٣م، وكنا نرى بأن المنطقـــة مقدمة على حرب، لكنه رأى عكس ذلك، معتبرا أن نظام السادات قـــد ضرب قدرات الجيش المصري حين أقدم على طرد الخبراء الســـوفييت، كما خلخل الجبهة الداخلية بانقلابه على سياسة عبد الناصر، وبالتـــالي فهو أبعد ما يكون عن الحرب.

وقد حاولنا إبراز الجانب الآخر من الصورة، المتعلقة بوجود مئات الآلاف من الخريجين المصريين ولأعوام طويلة في خطـــوط الجبهـــة، وأن هؤلاء قد خلقوا مناخا من الوعي الوطني والثوري المتقـــدم في صفـــوف الجنود والضباط الذين خاضوا حرب الاستنـــزاف في عهد عبد النـاصر، والذين جرى إعدادهم لحرب "إزالة آثار العدوان"، وأن نظام السادات لا يستطيع إخماد الروح القتالية المنتشرة في صفوف الجيش، كما لا يستطيع الالتفاف على تحفز الجبهة الداخلية التي جرى تعبئتها على أساس شـــعار: "لا صوت يعلو فوق صوت المعركة". إضافة إلى توق الجندي في ســـورية لأن يمسح عن نفسه ذل هزيمة حرب حزيران، والتي شعر بأنه لم يتح لـــه إثبات قدراته القتالية فيها، ثم ما يجري في سورية مـــــن جـــهد دؤوب،

لتوحيد جبهتها الداخلية، ولإعداد جيشها للمواجهة في ظل القيادة السياسية الجديدة. إلا أن صاحبنا ظل متمسكا بوجهة نظره، متمترسا عند تحليلاته الميكانيكية التي تعتمد شكلا من الحسابات المدرسية المبسطة، وجعلني ذلك، أضع علامات استفهام على قدراته التحليلية، كما جعلني أشك في أن هذه الدماثة المتعالية لديه، والظهور بمظهر المتفهم لكل الأمور، إنما تخفي فراغا داخل شخصيته.

وجاءت الحرب بعد ذلك، وأودع رفيقنا السجن ضمن حملة الاعتقالات الاحترازية التي نظمّها المحتلون، وبعثت لنا قيادة المنطقة برفيق آخر يشرف على منظمتنا الحزبية.

تلك هي الصورة التي كونتها عن هذا الرفيق حتى تلك الأيام، إذ زُجَّ به مجدداً في السجن خلال حملة نيسان عام ١٩٧٤م، والتي طالت المئات من الشيوعيين وأصدقائهم، ثم جرى إبعادنا خارج الوطن لكي التقي به بعد ذلك بأعوام، ولأتعرف السفح الآخر في شخصيته، أو لما خفي من هذا الإنسان، الذي يظل كغيره أشبه بجبل الجليد الذي يطفو ثُمنه على سطح الماء، بينما يختفي قسمه الأكبر تحت هذا السطح.

لقد رأيت هذا الرفيق في دمشق في أواخر السبعينات، وبعد أن أشاد بما أنجزناه في أريحا من ترسيخ لجذور الحزب في مجتمعها، بحيث غدا أعضاء منظمتها قرابة الخمسين رفيقاً، راح ينثر الملاحظات حول منظمة لبنان الحزبية، وخاصة ضد قائدها عربي عواد الذي" يظهر تذيلاً لفصائل المقاومة، ولا يبدي اعتزازاً بدور الحزب النضالي، ولا يدافع عن سياسة الحزب ودوره بسبب افتتانه بشعارات العمل العسكري التي تتغنى بها الفصائل دون الالتزام بتنفيذها"(؟؟). وكانت تلك لهجة جديدة أسمعها

في صفوف الشيوعيين، والتي كانت تعكس في الواقع توجهات القيادة التي استولت على تنظيم الداخل.

وقد قلت له بأنّا نعتز بحزبنا، إلا أننا نتطلع لسد النقص في دور الحزب من خلال المساهمة في الدفاع عن الثورة بوجه أعدائها، وفي مقاومة المحتلين بالسلاح إلى جانب أشكال المقاومة الأخرى وبالتكامل معها. وقد هزَّ رأسه إزاء ذلك، وشعرت أنه يضعني في خانة الشيوعي الساذج، الذي لا يحس بمرور الماء تحت قدميه، ولا أعتقد حينها أنه قد رقّاني إلى مرتبة "الشيوعي الضال"، وهي المرتبة التي وضعني فيها بعد ذلك، أحد الشيوعيين الأصوليين، في رده على دراسة وضعتها حول تجربة الحركة الشيوعية العربية، وتضمنت رؤية تيارنا النقدية إزاء هذه التجربة وخاصة فيما يتعلق بالموقف من المسألة القومية ومن الدين والتراث.

ورأيت هذا الرفيق بعد ذلك في بيروت في مطلع الثمانينات، وقد أوفدته قيادة تنظيم الداخل (الجديدة)، مرات عدة، ليبلغ فصائل المقاومة، بأن عربي عواد لا يمثل تنظيمه في "لجنة الأرض المحتلة" التي كانت بمثابة لجنة تنسيق تضم ممثلين عن كافة الفصائل.

وبالطبع فقد كان هذا التصرف بمثابة سلوك انقسامي من جانب قيادة تنظيم الداخل، الذي بات يسمى "التنظيم الشيوعي الفلسطيني في الضفة، وبعد ذلك في الضفة والقطاع" ، حيث بدأت هذه القيادة تتهيأ لإعلان حزب مستقل في الداخل عن باقي الجسد الفلسطيني، وعن امتدادات الحزب في الخارج، بما في ذلك مركزه في عمان، وهي التي وقفت بشراسة قبل ذلك، ضد من أعلنوا قيام حزب شيوعي فلسطيني، يمسك بالقضية الوطنية ببعدها القومي والإنساني، ويضع الشيوعيين

الفلسطينيين في موقعهم الكفاحي في مواجهة الغزوة الاستعمارية الاستيطانية وذلك في أواخر عام ١٩٧٤.

وكان لنا لقاء عاصف مع هذا الرفيق بسبب اختلاف توجهاتنا السياسية، إذ أنه في لقائه مع قيادة "التنظيم الشيوعي الفلسطيني في لبنان" الذي أعلن عن قيامه ربيع عام ١٩٨١م كفرع للحزب الشيوعي الأردني شأنه في ذلك شأن التنظيم في الداخل (الضفة والقطاع)، قام بشن هجوم على التنظيم وقيادته، والتي تتعامل بدونية مع فصائل المقاومة، والتي لا تريد أن تدرك، "بأن التنظيم الشيوعي في ساحة الداخل، قد غدا القوة المسيطرة والمقررة، كما هو حال حركة فتح في الخارج". ثم قال بأن أعضاء التنظيم في الداخل، قد جرى تخليصهم من عقدة النقص التي ما زلنا واقعين نحن تحت تأثيرها في لبنان، ذلك أن قيادة التنظيم، قد عقدت موازنة بين ما أنجزه الحزب في نضاله الجماهيري، وبين ما أنجزته تلك الفصائل، بمقاومتها المسلحة، فرجحت الكفة لصالح الحزب، وانخسفت كفة أصحاب الجملة الثورية(؟؟)، ولا أتجنى هنا على الرفيق وعلى نهج التيار الذي بات يمثله، فما أذكره على هذا الصعيد، تم الإعلان عنه كتابة في أدبيات هذا التيار ورسائله المفتوحة المنشورة على صفحات الجرائد والموجهة إلى "بيروت".

وجرت لقاءات بعد ذلك مع الرفيق، إثر انفجار الصراع مع ولادة الحزب الشيوعي الفلسطيني في شباط عام ١٩٨٢م، وكذلك إبان التحضير لهذه الولادة، وقد برز دور هذا الرفيق، كهراوة غليظة بيد قيادة الداخل وامتدادها التكتلي والانتهازي في عمان والخارج، وقد ازدادت هذه الهراوة غلظة لشعورها بأن موسكو معها، وكذلك كل الأحزاب المرتبطة بموسكو والتي تأتمر بأمرها، وقد جاء الانهيار في الاتحاد السوفييتي

فيما بعد، ليكشف في أية أيد غير أمينة، كانت موضوعة قضية الشيوعية التي انغرست في وعي الملايين، بوصفها المجسد للنظرية الأكثر قدرة على تحرير الإنسان من كل أشكال الظلم والعبودية، وفي أية أيد، كانت موضوعة مسألة قيام حزب شيوعي فلسطيني، يعمق الخط الكفاحي للثورة الوطنية الفلسطينية، بدل أن يمهد الطريق، لتسوية سياسية مع الغزاة الصهاينة، تقوم على أساس الخضوع لمشروعهم في السيطرة على المنطقة، وفي تبديد القضية الفلسطينية.

لقد كانت مهمة الرفيق التي أوكلت إليه من قادته الأشاوس، هي: "تصفية التيار القومي في الحزب الوليد قبل الذهاب إلى المؤتمر" كما كان يعلن عن ذلك، وانضم له في هذه المهمة ، عضو مطرود من المكتب السياسي في عمان، بسبب نشاطه الانقسامي التكتلي مع رموز التيار الكوسموبوليتي في الأردن وامتداده في قيادة تنظيم الداخل، وعضو آخر في المكتب السياسي، كان يمثل الحزب على مدى عقد ونصف من الزمن في براغ، في المجلة الأممية (قضايا السلم والاشتراكية) التي تصدر هناك.

وبدعم من موسكو كقيادة للحركة الشيوعية العالمية، ومن قيادة الحزب الشيوعي الإسرائيلي وقيادة الأحزاب الشيوعية العربية وخاصة في سورية والعراق، أمكن لهذا الفريق، شق الحزب الوليد، وترتيب أوضاعه وذلك قبل عقد مؤتمره التأسيسي، ومن خلال إصدار قرار الطرد بحق" القوميين المتطرفين، والمعادين للسوفييت، والذين وضعوا أنفسهم خارج صفوف الحزب".

ومثلما توقفنا عند عوامل انحياز رفيقنا السابق، الحاج صبحي، للنهج الإصلاحي غير الثوري، فسوف نحاول الوقوف عند الظاهرة التي جسدها رفيقنا الآخر أبو وديع، الذي تحولت وداعته إلى غطرسة

وفظاظة، حين انبرى مدافعا عن نهج أبناء كبار الملاكين الذين كانوا قد ركبوا موجة الشيوعية، بعد أن تحولت إلى شأن سياحي بعيد عن روح التضحية، وذلك حسب أحد تهريجات إميل حبيبي اللاذعة "ألتحق بالأحزاب الشيوعية وزر العالم"، والتي يقلد فيها شعار البحرية البريطانية التي كانت تجوب سفنها أرجاء الكرة الأرضية.

ولكي لا نغرق في تحليلات نفسية فيما يتعلق بالانقلاب الذي برز في شخصية هذا الرفيق، ولكي نكون أكثر موضوعية، لابد أن نشير مجددا إلى تلك الثقافة التي لم تجر هزيمتها في الحركة الشيوعية العربية، فيما يتعلق بالموقف من القضية القومية وبضمنها القضية الفلسطينية، والموقف بالتالي من الكيان الصهيوني، وذلك رغم حركة التمرد الواسعة التي جرت ضد هذه الثقافة في صفوف الحركة، خاصة بعد زلزال حزيران عام ١٩٦٧م، ورغم الأصوات التي برزت ضدها قبل ذلك، احتجاجا على الموقف الرسمي من قرار التقسيم عام ١٩٤٧م، ذلك أن هزيمة هذه الثقافة، كان من شأنه أن يحمي هذا الرفيق وغيره من هذا العداء السافر إزاء التيار الذي جرى اتهامه بالتطرف وبالانحراف القومي.

يضاف إلى ذلك، استمرار الوعي التقليدي الأبوي (البطريركي) سائدا في صفوف الشيوعيين والنخب العلمانية بشكل عام، وذلك رغم إدعائها بامتلاك الوعي الحديث العلماني، فقد ظل هذا الرفيق وغيره، أسرى هذا الوعي، الذي حال بينهم وبين امتلاك الفكر النقدي تجاه زعيم الحزب، الذي ظل بمثابة الأب، وزعيم العشيرة بالنسبة لباقي أعضاء التنظيم. حيث جرى في الواقع القتال دفاعا عن فكر هذا الزعيم، دون وضعه موضع التحليل العلمي. كما جرى هذا القتال، بروح الدفاع عن شرف العشيرة، لا بوصفه خلافا فكريا سياسيا يمكن أن يحل بالأساليب

الديمقراطية، واحترام التعددية. وكذلك استمرار الوعي الديني في أوساط الشيوعيين والنخب العلمانية، بشكله السلفي التقليدي السائد في مجتمعاتنا، فمثل هذا الوعي، هو ما أوحى لرفيقنا (وغيره)، بأنه مبعوث "العناية الشيوعية" للدفاع عن نقاء الماركسية إزاء المحرفين والمجدفين ، والخارجين على دين موسكو.

ثم تلك التقاليد التي سادت في الحركة الشيوعية العالمية انطلاقا من المركز، وهي تقاليد العداء للروح القومية في صفوف الشيوعيين الذين تعيش بلدانهم مرحلة إنجاز الأهداف القومية، وهو ما جرى بالنسبة لتيتو وللشيوعية الصينية، وهي التقاليد التي باركت النزعة الكوسموبوليتية في صفوف الشيوعيين، ونزعة التبعية العمياء للمركز.

إن هذا الوعي وتلك الثقافة، قد سهلا على هذا الرفيق، لأن يغدو الحارس الأمين لمصالح وامتيازات فئة من أبناء العائلات ممن سيطروا على الحزب بأساليب تآمرية، وسهلا على هذا الرفيق (وغيره)، لأن يتنكر للطبقة، وللفئات الاجتماعية التي انحدر منها من أبناء فقراء الفلاحين، ولعل زواجه من وسط كبار الملاكين بعد نيله الشهادة الجامعية، قد شكل بداية انفصاله عن طبقته وعن أهله وذويه الذين كانوا يدخلون إلى منزله الباذخ نسبيا كما يدخل الغرباء غير المرغوب فيهم، ومثل هذه الظاهرة دائمة التكرار في أوساط الخريجين، الذين ينفصلون عن بيئتهم الاجتماعية وعن أهلهم بعد انتقالهم المحزن الى بيئة الزوجة المنحدرة من وسط طبقي آخر غير وسطهم.

محمد السواحري

كنت تعرفت على هذا الإنسان قبل أن أراه، وذلك من خلال

كتاباته الأدبية منذ أوائل الستينات، وتعرفت عليه أيضا، من أحاديث تلاميذه عنه، والذين انجذبوا بتأثيره إلى الشيوعية، وقد كونت بذلك تصورا مثاليا عنه يرتبط بسحر الكلمة وقدسية الإبداع الأدبي. وقال لي الرفاق لدى توليه الإشراف على منظمتنا الحزبية، ها قد بعثنا لكم برفيق مثقف لكي تتباحثوا معه كما تشاؤون في شؤون الثقافة والإبداع الفكري.

وجاء الرفيق إلى أريحا، وهو شاب دون الثلاثين، شديد النحول، تغور في محجريه عينان لامعتان، بادي الحيوية، مبادر ومباغت في ملاحظاته التي تنم على قدرة على اشتفاف الأمور والإحاطة بها، وعلى نفاذ صبر أيضا، وحالة من العصبية المتحدرة من الروح البدوية الكامنة عنده.

لقد أحسست منذ الاجتماع الأول بأن الرفيق غير راض عن منظمتنا، وقد تكونت لديه صورة عن هذه المنظمة، ضمن رؤية لا ترى إلا لونين للأشياء هما الأبيض والأسود، وما رآه في منظمتنا، عضوان من أبناء العائلات هما من "شيوعيي الصالونات"، وعضو ريفي متواضع، الذي هو أنا، لا يملك الجرأة على قيادتهما وتوجيه الأوامر الحزبية إليهما. فقد قال لي منتقدا بعد مغادرة الرفيقين (الحاج صبحي وأبو خليل)، إنك لا تمارس سلطتك على الرفيقين، وأن عليك أن تأخذ موقعك كمسؤول للمنظمة دون أن تجاملهما أو تخشى توجيه الانتقادات إليهما. وقد حاولت أن أفهمه بأن الرفيقين لهما دورهما في مجتمع المدينة، وأننا نفيد من مكانتهما الاجتماعية وكذلك من سمعتهما الطيبة بين الناس، وإني لا أطلب منهما القيام بمهام يستطيع أن يقوم بها الرفاق و الأصدقاء من الشبان الصغار، كتوزيع المناشير، وكتابة شعارات الجدران، وتحريك

الشارع للتظاهرات والمسيرات، لكنه لم يقتنع بذلك.

ثم انتقد بعد ذلك، قصوري في توسيع عضوية المنظمة، وحاولت على هذا الصعيد، توضيح ظروف مجتمع أريحا، والظرف الأمني الذي تعيشه، والذي يملي علينا الحذر في تجنيد الأعضاء وضرورة إخضاع المحيطين بنا من الأصدقاء لفترة اختبار طويلة، مع الإفادة القصوى منهم ومعاملتهم كرفاق عاملين في المنظمة دون ربطهم بوضع تنظيمي قد يلحق الضرر بنا، لكنه رفض هذا التوجه واعتبره هربا من تحمل مسؤوليات النضال.

وفي طريق عودته إلى القدس، ولكي تكتمل صورة هذا اللقاء مع الرفيق، جرى أن مررنا بشاب بادر للتسليم علينا بحرارة، وإلى إظهار صداقته الحميمة معي، فسألني بعد ذهاب الشاب، هل هو منظم في الحزب؟ فأجبته بلا، فأخذ يلومني على ذلك بلغة تعليمية متعالية على هذا التقصير، فقلت له محبطا، ولكن هذا الشاب لا يشكل أي مكسب للحزب، وقد رفضنا باستمرار أن يحسب علينا أمام أبناء المدينة، مع أنه وأخوته لا يألون جهدا في سبيل ذلك، من أجل تيسير مصالحهم الذاتية .

و لم أجد بعد ذلك في نفسي الرغبة لشرح ظروف عملنا في هذه المدينة، ولعرض ما أنجزناه من شبكة علاقات واسعة داخل مجتمعها، ولما نحظى به من مكانة بين مختلف القطاعات ومن قدرة على تحريكها، ولما قمنا به من إعادة اللحمة لهذا المجتمع الذي مزقت ظروف الاحتلال بنيته، وهكذا كانت صدمتي بهذا الرفيق القادم من ملكوت الكلمة، غير أني كعادتي في مثل هذه الأوضاع، لم أتخذ حكما نهائيا على رفيقنا، تاركا ذلك للزمن الذي يمكن أن يصحح سوء الفهم الذي نشأ بيننا.

ولم تطل معرفتي بالرفيق، إذ لم تلبث أن جاءت حملة نيسان عـام ١٩٧٤م التي دفعت به إلى السجن، ثم جاء الإبعاد بالنسبة لي في أواخـر العام ذاته، لألتقيه بعد ذلك في بيروت، بعد أن أبعد بدوره من السجن في نيسان من عام ١٩٧٥م، فتجددت صلتي به، وسعيت إلى تصحيح مـا نشأ بيننا من سوء فهم، معولا على ثقافة الرفيق وعلى "عبقريته" الأدبيـة التي أبدى أسفه لإهمالها لدى انشغاله بالعمل السياسـي طيلـة أعـوام الاحتلال.

وفي حياة النفي، وجدت أن رفيقنا قد ازداد عصبية، وأنه قد ازداد حدة في أحكامه على الآخرين، وقد تنامت تلك العصبية كما أوضـح بسبب سجنه الانفرادي، حيث طلب قضاء فـترة نقاهـة في الاتحـاد السوفييتي لكي يستعيد عافيته.

ولقد أولته قيادة المنظمة الحزبية في بـيروت أوسـع الاهتمـام، وعولت على دوره في إثراء حضور المنظمة وتعميق فعاليتها، وعينتـه في المجلة المركزية لمنظمة التحرير نظرا لخبراته في مجال الإعلام، لكنه لم يلبث أن اتخذ حكما قاطعا على إعلاميي الثورة، ورأى أنهم يتعاملون بـروح العسكرتاريا فيما بينهم، وأن الثورة قد "عسكرت" المثقف الفلسـطيني ونزعت عنه فرادته وقدرته على الإبداع، وبالطبع لم تكـن الأوضـاع نموذجية في هذه الثورة، وقد تصرفت مع المثقف والإعلامي كموظـف للإعلان شأن كافة النظم التسلطية في المنطقة، ولكن البديل لذلـك، لم يكن نبذ الثورة وإدارة الظهر لها والالتحاق بإعلام النظام في الأردن كمـا فعل رفيقنا الشديد الحساسية إزاء كرامتـه الشـخصية الـتي يمسـها العسكرتاريون.

والواقع هو أن صديقنا قد استجاب لتوجهات قيادة الحـزب في

عمان، أو التيار المهيمن فيها، والتي كانت تحكمها نظرة العداء للثـورة، ولم يكن ذلك بسبب النواقص فيها، وسيطرة نمـط القيـادة العرفاتيـة بداخلها، وإنما بسبب برنامجها السياسي الذي لم يتحرر بعد من الميثـاق الوطني الفلسطيني، الذي تتعارض منطلقاته مع رؤية الحـزب للصـراع العربي ــ الصهيوني. والدليل على ذلك، هو أن رفيقنا وانسـجاما مـع برنامج الحزب، عاد وألتحق بنهج عرفات، ولكن بعد توقيـع اتفـاق أوسلو، الذي رأى فيه الشيوعيون التقليديـون، عـودة إلى برنامجـهم السياسي، "الذي أثبيت الأحداث صحته وواقعيته بعيدا عن النهج المثـلي المتطرف والمغامر للثورة".؟؟؟!

لقد استقر صاحبنا في عمان، وغدا عضوا في اللجنـة المركزيـة للحزب، وعمل في إعلام النظام هناك وكتب تمثيليات للأطفال للتلفزيون والإذاعة، وألتحق بقيادة الحزب الشيوعي الفلسطيني بعد إعلان قيامـه(مظهرا العداء لنهجنا في التيـار الثوري في الحزب، الذي شكل الحـزب الشيوعي الفلسطيني ــ الثـوري)، ومعلنا القطيعة مع الحزب الشـيوعي الأردني مدفوعا بنـزعة إقليمـية انعزالية، وقبل أن يعود مع من عـادوا إلى الداخل على أرضية اتفـاق أوسلو، أتحفنـا بمقـال في الصحـف الأردنية، يتهجم فيه على الزعيم الكوبي كاسـترو، "الـذي يرفـض الانصياع لمنطق التاريخ، والذي بات يمثل أحد الديناصورات المنقرضـة" حسب مقاله.

وسمعته بعد ذلك عبر إذاعة العدو، وهو يلقي كلمة "وزارة الثقافة" في سلطة الحكم الذاتي كممثل للسيد الوزير، وذلك في لقاء احتفـالي في "بيت الكرمة" للمثقفين العرب الفلسطينيين واليهود، معربا عن سـعادته وهو ينظر إلى التقاء أعداء الأمس، وقد رفرفت فوق رؤوسهم حمامـات

السلام، بعد أن نبذوا لغة السلاح فيما بينهم، مسميا في هذا اللقاء، مدير مكتب رئيس الوزراء الصهيوني ومهندس صفقة أوسلو يوسي بيلين، وشريكه في هذه الصفقة من موقع المهزوم محمد قريع. ومما زاد من سخرية المشهد، أن اللقاء الاحتفالي المذكور، قد تم عقده في غمرة حرب "عناقيد الغضب" التي شنها الصهاينة على لبنان، وفي لحظة مجزرة شهداء قانا.

فهل نتساءل هنا، كيف مسخت ثقافة الاستسلام، هذا الإنسان الذي لا يمكن أن ننكر تاريخه النضالي، فأوصلته إلى موقع الإساءة إلى الشهداء من أبناء شعبنا في الأساس، ثم من أبناء الشعب اللبناني الشقيق وأبناء الأمة؟ إننا لن نتوقف عند هذا السؤال، فقد غدا واضحا ءهو أن هزيمة أي فرد، وأي فئة وأي حزب وأي شعب من الشعوب، إنما تبدأ في الحقل الثقافي، فعندما يتم التخلي عن الحقوق في العقل، يسهل التفريط بها على أرض الواقع، ويسهل الوصول إلى حال مؤسية من الذل والهوان والتفريط.



بعض المعارف والأصدقاء

ارتباطا بمسلكي الجاد، وحبي للعمل، والتصاقي بالهم الوطني، واهتمامي بالإنسان بشكل عام وبحثي عما هو جميل بداخله، فقد تشكلت من حولي دائرة من الأصدقاء والمعارف في أريحا،واليوم وبعد أن غربل الزمن تلك الصداقات التي عشتها في تلك الفترة، فقد بقي الكثير مما يمكن تذكره والوقوف عنده، بما يمكنني من أن أقدم للقارئ، نماذج من أناس ذلك الزمان، ممن قضى بعضهم، وشاخ بعضهم الآخر أو فترت همته بعد أن اجتاز عمر الشباب. حيث تبقى حياة هؤلاء الناس ومصائرهم، بمواطن قوقم وضعفهم، جزءا من حياة ومصير وتاريخ هذا الشعب الذي أثبت قدرته على البقاء في مواجهة مخطط النفي المادي والمعنوي الذي يتعرض له على يد الغزاة المستوطنين ومن يدعمهم.

(٩)
أم سميــــر

لقد أحببت دائما الحديث عن هذه السيدة التي حفزتني شخصيتها ذات يوم، لأن أخوض تجربة كتابة القصة القصيرة، حيث نشرت قصتي عنها في إحدى صحف المقاومة في بيروت، وأعيد نشرها في جريدة الاتحاد الحيفاوية. وهي القصة التي لم تستطع رغم خصوصيتها ، أن تخرج من تحت خيمة غوركي وروايته عن تلك الأم التي استطاعت وهي تكسر قيودها الاجتماعية كامرأة مضطهدة، أن تنطلق نحو الانخراط في الشأن العام الذي يعيشه مجتمعها.

لقد كانت هذه السيدة قد بلغت الخمسين من العمر عندما عرفتها، وربما كانت أصغر من ذلك قليلا، لكن قسوة الحياة التي عاشتها قد أظهرتها في تلك السن المتقدمة، فقد لجأت مع من لجأ من أبناء قريتها أو مدينتها (إذ علمت أنها من الرملة أو من محيطها)، واستقرت في إحدى الخيام التي نصبت على عجل عند مداخل أريحا، وحيث تشكل فيما بعد ما عرف باسم مخيم" عقبة جبر ". وفي هذا المخيم وفي ظل حياة بالغة القسوة، استكملت إنتاج أسرتها التي ضمت ثلاثة أبناء وأربع بنات، أصغرهم كان ذلك التوأم من البنات الذي لم يكن قد تجاوز سن العاشرة في تلك الفترة وهي(مطلع السبعينات.)

وقد تعرفت عليها من خلال ابنها الأكبر سمير، الذي كان يصغرني بثلاثة أعوام، وكان يعيش آنذاك بمسكن خاص به في أريحا خارج منزل العائلة، والتي كانت قد انتقلت بدورها إلى أريحا بعد حرب عام

١٩٦٧.وقد عرفت فيما بعد أن صعوبة عقلية الوالد الذي قضى عمره أستاذا للصف الأول الابتدائي، فغدا في جانب من تفكيره، مثل طفل صغير، هو ما فرض على الابن الأكبر الانفصال عن الأسرة، وذلك بعد أن حصل على وظيفة مدرس بعد أن أنهى المرحلة الثانوية من دراسته، ولعله قد اشتغل في وظائف أخرى قبل أن يستقر في مهنة التعليم.

وقد عاشت هذه المرأة قصة معاناة غريبة مع زوجها أدت في النهاية إلى انفصالها عنه، ولعب لقائي اليتيم مع هذا الزوج ،وحواري معه الذي امتد حتى ساعة متأخرة من الليل، دورا في زيادة تعقيد علاقته مع أسرته، فما أن التقيته في منزل الأسرة خلال زيارة قمت بها مع ابنه الأكبر ، حتى أدخلني في حوار لا نهاية له ، حول نظرة الشيوعيين إلى التاريخ الإسلامي، وعن قصة عجزهم عن تفسير هذا التاريخ على أساس "المادية التاريخية ".

وقد أخبرته كيف ينظر الشيوعيون باحترام كبير إلى هذا التاريخ، وكيف يقيمون دور الديانات الكبرى باعتبارها ثورة على الواقع القائم في المجتمعات الإنسانية، لجهة مقاومة أشكال الظلم فيها، ومحاربة أشكال الانغلاق والتمييز القبلي والعرقي، مؤكدة على رابطة الأخوة الإنسانية في ظل إله واحد يأمر بالعدل والمساواة بين الناس جميعا، والذين خلقهم على صورته ومثاله، ودعاهم للارتقاء بعلاقاتهم إلى مستوى هذه المكانة التي وضعهم فيها.

وأخبرته كذلك كيف أنظر كأستاذ تاريخ، وكمواطن يعتز بانتمائه القومي بتقدير بالغ إلى دور الإسلام في توحيد وإنهاض المزق القبلية المتناحرة للعرب الذين انتشروا في هذا الحوض الجغرافي على امتداد التاريخ، منطلقين من جزيرتهم، مما مكنهم من أخذ دورهم، إلى جانب

الشعوب الأخرى، في إنتاج حضارتهم الخاصة التي أغنت الحضارة الإنسانية.

وكيف أنظر باحترام إلى الوعي الشعبي السائد إزاء الدين، مع الاهتمام بتطوير هذا الوعي، وتخليصه مما علق به من أدران، ومن مفاهيم خاطئة تكدست خلال عصور الظلام، وما اختلط به من عادات ومفاهيم هي نتاج مجتمع متأخر ، لكي يغدوا هذا الوعي، حديثا ومعاصرا وأكثر عقلانية، و ذلك كما كان شأنه في عصور ازدهار الحضارة العربية الإسلامية التي انفتحت على الحضارات الأخرى المعاصرة، وهضمت منجزاتها، وأقامت صرحها الحضاري الخاص بها، والذي هو جزء لا يتجزأ من مسيرة تقدم البشرية.

وقد جاءت ردة فعل هذا المواطن بالغة الحذر إزاء ما رأى فيه محاولة لنزع القداسة عن التاريخ الإسلامي، وعن رسالة الاسلام السماوية ، ففي اليوم التالي وصلتني منه رسالة مختصرة، مذيلة بعبارة " نسخة إلى ابني سمير "، يطالبني فيها بألا أدخل بيته بعد الآن.

وفي تفسيري لردة فعل هذا الإنسان، رأيت أن صاحبنا قد خشي على قناعاته التي عاش عليها طيلة حياته(خاصة أنه بدا مأخوذا بالتحليلات التي أوردتها في حديثي معه)، ولعله رأى بأن اهتزاز قناعاته التي بنى حياته على أساسها، من شأنه أن يقود إلى اهتزاز سلطته في بيته كرب أسرة، سيما وأن هذه السلطة قد بدأت تتزعزع مع تسرب تلك "الأفكار التحررية" إلى أفرادها بدءا بابنه الأكبر.

وقد تعقدت علاقته بعد ذلك مع أفراد أسرته، حيث سعى إلى سجن الأم وبناته الصغيرات في غرفة داخل أسوار المدرسة التي يعمل فيها بمخيم الجفتلك، وأن يمنع عنهن الاتصال بالناس المحيطين بمن في ذلك

أفراد الأسرة الآخرين، فما كان من الأبناء الكبار إلا أن حرروا الأم من سجنها، فأحضروها مع أخواتهم إلى منزل أريحا، وخيروا الوالد بين الالتحاق بالأسرة أو الانفصال عنها فاختار الانفصال.

لقد رأيت نماذج أخرى فيما بعد لمثل هؤلاء الآباء وما جروه من معاناة على أسرهم بسبب مغالاتهم في إظهار سلطتهم الأبوية المهزوزة، وقد رأيت دائما، كيف يوظف هؤلاء الناس الوعي التقليدي (الأبوي) السائد في المجتمع، والمختلط بالوعي الديني، لخدمة نزعاتهم التسلطية المغالية في تطرفها، معتبرين أن الدين كما يفهمونه، يمنحهم الحق بممارسة الاستبداد داخل أسرهم، وبإلغاء عقل وخيارات الآخرين فيها.

ولم تلبث هذه الأم أن اعتادت وضعها الجديد، وقد أخذت تتفتح شخصيتها وتنطلق ملكاتها الكامنة بعد الانفصال عن هذا الزوج. وبعد أن كانت أقرب إلى "الدابة العمياء" كما كانت تصور نفسها، و"تضيع إذا ما ابتعدت بضعة أمتار خارج بيتها"، بدأت تتعرف على محيطها، وأخذت تتلمس ما يدور في مجتمعها وفي بلادها ومنطقتها وعلى مستوى العالم، وكانت مستمعة جيدة للحوارات التي تدور في منزلها، حيث كنا نجلس كمجموعة من الأصدقاء مع ابنها الأكبر، فنتناول بأحاديثنا مسائل لم تكن تخطر لها على بال، في السياسة، والمجتمع، والاقتصاد وغير ذلك، وأكثر ما كان يلفت النظر فيها إلى جانب ذكائها الفطري، تلك القدرة على محاكمة الأمور، وتلك اللغة البسيطة والغنية التي تستخدمها في محاكماتها، ثم ذلك النفور العميق لديها من كل أشكال الظلم وكل ألوان الزيف، و انحيازها الراسخ لكرامة الإنسان، واستعدادها الشرس للذود عن هذه الكرامة مما يمتهنها .

لقد كانت تلك السيدة، تملك قدرا من الحكمة تستند إليها في النظر إلى المسائل المطروحة أمامها، وهي ليست ذلك النوع من الحكمة السلبية السائدة عند أمهاتنا المغلوبات على أمرهن، والتي تدعو إلى الإذعان والرضوخ واحناء الرأس بوجه العاصفة، على أساس أن "العين لا تلاطم المخرز". وأن" اليد التي لا تستطيع أن تعضها، قبلها، ثم أدع عليها بالكسر"، بل هي حكمة متوفزة، مقاومة، لا يمكنها أن تطيق الضيم، وتدفع بصاحبها نحو اتخاذ موقف جذري من كل أشكال الغبن، بل إن هذه السيدة، باتت تفصح عن موقف قتالي تجاه أعداء الإنسان، مدعوم بفصاحة لعلها اكتسبتها من حواراتها الطويلة مع زوج كان يملك قدرة كبيرة على الحوار والجدل يغطي بهما مصالحه الضيقة.

وقد برزت ملكات هذه السيدة في الاعتصام الذي عقدته مع عدد من النسوة في مبنى البلدية احتجاجا على اعتقال(٢٢) طالبا من أبناء المدينة، (وكان ذلك بعيد حرب تشرين)، إذ كانت قد شاركت هذه المجموعة من الطلبة والشبان، في أعمال نضالية ضد تحرك قوات الاحتلال، فنثرت المسامير في الشوارع، وسكبت الزيت على المفارق والمنعطفات، وقطعت أسلاك الهاتف العسكرية، وبدأت تحضير قنابل المولوتوف واستخدمت بعضها. ولعل المجموعة بخبراتها الأمنية المحدودة، كانت مخترقة من جانب أجهزة السلطة، حيث دارت الشبهات حول شاب كان يدرس في جامعة بيروت العربية، وكانت تلك من الخطط التي استخدمها العدو، وهي تكليف أحد العملاء بتجنيد من لديهم استعداد للمقاومة، ليضربهم ولإجهاض روح المقاومة لديهم.

لقد كان هذا الاعتصام، هو محور القصة التي كتبتها عن أم سمير قبل عشرين عاما، وكان الاعتصام حدثا بارزا في حياة المدينة، حيث

تشارك نساء أريحا لأول مرة في العمل السياسي المباشر الذي كان مقتصرا على أوساط الطلبة والشبان بشكل عام، وعلى السياسيين المخضرمين، وقد جاء هذا الحدث وكأنه الحجر الذي ألقي في بركة راكدة لينشر دوائر من الحركة واليقظة على سطحها، وجاء ليفتتح مرحلة من النهوض الوطني في المدينة بعد أن كسرت حرب تشرين خوف الناس وحذرهم إزاء بطش المحتلين.

لقد طال أمد الاعتصام الذي شاركت فيه أمهات وأخوات الشبان والأطفال المعتقلين، ومعهم عدد من زوجات وبنات الرفاق والأصدقاء، وكان المطلب هو مقابلة الحاكم العسكري وتسليمه مذكرة احتجاج بشأن عملية الاعتقال.وقد ظل الحاكم العسكري يرفض المقابلة، ويدعو النساء للتفرق، ومع مرور الوقت زاد تجمع الرجال أمام مبنى البلدية وهم يتابعون المعركة الصامتة التي تدور في المدينة، واستنفر رجال الأمن من الصهاينة، وسخنت الأجواء بما ينذر بحدوث مصادمات، وفي ساعات المساء تراجع الحاكم العسكري عن موقفه، وذهب وفد من المعتصمات لمقابلته وعلى رأسه تلك السيدة التي تحدثت باسم الوفد، حيث هددت السلطة بتصعيد أعمال الاحتجاج إذا لم يطلق سراح الأبناء ، ووعد الحاكم العسكري برفع مطلبهن إلى الجهات المعنية، لكن الفعاليات النسائية لم تتوقف بعد ذلك، فقد جرت في الأيام التالية العديد من المسيرات التي عبرت ساحة المدينة وهي ترفع العلم الفلسطيني واللافتات، وشكل ذلك مقدمة للهبة الشعبية التي شاركت فيها مدينة أريحا إلى جانب كافة المدن والقرى والمخيمات في أرجاء الضفة والقطاع المحتلين في خريف عام ١٩٧٤.

ولقد جرى توقيفي أثناء هذه الهبة وخــــلال الأجــواء المنــذرة باندلاعها، وبعد أن أخلي سبيلي، عمدت أم سمــــير، برغــم صعوبــة أوضاعها المعيشية، إلى إقامة وليمة احتفالا بذلك، وكان ابنها الأصغر مـا يزال رهن الاعتقال، فأعدت لنا أكلــة شعبية، داعيـــة إليــها كــل أصدقائنا، وكان ذلك اليوم أقرب إلى حفــل وداع بالنسبة لي، إذ بقيت سلطــات الاحتلال تلاحقني بعــد ذلك، إلى أن أصدرت ونفذته بحقـي قرار الإبعاد.

ومنذ إبعادي لم أر تلك السيدة النبيلة، غير أن أخبارهـــا ظلـت تصلني باستمرار، فقد بحثت عن عمل لها لكي لا تظل وبناها الصغـيرات عبئا على الاخوة الكبار، ووجدت عملا في مدينة البـــيرة في "جمعيـة إنعاش الأسرة"، وهناك تفتحت قدراها من خلال الاحتكـــاك بمحيـط جماهيري أكثر اتساعا وأكثر حيوية، حيث شكلت جامعة بير زيــت في تلك الفترة وبالنسبة إلى الضفة الغربية المحتلة، محور النشاط الشعبي ضــد المحتلين. وغدت أم سمير هناك نصيرا بالغ النشاط للحزب وللعمل الوطني، فكانت تلهب حماس التجمعات بكلماها النارية البســيطة والواضحــة، والنابعة من صميم كرهها للمحتلين.

وعندما حدث الصراع في صفوف الحزب إثر الانقـــلاب الــذي قادته المجموعة التي سيطرت عليه في ظل ظروف السجن والإبعاد لقياداتـه وعناصره الأكثر راديكالية، حدث مالا يمكن تصوره، وهو انحياز أم سمير بمفردها من بين أفراد أسرها ومحيطها إلى النهج الثـــوري، ولم تضللــها الحملة الواسعة من التعبئة التي شنتها القيادة الجديدة ضـــد" القوميــين، والمعادين للسوفييت، والساخرين من تضحيات أعضاء الحزب في الداخل لمجرد أهم لا يريدون المشاركة في المقاومة المسلحة"؟؟! وما أن تشـــكلت

نواة التنظيم الثوري في الداخل كامتداد للنهج الذي قادته منظمة لبنـــان ومنظمات الخارج، حتى التحقت بها كنصيرة، وغدت عنصرا فاعلا فيها، موظفة ملكاتها في الإقناع، في تعرية النهج اللاوطني للانقلابيين، وكـانت تحس بفطرتها، أن لا شيء يجمعها مع تلك النماذج من الشيوعيين الذيـن قصروا نضالهم في إطار الشرعية والعلنية، متبرئين من مشاركة الحـزب في أعمال المقاومة العنيفة التي جرت في عهد القيادة السابقة.

وقد أوضحت لي فيما بعد وعبر رسالة شفوية، كيف اختـــارت طريقها و ذلك قبل أن تتصل بأي عنصر من رموز النـــهج الكفـاحي، فقالت بأن الأمر كان في غاية البساطة بالنسبة لها، إذ رأت أن من يقـف ضد هؤلاء الناس الذين أغرقوا الحزب بالانتهازيين وأصحاب المصـلح، لا بد وأن يكونوا على حق.

ومما يؤسف له، أن هذه السيدة التي كان قد تقدم بها العمر، قـد تعرضت من جانب التيار الكوسموبوليتي لأقذع حملة تشـــهير،فـاتهمت بأخلاقها، واعتبر ترددها على أنصار النهج الثوري إنما يحمـل رغبـات جسدية، و لم يكن ذلك مستهجنا في أوساط نخبنا التي يخترقها الوعـــي القبلي المتخلف، وخاصة في أوساط تلك النخب، التي تخلت عن المبـادئ والقيم الوطنية، باسم حماية الحزب من السياسة المغامرة للقيـــادة ذات" النزعات القومية ".

وبعد الغزوة الأمريكيةــ الصهيونية للبنان عـــام ١٩٨٢، وأثـر خروج قيادة النهج الثوري من بيروت إلى دمشق بعد الحصار الـذي دام ثمانين يوما، تحملت أم سمير مشاق السفر وتكاليفه الباهظة، وجـاءت إلى دمشق لتلتقي بي ولتهنئني بسلامة الخروج من جحيم الغزاة، لكن الحـاج صبحي قام بتضليلها، فأعلمها بأني قد سافرت إلى عدن،و لم يكن مـــن

السهل عليها معرفة عنواني في مدينة واسعة كدمشق، والذي كان يعرفه صاحبنا الحاج صبحي حق المعرفة، كما أنه لم يخطر ببالها،أن ينحدر "صديقنا" المشترك إلى هذا المستوى من عدم الصدق، لكنها علمت الحقيقة بعد عودتها إلى البيرة، وزاد ذلك من قناعتها بخيارها السياسي.

وقد أصيبت هذه السيدة بمرض عضال في منتصف الثمانينات، وفارقت الحياة بعد ذلك، ولا أدري أين كان مثواها الأخير، وأعتقد بأن شروط السلام الذي وقعته تلك الفئة المهيمنة على منظمة التحرير، قد أغلقت في وجهي طريق العودة إلى الوطن، وأن ذلك سيحرمني من وضع باقة من الزهور على ضريح تلك المرأة التي قد يكون نسيها حتى أقرب الناس إليها،وذلك في غمرة الهموم التي يعيشها المواطنون هناك في ظل "الاحتلال المزدوج " وما حمله هذا الاحتلال من أعباء كارثية عليهم.

وقد يتساءل القارئ، أي نموذج غير عادي أقدمه هنا عبر هذه السيدة للمرأة الفلسطينية، ومعروف أن هناك المئات والآلاف من النساء اللواتي يتقدمن عليها بالتضحية، وربما بسوية الوعي أيضا، فهناك من قدمت ابنا أو أكثر شهداء للوطن، ومن تصدين بالسكاكين لجنود الاحتلال مضحيات بحياتهن دون أي تردد، وهناك من أمضين في السجون زهرة عمرهن بل جل هذا العمر الذي منحنه على هذه الأرض.

نعم يستطيع القارئ أن يلقي بوجهي هذه الأسئلة والعشرات غيرها، وقد يفعل ذلك أيضا حسنو النية، ممن أحسوا بأني قد عجزت عن تقديم صورة أكثر وضوحا لتلك السيدة، وعذري في ذلك، أنني لست

غسان كنفاني لكي أقدم للقارئ أم سعد ثانية، بل لعل اجتهاد غسـان كنفاني، في رفع وعي أم سعد الفطري إلى مسـتوى الوعـي الحداثـي والعقلاني، هو ما كبل قلمي على هذا ا لصعيد، فقد كنت دائما أنفر من إسبا غ العقلانية الحديثة على الوعي الفطري الذي نجده عند الأميين مـن أبناء شعبنا، وأرى في مثل هذا العمل، نوعا مـن التقديـس للعفويـة والفطرية،يحول دون اهتمامنابوعي علمي معاصر،وذلك في مواجهة عـدو يستند إلى أحدث النظريات وإلى أحدث التقنيات العلمية في محاربتنـا، رغم تستره بفكر أسطوري توراتي.

وأعود إلى القول هنا، بأن أم سمير لم تكن اكثر تميزا عن مئـات وآلاف السيدات والفتيات الفلسطينيات اللواتي خرجن من صفوف هـذا الشعب، واجترحن ألوانا من البطولة والتضحية،لكن ما يميزها هو ذلـك النقاء الذي يبرز في تعاملها اليومي مع المحيطين بها، فلقد عرفت بعد هـذا العمر وعن كثب، المئات من المناضلين الذين لمست بأن هناك انفصـالا بين حياتهم اليومية، وبين نضالهم السياسي وطاقاتهم الكفاحية، ذلـك أن العديد منهم لم يتحرروا بهذا المستوى من النقاء، من تطلعاتهم وحساباتهم الذاتية.

وأذكر هنا محاولة تولستوي في إحدى قصصه عن حرب القـرم، للتنقيب عن تجسيد للشجاعة النقية لدى الجنود والضباط المحيطين بـه، ليرى بأن الشجاعة الحقة لا ترتبط بلحظة من الحماس تدفع بصاحبها نحو الإقدام على عمل بطولي، بل هي تربية معينة لدى الإنسان، تجعله قـادرا على نكران ذاته في كل ما يقدم عليه من سلوك، وأشعر أن تلك السـيدة هي من هذا النموذج البطولي النادر، ذلك أن الحياة القاسية التي عاشـتها وشجاعتها الفطرية، وقدرتها على الحب الواعي للآخرين، قـد عملـت

كلها على الارتقاء بغيريتها، وإلى تقليص نوازعها الذاتية إلى حدها الأقصى .

(١٠)
الأستاذ سمير ودائرتا الأصدقاء

عرفت هذا الشاب عن طريق صديقنا أسعد وذلك منذ الفترة الأولى لوجودي في أريحا .وقد بدا إنسانا متماسك الشخصية رغم نحول جسمه الذي يشي باعتلال في الصحة أو سوء واضح في التغذية، ولعله قد ورث عن جدته البلقانية ذلك الشعر الأشقر السبط وتلك البشرة الصهباء، مثلما ورث عن أمه، تلك القامة الضئيلة.

ولا أذكر الآن الظروف التي دفعتني للسكنى معه في السنة الدراسية الثانية، و لم غادرت منزل رئيس البلدية السابق، الذي سكنته مع معلمين من القدس، ولعل التنظيم الملفت للنظر في حياة هذا الإنسان، وعنايته بترتيب منزله، هو ما جذبني للسكن معه، فقد كنت أكثر ميلا للحياة المنظمة المستقرة بعيدا عن حياة الفوضى التي يعيشها الشبان في بيوت العزوبية، فيقضون أوقاتا طويلة في الشراب وفي الثرثرات، وفي السهر حتى ساعات متأخرة من الليل.

لقد قسم صاحبنا وقته بدقة متناهية، بين عمله في التدريس في ابتدائية وإعدادية الطلبة، وبين تعليم العبرية في أحد معاهد المدينة ، (والتي أتقنها باجتهاده الخاص) ، وبين إعطاء دروس خاصة في منزله،وبين عمله الدؤوب في تثقيف نفسه واكتساب معارف جديدة، ثم في تنظيف بيته ذي الأثاث المتواضع، وترتيبه، ليغدو لائقا لحياة إنسانية.

لقد كان هذا الشاب دؤوبا كالنملة، دقيقا في كل عمل يقوم به، وكان مخلصا في عمله في المدرسة، محبا لتلاميذه، قادرا على تلمس

ملكات وإمكانات كل فرد منهم والدخول إلى عقولهم مقوما ما خلفه إهمال الأهل وجهلهم في تلك العقول. وكان شديد التعاطف مع الفقراء من التلاميذ، وشديد الملاحظة لما يتركه الفقر من بصمات على قدرات الطفل، فكان يقول لي، بأن الطفل الذي لا يرى في بيته فنجان شاي أو قهوة من ذلك النوع الذي له أذن نحمله بها، يجد صعوبة في التعرف على الهاء والتاء المربوطتين، وعلى كتابتهما بالتالي، وذلك يكاد ينطبق على بقية الأحرف. وبالطبع كان في ذلك يشير، إلى أبناء فئة البروليتاريا الرثة التي تشكل قطاعا واسعا من أبناء المدينة الأصليين، والذين يعيشون حيلة معدمة.

وطيلة الأعوام التي قضيناها سوية، لم أسمع منه غير القليل عن حياته، وعن الظروف التي عاشها في المخيم، حيث كانت والدته تصنع له حقيبة الكتب من قماش الخيمة (وكانت حقيبة كتبي بالطبع، مصنوعة من ملابس أبي القديمة، ذلك أن وضع الأطفال جميعا بعد النكبة كان متشابها)، كما أن أول مدرسة تعلم فيها ، كانت خيمة من إحدى الخيام التي أقيمت في العراء الفسيح، والتي باتت تجتذب أفواجا من العقارب السامة في الصيف، بينما تغمر ساحاتها المياه الآسنة في الشتاء، فكان صاحبنا يخوض مع باقي الأطفال في تلك البرك الموحلة إذا ما أراد التنقل داخل المخيم، فكانت الأم تقف بالمرصاد لأي بقعة من الطين تنتشر على ثيابه وثياب إخوته، وكان شغلها الشاغل، الحفاظ على مظهر لائق لأبنائها، ومنع الوحل المحيط من إغراق حياتهم.

وحدثني بأن والده كان أول معلم في ذلك التجمع الصغير من الخيام قبل أن يتحول إلى مخيم واسع ذي بيوت طينية حيث أقيمت فيه مدرسة، وعين عدد من المعلمين تحت إشراف وكالة الغوث، وحيث

تشكل ذلك المجتمع الذي عاش فيه ثم فقـده بعـد الاحتـلال الثـاني عام١٩٦٧.

ولم يتطرق في أي يوم للحديث عن أسرته، ولم يخبرني عن ظروف مغادرته لمنـزل الأسرة والعيش وحده في منـزل خاص، ولم يقـدم لي أي صورة عن ذلك الوالد الذي التقيته لمرّة واحدة يتيمة. وقد عرفت أن لهذه الأسرة امتداداً لم أدرك منشأه، فزوج الأخت الكبرى المـدرّس في الوكالة، كان من أبناء عمومة الوالد، وكان يتيم الأبوين، ولعله كـان الوحيد في أسرته، ولقد ربطتني صداقة مع هذا الإنسان امتدت إلى أفـراد أسرته الذين غدوا جميعاً أعضاء في الحزب مثلما غدا كذلك أخوة سمـير وأخواته وأمه.

ولم يكن صديقنا من النوع الذي يعـبّر عـن مشـاعره تجـاه أصدقائه،وما كنت لأعلم ما يحمله تجاهي من مشاعر صادقة لولا بعـض المناسبات التي كان يضطر فيها للكشف عما بداخله من إخـلاصٍ وود، ومنها مناسبة توقيفي من قبل المحتلين، ومناسبة حاجتي للنقود ذات يـوم، حيث بادر لجمع ما استطاع من النقود من أفراد أسرته ووضعـها بـين يديّ، ثم إصراره على القيام ببعض المهام النضالية بدلاً مـني، ككتابـة شعارات الجدران، وتوزيع المنشورات بطريقة ثوريـة، والـتي تدعـو أصحاب المحلات والسيارات العامة للإضراب في المناسبات الوطنية.

وكان تصادمه الأوّل مع المخابرات بعد شهرين من اسـتقراري عنده، إذ استدعي إلى مركز الحكم العسكري الذي أقيم يومها في بنـاء كبير في شارع المنتزهات، وبعد فترة من الوقت قضاها في غرفة الانتظـار هناك، جرى إدخاله إلى مكتب الضابط (شلومو)، ليجـد وراء البـاب الذي انفتح أمامه مسدساً مشهراً في وجهه، مما أصابه بحالة من الفـرق

الشديد لم تستمر سوى لحظات، إذ تمالك نفسه بعد ذلك، وقد تحفزت كل طاقاته لتحدي ذلك الرجل الماثل أمامه، الذي يطالعه بضحكة صفراء كضحكة الثعلب ، والذي أخذ يحادثه بعربيته الركيكة ويطالبه بأن يدلي بكل ما يعرفه عن الساكن عنده.

وقد رد عليه صاحبنا بكل هدوء، بأن كل ما يعرفه عني، هو أني شاب يحب النظافة، ولا يحمله أعباء كبيرة في إزالة مظاهر الفوضى التي كان يخلفها الساكنون الآخرون معه، وأن احتياجاتي محدودة في البيت فلا أكاد أشغل سوى الركن الذي أنام فيه، وأنه لا يكاد يحس بوجودي في المنزل، وذلك كل ما يعرفه عن شريكه الجديد في المسكن، وهو ما رغبه في إسكانه معه .

وكما أخبرني صاحبي فقد أطال الحديث وبكل برود عن تلك الصفات التي جعلته يرغب في بقائي في منزله، لكن الكابتن شلومو قاطعه بنفاذ صبر، وأخذ يسأله : ولكن ماذا يقول لك، وعما يتحدث، ومن الذين يزورونه في المنزل،وما هي المنشورات التي يحضرها معه، وأين يخبئها ؟؟، فأجابه بأنه لا يقول شيئا، ولا يحمل أية منشورات، ولا يزوره أحد، بل أنه لا يكاد يراني داخل المنزل.

فما كان من الكابتن إلا أن طرده ملاحقا إياه بالتهديدات. وعندما رأيته بعد هذا اللقاء مع رجال السلطة المحتلة، أحسست بأني إزاء إنسان آخر، إذ بدا وكأن حاجز الخوف قد انكسر في داخله، وقد أخذ يبدي اهتماما أكبر بما أقوم به من نشاط، وأخذ يتحول إلى عنصر فاعل في هذا النشاط إلى أن غدا عضوا في الحزب.

لقد شكلنا في فترة من الفترات، ثلاثيا من الأصدقاء، بعد أن انضم إلينا معلم النجارة في ثانوية الطلبة، واسمه موسى اليطاوي، وهو شاب في مثل عمر صاحبي، معتدل القامة، متين البنية، عسلي العينين، أشقر الشعر، أنيق رشيق شديد الصدق في علاقاته، وقد أقمنا سوية مشروعا لتربية الأرانب، وكان ذلك بمثابة مزحة، حيث صنع لنا هذا الشاب أقفاصا خشبية للمشروع، وبدأنا ننتج ما يغطي حاجة عصبة الأصدقاء من اللحوم. كما تعهدنا ذات يوم إصلاح الأبواب والشبابيك في مجمع سكني لموظفي بريد القدس، كانوا قد أقاموه خارج المدينة باتجاه النهر، وقد عاث فيه الجنود الصهاينة تخريبا عندما استقروا فيه عقب الاحتلال، لكنهم لم يلبثوا أن غادروه خوفا من أن يصبحوا هدفا ثابتا لهجمات رجال المقاومة.

وقد اجتذب هذا الثلاثي عددا أوسع من المعلمين في المدارس المختلفة، فانضم إلينا أستاذ العلوم في ثانوية البنات، وهو من قرية حوسان واسمه إبراهيم، وكان شابا ضئيل البنية، عالي الهمة، ذكيا، يملك موهبة في التخطيط والتنظيم ، وقدرة على التحليل العقلاني، وانضم لنا كذلك معلم من قرية بتير اسمه محمد، وهو شاب أشقر الشعر، أزرق العينين، خجول كالفتيات، لم يلبث أن اندمج في المجموعة واقتنى دراجة هوائية مثل باقي أفرادها وأخذ يشارك في الرحلات داخل المدينة وخارجها، حيث كنا نمضي إلى قصر هشام، وإلى قرية الديوك التي تبعد عشرة كيلو مترات عن أريحا ، وإلى البحر الميت. ثم انضم إلينا معلم شاب من قرية العوجا، وهو ابن أحد مشايخ القرية، أسمر البشرة نحيل العود لم يغادر بداوته التي تجعله يحس بالارتباك خارج مجتمعه العشائري، وكانت لديه حساسيات تحول دون اندماجه في المجموعة والانطلاق على

سجيته في وسطها. والتحق بالمجموعة أيضا، صادق الخليلي وداود المصري، والتحق معهما اخوتهما وبعض أقاربهما وأصدقائهما، وكانا من ساكني المدينة القدماء.

وقد جاء وقت، أصبحت تجتمع فيه عصبة المعلمين بشكل دوري لمناقشة أمور التعليم في المدينة، فتتخذ التوجهات لتحسين ظروف التعليم في ظل غياب سلطة وطنية، وإهمال المحتلين لهذا الجانب من حياة الناس، وتركيزهم على الجانب الأمني، والذي دفعهم لزرع مدراء من الموثوقين أو من ضعاف النفوس ممن لا هم لهم سوى إرضاء من عينوهم في تلك المناصب.

وقد عملنا على إبراز نموذج للمعلم الملتزم بمصلحة شعبه ، وسعينا إلى حض المهملين على العناية بعملهم، وذلك باستخدام أشكال ملائمة من الضغط والتحريض دون أن نثير حساسيات لدى الآخرين، ومع مرور الوقت، غدت هذه المجموعة بمثابة مرجعية لشؤون التعليم في المدينة ، وكانت تحظى باحترام الهيئات التدريسية جميعها، وتثير امتعاض المتغطرسين من المدراء المستجدين وأذنابهم، ممن سعوا إلى تحويل المدارس إلى مزارع خاضعة لسيطرتهم.

واذكر ذات يوم، أن معلما من ثانوية الطلبة، قام بتنظيم مذكرة موجهة من المعلمين الجدد(الذين تعينوا بعد الاحتلال) إلى الملك حسين، يعلنون فيها الولاء للعرش الهاشمي، ويدعون إلى منح المعلمين الجدد رواتب أردنية أسوة بزملائهم القدامى، وقد جاء تنظيم المذكرة عقب مجازر أيلول في عمان مما يكشف عن بعدها السياسي.

وقد علمنا بخبر المذكرة بعد أن وقعت من جانب عدد من المدرسين والمدرسات، فعقدنا اجتماعا لبحث المسألة، وقلت للشباب بأن

الأمر يتعدى مسألة الرواتب، وأن هناك من يقف وراء هذه المذكرة من زلم النظام. وأن في ذلك طعناً لهويتنا السياسية، وخيانة للأخوة الذين تعرضوا للمجازر على يد النظام. وتصدى إبراهيم لي يومها مماحكاً، فقال لي بأنك تملي علينا توجيهات حزبك، فأجبته بأن الحزب هو في النهاية مجموعة من المواطنين الحريصين على قضية شعبهم، وإن أعضاءه يخرجون بموقف موحَّد بعد النقاشات المستفيضة، يكون في صالح المجموع العام لأبناء الوطن. فرد مستدركاً بأنه لا يمكن أن يكون مع ذلك النظام الذي ترك البلاد من دون حماية أمام المحتلين ، وترك أبناءها عزلاً في مواجهة احتلالهم، وأنه بالتالي ضد تلك المذكرة.

ولقد شارك الجميع في مناقشة المسألة عدا موسى اليطاوي الذي ما كان يميل إلى المناقشة والجدال أو أنه لا يحسنهما في الواقع ، فسأل يومها:هل تريدون أن نضع حداً لهذه اللعبة ؟ قلنا نعم! إذ لا بد من توضيح أبعاد هذه المسألة للمعلمين، لكي يتخذوا موقفهم وهم على بيِّنة من أمرهم. وفي اليوم التالي استدعى موسى ذلك المعلم صاحب المذكرة، واستهجن عدم عرضها عليه لكي يوقعها هو الآخر، فأخرج هذا مذكرته من محفظته وقدمها لصاحبنا متوجساً، فما كان منه إلا أن مزقها إرباً وألقاها بوجهه ومضى لا يلوي على شيء.

وقد التحق بهذه العصبة بعد ذلك، شبان من خارج سلك التعليم، فجاء سالم العجلين وهو من قرية عناتا قرب القدس، وكان يشرف على مزرعة لأحد الملاكين الكبار، فكان يستقبلنا في هذه المزرعة، ويغدق علينا من منتوجاتها الطيبة المذاق، وكنا نجلس في أحضان الطبيعة عنده. نتبادل الأحاديث الغنية، حيث كان صاحبنا من المهتمين بالثقافة، بل كان من قارضي الشعر العُذري. والتحق بنا مزارع آخر من الشباب هو

محمود الطموني، المتأثر بتراث ابن قريته أبو جلدة، والبالغ الحماس للعمل الفدائي، وكان لديه مسبح متواضع في المزرعة التي يشرف عليها، فكنا نرتاده في أيام الحر الطويلة. والتحق بنا أيضا معلم صناعة الجلود في أحد مدارس عقبة جبر وهو أحمد شتا، والذي كان يملك مشغلا متواضعا لصناعة الجلود داخل المدينة.

وإلى جانب هذه الدائرة من الأصدقاء من الشبان الصغار، أقمنا دائرة أخرى من الأصدقاء الأكبر سنا، شارك فيها بشكل مباشر الحاج صبحي، وضمت نخبة من العاملين في مؤسسات المدينة المختلفة. فكان من بين هؤلاء عدد من الأطباء العاملين في المشفى الحكومي، وعدد من موظفي وموظفات المشفى. إضافة لتلك المجموعة من المهندسين الزراعيين العاملين في دائرة الزراعة وكانوا بمثابة تجمع واسع من أبناء الخليل الوافدين حديثا إلى المدينة، ثم المعلمين فيصل العفيفي ويوسف قطينة القادمين من القدس، واللذين كانت لهما علاقات مع الحزب في المدينة، وقد سمعت عن روجيه جارودي لأول مرة من الأستاذ فيصل الذي كان يملك ثقافة جيدة. وانضم لهذه الدائرة أيضا عدد من معلمي وكالة الغوث، وانضم لها أحد عناصر الشرطة الذي كان ينقل إلينا ما يصله من معلومات في أوساط الشرطة والأمن. وقد انجذب إلينا هؤلاء جميعا عبر سهرات العود والغناء التي كانت تتخللها الأحاديث السياسية والمناقشات الفكرية والاجتماعية.

وإلى جانب هذين التجمعين، كانت لنا علاقات وصلات حميمة مع وجهاء، وتجار، وملاكين ممن ينشغلون بالهم الوطني، إضافة لعدد من الموظفين العاملين في البريد، والمالية، والمحكمة، والعديد من المزارعين الذين كنا نلتقيهم في مزارعهم. وقد غدونا عبر هذه الصلات

والتجمعات، بمثابة مرجعية وطنية في المدينة، وكان الجميع يتطلعون لسماع وجهة نظرنا بشأن الأحداث الجارية في الداخل وفي المنطقة بوجه عام. وكنا لذلك في حركة دائبة للاتصال بهذا الحشد من المواطنين، وقد اضطرني ذلك إلى قضاء أكثر من ثماني ساعات في اليوم فوق دراجتي الهوائية. ولقد بنينا في الواقع، قاعدة متماسكة لعمل وطني مثابر.

وأود أن أضيف هنا، بأن علاقاتي في أوساط المعلمين، لم تقتصر على تلك الصفوة من العاملين في أريحا، فقد اتسعت هذه العلاقات لتشمل مدرسين من مناطق أخرى في الضفة المحتلة، وذلك من خلال مشاركتي في الرقابة على الامتحانات الثانوية العامة، ومساهمتي في تصحيح أوراق الامتحانات، وقد منحني ذلك الفرصة لأن أقضي فترة من أيام الصيف في رام الله وفي نابلس، ولأن أقيم صداقات مع عدد المدرسين القادمين من أرجاء الضفة، وقد أوحت هذه التجربة بالنسبة لي، وكذلك تجربة مدرسين آخرين أعضاء في الحزب، إلى تشكيل لجنة حزبية من المعلمين، تتباحث في أوضاع المعلمين وواقع العملية التعليمية على مستوى الضفة، لكن هذه التجربة لم تستمر طويلا، إذ انقطعت مع حملة نيسان عام١٩٧٤ضد الحزب وأصدقائه، وقد قابلت بعض أعضاء هذه اللجنة في سجن رام الله في خريف ذلك العام.

(١٢)
أحمد شتا يغدو عضوا في الحزب

قبل الجنازة الرمزية التي جرت لعبد الناصر في أريحا، كانت معرفتي سطحية بهذا "الشاب العجوز" فقد كنت أزور أخاه الأصغر في منزل العائلة، وكان طالبا يدرس الإنجليزية في جامعة بيروت العربية، وكانت الصورة عن الأخ الأكبر (أحمد)، أنه يسيء معاملة أخيه بسبب اختلافه معه في ميوله الفكرية، حيث كان هذا الأخ تقدميا، بينما كان الآخر على علاقة بجماعة الإخوان الذين يعمل في مدرستهم المهنية في عقبة جبر.

وعندما جرت الجنازة لعبد الناصر، تعرفت على إنسان آخر في أحمد، فقد كان يتقدم الصفوف في الجنازة وهو يجهش بالبكاء، ويشق عنان السماء بهتافاته المتحدية للمحتلين، فوجدت فيه إنسانا متفجر المشاعر الإنسانية، مشحونا بالعواطف الوطنية والقومية.

وجاءت المناسبة الثانية التي عرفته بها وذلك حين احتفلنا نحن الثلاثي (سمير وموسى وأنا) برأس السنة الجديدة، وقد صادفنا في الشلوع وأبدى رغبة بمرافقتنا. وفي السهرة، تكشف عن إنسان شديد المرح، واسع الإقبال على الحياة. بما يناقض الصورة التي تكونت لدينا عنه، والتي تشكلت بسبب مظهره الخارجي الناجم عن بؤس طفولته، وقساوة الحياة التي عاشها متحملا أعباء الأسرة بعد وفاة والده المبكرة، مما أضفى على شخصيته تلك الخشونة والجدية، وتلك الشيخوخة التي داهمته قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره.

وتوطدت علاقتي به بعد ذلك، فكان ينتظر خروجي من المدرسة كل يوم، ليدخلني إلى مشغل الجلود الذي يملكه، وهناك يبدأ في طرح أسئلته التي لا نهاية لها. وإنني لم أر إنسانا أكثر منه قدرة على المماحكة، وعلى دفع الحديث باتجاهات شتى، و لم يكن يتركني إلا بعد مرور ساعتين وثلاث ساعات من الاشتباك الحامي الوطيس وكان معنيا بأن يستمع الشبان العاملين لديه(وهم من تلاميذه القدامى)،إلى الحوار الذي يدور بيننا.

ورغم أحاديثنا الطويلة، فقد ظل أحمد محتفظا بمواقفه الفكرية والسياسية، وكان أكثر ما يباعد بيننا، هو قضية الموقف من مستقبل الصراع مع العدو الصهيوني والموقف من الكيان بشكل عام، إذ كنت وانسجاما مع سياسة الحزب، أركز على مرحلة تحرير الضفة والقطاع، بينما كان يتطلع هو إلى ما هو أبعد من هذه المرحلة، مسكونا بها جس العودة إلى قريته في فلسطين المحتلة عام١٩٤٨، وهي عودة لا تتحقق من خلال "إزالة آثار عدوان عام ١٩٦٧".

وللالتقاء في منتصف الطريق، عرض بأن يكون الهدف المرحلي الذي نتفق من حوله، هو العودة إلى حدود التقسيم وليس الاكتفاء بإزالة آثار عدوان عام١٩٦٧، فكان يقول لي: "ولماذا نحصر أنفسنا بهذا الهدف المرحلي مع أن الثورة قد انطلقت قبل احتلال حزيران عام ١٩٦٧" و لم يكن من السهل علي آنذاك تجاوز سياسة الحزب أو انتقادها.

ولعل من المفيد أن أشير هنا، بأن هذه المسألة قد واجهتني في علاقتي مع العديد من الشبان الذين كانوا يقدرون دور الحزب في التصدي لسياسات الاحتلال، ولكنهم يأخذون عليه، عدم تحديده لصورة الحل النهائي للصراع الجاري مع هذا العدو، الذي يتطلع لتهويد

كل فلسطين، وتمتد أطماعه إلى أرجاء الوطن العربي والمنطقة، مما يجعل التعايش غير ممكن معه، ويجعل الصراع معه صراع وجود.

واستمرت الحوارات بيننا، وأظهر تقديرا لطروحاتنا بشأن المجتمع وتحرر المرأة، ولكن بالنسبة للخيار الاشتراكي، فقد ظل أقرب إلى الاقتناع بالنموذج الناصري، وذلك بعيدا عن "عبادة النموذج السوفييتي" التي كنا نعبر عنها، باعتبار أن هذا النموذج ، يقوم على أساس إلغاء دور الدين، ودور موروثنا الحضاري بوجه عام، وعلى أساس التنكر لدور المبادرة الفردية في البناء الاقتصادي.

وظلت هذه المسائل (الحل النهائي للقضية الفلسطينية، والنموذج الاشتراكي المطلوب)، تقيم فجوة بيني وبينه، وذلك على الرغم من احترامه لما نقوم به من تعبئة في مواجهة الاحتلال ومشاريعه، وأذكر أني ذات يوم أبديت ضيقا من استمرار الحوار معه، وقلت له بأننا قد وصلنا إلى طريق مسدود في هذا الحوار، فهو لن يغدو شيوعيا ، وأنا لن أنفصل عن سياسة حزبي، فما كان منه ألا أن قال مطمئنا: ولكنك لا تضيع وقتك سدى، لأنه إذا لم تعلق الطين على الجدار فإنها لا بد وأن تترك أثرا، وبعد أن جرى إبعادي خارج الوطن، علمت - وكانت تلك مفاجأتي الكبرى -، بأن أحمد شتا قد غدا عضوا عاملا في الحزب، وقد انضم إلى الحزب أيضا ثلاثة من عماله، وكذلك أنسباته الصغار من أخوة زوجته التي كانت إحدى طالباتي في المدرسة ، وقد جعلني ذلك أكثر حكمة ، وأكثر اهتماما بالمثل الشعبي عن الطين والجدار.

لقد توفي أحمد شتا بمرض اللوكيميا (سرطان الدم) في أوائل الثمانينات، وفي أوائل التسعينات زارني في دمشق أخو زوجته الذي غدا مهندسا زراعيا، وعضوا متقدما في الحزب، يرأس لجنة الإغاثة الزراعية،

وأخبرني بأن أبناء أحمد قد ساروا على طريق والدهم، فحزنت بأن تستثمر جهدنا تلك القيادة التي سيطرت على تنظيم الداخل، ورأيت كم كنا مخطئين بعدم حسم موقفنا إزاء فهمنا لطبيعة الصراع مع هذا العدو، الذي أقيم في الأساس، كقاعدة للإمبريالية الغربية في قلب وطننا العربي، وليتحول مع مرور الزمن، إلى إمبريالية فرعية إقليمية، ترتبط عضويا بقوى الإمبريالية العالمية، وتعمل معها على إخضاع أمتنا وكل شعوب المنطقة للمصالح الاستعمارية الغربية. وأن الصراع مع هذا العدو يغدو بالتالي، صراعا بين مشروع الإخضاع الاستعماري، والمشروع النهضوي القومي العربي، المتقاطع مع مشاريع التحرر والتقدم التي تناضل الشعوب التابعة والخاضعة من أجل إنجازها، وكذلك الطبقات والفئات المهمشة في البلدان المتطورة.

(١٢)
الطفل قاسم ومجموعة (جتف)

عندما عرفت قاسم، كانت أسرته ما تزال تعيش آثار الفاجعة التي حلت بها، إذ لم يبق من هذه الأسرة الكبيرة العدد، غير الوالد والابن قاسم، بينما احترق باقي أفرادها بقنابل النابالم التي ألقتها طائرات الغزاة على سيارة العائلة المدنية، والتي كانت قد توقفت قرب النهر للبحث عن ماء للشرب، وذلك عندما ذهب قاسم مع والده بحثا عن الماء.وعادا، ليجدا السيارة تحترق بمن فيها، وقد وشمت آثار المواد الكيماوية الحارقة ساعدي الصبي قاسم أثناء محاولته إخراج أحد أفراد الأسرة من وسط النيران.

كان قاسم ما يزال طفلا لم يتجاوز الخامسة عشرة عندما عرفته، ولقد أنضجته الفاجعة فغدا شابا وهو في تلك السن، فقد اقتصرت علاقاته على الشبان الذين يكبرونه وخاصة ممن يتسم سلوكهم بالجدية. وكان يزورني باستمرار بحكم الجوار، أما والده فقد غدا شيخا هرما مع أنه لم يكن قد بلغ الخمسين من العمر.

وكان قاسم وسيما، أشقر الشعر، أخضر العينين، معتدل القامة، أنيقا مرتب الهندام، بادي البشاشة التي تخبئ خلفها ألما دفينا، فيه نباهة وذكاء وقدرة على الاستيعاب والفهم، وإنه رغم هدوئه الظاهر، فقد اضطرم داخله بذلك الحقد الداعي للانتقام من قتلة أمه وأخته الكبرى سعاد التي كان يمحضها الحب، وأخيه الرضيع، وباقي الأخوة والأخوات، وقد لاحظت أنه بدأ يرتبط بمجموعة من الشبان، علمت

فيما بعد، أنها تابعة لجبهة التحرير الفلسطينية (جتف)، والتي توحدت فيما بعد مع الجبهة الشعبية ثم عادت فانفصلت عنها.

وكان عبد الغني، الذي كان يعمل آنذاك في مركز للأرصاد الجوية، هو العنصر البارز في تلك المجموعة، كونه الأكبر سنا، وهو شاب من منطقة بيت جبرين، وغدا لاجئا في مخيم عين السلطان بعد النكبة. ومن بين هذه المجموعة أيضا، الشاب قاسم الولجي، خريج معهد خاضوري الزراعي، والذي ربطتني به هو الآخر صداقة امتدت إلى أفراد أسرته.

وكنت لاحظت آنذاك، أن تلك المجموعة، هي على علاقة بالمعلم سيئ السمعة، القادم من قرية الشيوخ، ولعله كان هاربا من تلك القرية خشية على حياته بسبب ارتباطاته المشبوهة مع العدو. وكانت قيادة منطقة بيت لحم للحزب قد حذرتنا منه، وطلبت بأن نحذر أهل فتاة في أريحا كان يتحدث عن علاقته معها وعن مشروعه للزواج منها، وهو الذي تزوج من إحدى طالباته وطلقها لدى عمله في ثانوية بيت لحم. وقد أشرت على قاسم الولجي، أن يحذر هو وجماعته من هذا المعلم المدعو هاشم، لكنه هز رأسه مبتسما، وكأنه يريد أن يفهمني بأني أخطئ في الحكم على هذا الإنسان. ولم يطل الوقت بتلك المجموعة، فقد وضع جميع أفرادها في السجن ما عدا "المناضل هاشم"، الذي بقي طليقا ليتزوج من تلك الفتاة المنكودة - كان والدها زميلا لي في المدرسة - وليرتكب محاولته السفيهة للاعتداء على أحد طلبته بالاشتراك مع صاحبنا أسعد.

وبعد فترة من الزمن، أخلي سبيل قاسم الصغير، فعاد إلى منزله وإلى والده الذي كاد أن يفقد ما بقي له من لب أثناء غياب ابنه في

السجن، إذ بدأ يحادث نفسه وهو سائر في الطريق ويردد عبارة واحدة لا يحيد عنها تفيد معنى التهوين من المصاب الذي حل به.

وعاد قاسم للتردد على منـــزلي كسابق عهده، لكنه غدا كثـــير السهوم، بادي القلق والعصبية، ومثقلا بهم لم أدرك كنهه، إلى أن أخبرني ذات يوم بما جرى معه داخل السجن وفي غرف التحقيق، إذ عقد صفقة مع ضابط الأمن (وهو الكابتن شلومو نفسه المسؤول عن منطقة أريحـا)، بأن يتم إخلاء سبيله، مقابل أن يتعاون مع مخابرات العدو، وذلـــك مـــا جعله مهموما مأزوما، خاصة أن أول مهمة كلفه بهـــا الضـــابط، هـــي مراقبتي، وتقديم التقارير الوافية عن تحركاتي وعلاقاتي.

وقد علمت أن قاسم الولجي (مسؤوله التنظيمي)، هو من سوغ له عقد هذه الصفقة، ولعله كان يعيش حالة من عذاب الضمير بسبب دوره في سجـــن قاسم الصغير، وما خلفـــه ذلك من آلام لوالده، إذ قال لـــه: "تستطيع أن تتحرر من هـــذه الصفقـــة إذا مـــا غـــدوت خـــارج السجن".(؟؟).

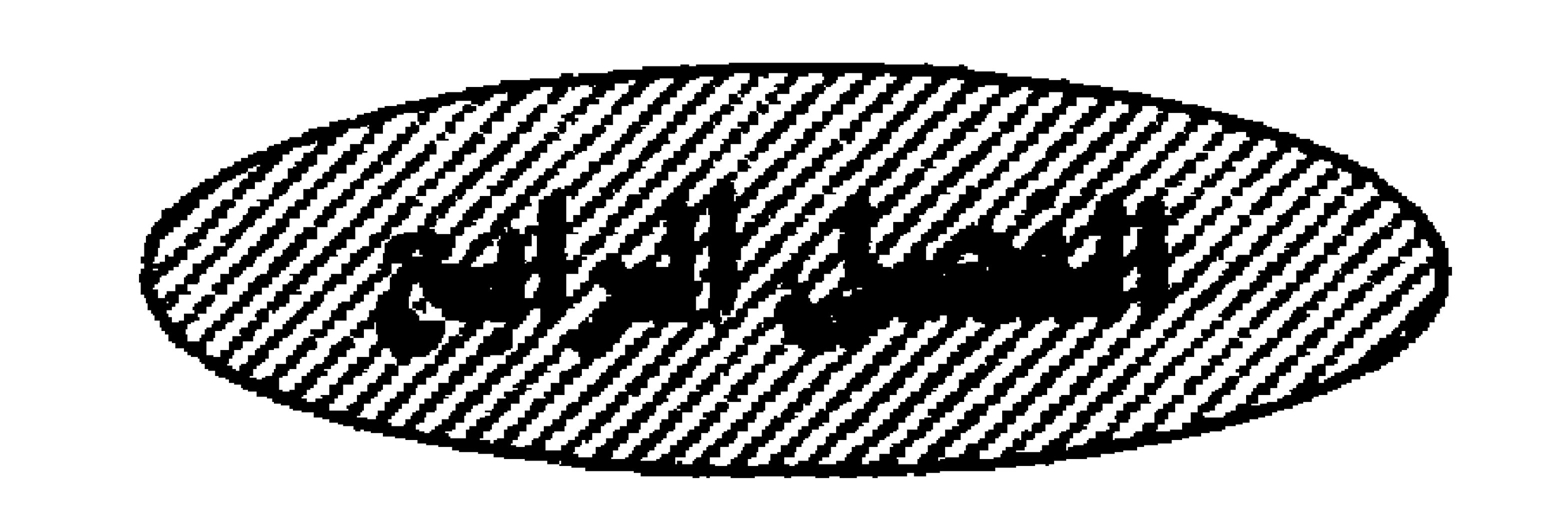
وحاولت أن أشد من عزيمة قاسم في مواجهة رجال الأمـــن، وأن أغرس في وعيه بأن السجن بكل قسوته، يظل أرحم عليه وعلى والده من أن يتحول إلى خائن. لكنني غدوت أكثر حذرا في علاقـــتي معـــه مـــع مواصلة تشجيعه على الصمود، وكنت أقول له بأن جلاديه مـــا كـــانوا ليطلقوا سراحه لولا خشيتهم من ردات الفعل على سجنه وسط أبنـــاء المدينة الذين يتعاطفون مع أسرته المنكوبة.

ولعل قاسم قد تمكن من الإفلات من قبضة جلاديه، فقد سافر إلى الكويت بعد أن ساءت حالته النفسية، وذلك نتيجة الضغوط التي كـــان يتعرض لها، أما مصير باقي أفراد المجموعة، فقد كان كذلك النفي خـــارج

الوطن، وبالطبع كان ذلك هو مصير العديد من المجموعات التي نصب لها المحتلون الأفخاخ للإيقاع بأفرادها، وإخراجهم من دائرة الفعل ضد احتلالهم.

وقد رأيت عبد الغني بعد ذلك في المنفى، وكنت أنقب باستمرار عن جانب غير صادق في شخصيته كان يعمد إلى إخفائه خلال سعيه لمواقع الزعامة السياسية، وهو الجانب الذي أحسست بوجوده منذ أيام أريحا، ولا أعرف كيف ألتقط أحد الرفاق الذي عرف بفراسته التي لا تخطيء، ذلك الجانب المخبوء لدى "مناضلنا الصلب"، فرأيته ينتهره ذات يوم بكل فظاظة، حين أتى إلى موقعنا في أيام حصار بيروت، محاولا تسويق "ثورياته" علينا، وكان على استعداد لأن يلقي به خارج الموقع لو لم ينسل صاحبنا خارجا من تلقاء نفسه.

وقد كشفت الأيام بعد ذلك، عن عدم إخلاص هذا الإنسان للشعارات الرنانة التي كان يطلقها بشأن عدائه لنهج الاستسلام، حيث التحق مع من التحقوا بمسار أوسلو، مما كشف عن عمق تبعيته للنهج الذي عبرت عنه القيادة المهيمنة في ساحة العمل الوطني، وهي التبعية التي أملت عليه الكثير من خياراته طيلة حقبة من الزمن.



الفصل الرابع

(١٢)
تجربتي في التدريس

ارتبطت إقامتي في أريحا بالعمل في التدريس، وقد درست أساسا في ثانوية البنات، التي تضم صفوف المرحلتين المتوسطة والثانوية، إضافة للصفين الأخيرين من المرحلة الابتدائية. ويعود هذا الدمج بين المراحل المختلفة، لقلة عدد سكان المدينة، وبالتالي قلة عدد الطالبات بالنسبة لسعة المدرسة. وبالإضافة إلى عملي في ثانوية البنات، فقد درست أيضا علم الاجتماع والفلسفة في ثانوية البنين، مما أتاح لي الاحتكاك ولو بشكل محدود في أوساط الطلبة، والاحتكاك كذلك بقطاع أوسع من المعلمين.

وقد درست في الأساس مادة التاريخ وعلم الاجتماع والفلسفة، لكني أعطيت دروسا في الجغرافيا، ثم أعطيت دروسا في اللغتين العربية والإنجليزية كعمل طوعي، إذ أخذت هاتين المادتين كهواية، وضمن محاولة لاستكشاف أسلوب تعليم أكثر حيوية للغات من الأسلوب السائد.

ولقد مارست التعليم، وأنا ما زلت أذكر كم كان يرهقني الجلوس على مقعد الدراسة ساعات طويلة كل يوم، لأستمع لدروس لا رابط بينها وبين الحياة التي يحياها الطفل والصبي، فكانت المدرسة بالنسبة لي في ذلك العمر، بمثابة سجن استطاع بعض المعلمين فقط تخفيف أعبائه ،

لاعتمادهم أسلوبا في التعليم يبتعد عن التلقين والحفظ، ويعمد إلى إشراك الطلبة في استنباط المعلومات، دون التعالي عليهم وفرض تلك السلطة القمعية في التعامل معهم.

ولذلك فقد عملت جهدي بألا تكون حصصي ثقيلة على الطلبة، وأذكر أني في البداية قلت لبعض الصفوف، أن بإمكان أي طالبة أن تغادر الصف متى شاءت ذلك ، وأن تعود إليه من دون استئذان ، مفترضا بأن شعور الطالب بالحرية، من شأنه أن يخفف عنه الشعور بأنه في سجن، وقد سعت البعض لاختبار ما عرضته عليهن، فكن يخرجن إلى دورة المياه، وإلى باحة المدرسة، ثم يعدن مسرورات متباهيات بحريتهن، لكنهن فيما بعد توقفن عن استخدام هذه الحرية، التي رأين فيها مسا باحترامهن لجهد المعلم الذي يعلمهن، وبدل ذلك، أخذن يطالبني بمواصلة الدرس حتى بعد انتهاء الحصة. وذلك تعبيرا عن انسجامهن مع الدرس. ولعله من المناسب هنا أن أذكر تشديد لينين على حق المرأة بالانفصال عن زوجها، ورده على المستنكرين الخائفين على المؤسسة الأسرية، بأن الحق في الانفصال لا يعني الانفصال، بل هو يقيم العلاقة بين الزوجين على أسس من الديمقراطية والقناعة المشتركة.

وقرأت في الفترة الأولى من اشتغالي بالتعليم، كتاب كالينين عن هذه المهنة والذي وضعه بعد ثورة أكتوبر، وكان يرى فيه بأن على المعلم أن يمارس الرقص وأنواع الرياضة لكي يغدو رشيقا ومليئا بالحيوية، ولكي لا تكون حركاته بليدة ثقيلة أمام عشرات الأعين الفاحصة المدققة التي تنظر إليه ساعات طويلة من النهار، وقد مارست لعبة التنس التي لم أكن أعرفها سابقا، ومارست السباحة و لم أكن أتقنها قبل تلك السن، وتخففت من الثياب الرسمية وربطة العنق التي كان يكبل بها المعلمون

أنفسهم، وغاليت في ارتداء الثياب المريحة، وكنت أول من استخدم الدراجة الهوائية بين المعلمين، وعمدت إلى تحضير دروسي باهتمام كبير، ودعمت ذلك، بثقافتي التي حصلت عليها خلال أعوام الدراسة الطويلة.

وقد عزز صلتي بالطلبة بالطبع، اهتمامي بالقضية الوطنية، وحرصي على بناء أجيال أكثر ارتباطا بالشأن العام وبقضايا مجتمعهم ووطنهم.

وخلال فترة عملي في التدريس، تجنبت إظهار سلطتي كمعلم على الطالبات، وتصرفت معهن كصديق يكبرهن سنا وتجربة، وأنه يمكنهن الإفادة من معارفه وخبراته. وكانت تلك المعاملة البعيدة عن روح التعالي تجاههن، تجعلهن أكثر إحساسا بالمسؤولية بالنسبة لمسلكهن داخل المدرسة. وأذكر أنه في أيام مناوبتي، كانت تنعدم التجاوزات من جانب طالبات المدرسة، وكن جميعا ينتظمن في طابور الصباح بسرعة وبكل هدوء، وكنت من جانبي أكتفي بقرع الجرس في موعد الطابور الصباحي وموعد الدخول إلى الصفوف، ثم أقف ساكنا في الموقع الذي سينتظم فيه الجميع، وكثيرا ما كان يتناهى إلى سمعي، دعوة الفتيات بعضهن للبعض الآخر، بأن يلتزمن الهدوء والنظام، ولأن يظهرن أهليتهن للاحترام الذي أبديه تجاههن.

و لم تكن علاقتي بالطلبة الذكور لتختلف عن ذلك، فقد أطرحت جانبا تحذيرات المدير لي عن شراسة الطلبة، ودعوته لأن أظهر" العين الحمراء" في تعاملي معهم، كون سلوكهم يختلف تماما عن سلوك الطالبات. وقد رأيت أن عين المدير الحمراء لم تنفعه في شيء مع طلبته، فكانوا يعبرون صراحة وبكل استخفاف عن عدم قناعتهم بسلطته،

وكثيرا ما منعوه من الدخول إلى صفوفهم للتفتيش عليهم أو لإلقاء درسه (حيث كان يعطي بعض الدروس). وقد استقبلوه ذات يوم، بوضع كل مقاعد الصف خلف الباب لكي لا يتسنى له الدخول اليهم.

وخلال الرحلات المدرسية التي كانت تنظمها إدارة المدرسة، كنت أتحرر تماما من موقعي كمدرس عليه أن يتظاهر بالوقار والجدية، وأن يقيم حاجزا سميكا بينه وبين الطلبة، فكانت هذه الرحلات، بمثابة فرصة لتجديد الطاقات، ولنفض ما علق بالنفوس من روتين العمل اليومي، وقد كنت أشارك الطلبة في الألعاب وفي الغناء أيضا، وفي العزف على الناي الذي كنت أتقنه مذ كنت في سن العاشرة حيث لم تتح لي ظروف العيش أن أقتني آلة أخرى أتعلم العزف عليها، وفي اليوم التالي كنت أعود إلى شخصية المعلم المندمج في مهنته، والمحب لهذه المهنة، وقد قالت لي إحدى الطالبات ذات يوم وأنا منخرط في إلقاء درسي، بأنها لا تستطيع أن تصدق بأن الماثل أمامها هو نفس الإنسان الذي كان بالأمس ينطلق بكل ذلك المرح، مطلقا الأغنيات الشاعرية، وقالت: أشعر وكأنني في حلم لا يصدق، وأني أغلق عيني وأعود لفتحها لعلي أنفض من رأسي هذا الحلم الذي يلاحقني.

ورغم تبسطي الشديد مع الطالبات، فان ما حرصت عليه أكبر الحرص، هو عدم إظهار ما يشي بأي اهتمام رجولي بأية طالبة من تلك الطالبات، حيث تعاملت بإهمال تام مع الفتيات اللائي حاولن اختبار ردة فعلي تجاه اهتمامهن الأنثوي، إذ كنت أدرك بأن أية شائعات يمكن أن تدور حولي في هذا الجانب، سوف تفسد علاقتي بالمدرسة جميعها و بالأهالي، ولذلك فقد سارعت للارتباط بفتاة من خارج المدرسة ومن ثم إلى الزواج منها لكي أقطع الطريق على الشائعات.

لقد كنت مؤمنا، بأن أقصر الطرق للتفاهم مع الطلبـــة، هـــو أن أكون صادقا معهم، وأن أكون على حقيقتي باستمرار، لأنهـــم بعيونهـــم المدققة كانوا قادرين على كشف ما وراء الظواهر. وأذكر أنه قـــد زارني ذات يوم مفتش الإنجليزية، وهو المربي المخضرم المرحوم ناصر أبو عقال ، فوقف أمام طالبات الصف الخامس متجهما وقد بدا عليه عدم الارتيـاح، فاستمع لجانب من الدرس الذي ألقيته، ثم ألقى نظرة متعالية على دفـــاتر الطالبات، وسأل بعض الأسئلة بصوت ملؤه الاشمئزاز، ثم خرج قبل نهاية الحصة دون أن يقول شيئا. وقلت له حين جلست إليه في غرفـــة الإدارة، بأني أترك هذا العمل إذا لم يعجبه ما قمت به، فرد علي بكل تهذيـــــب، بأنه مسرور تماما بما أنجزته، وبأن أكثر ما لفت نظره هذا المستوى الرائـــع في كتابة طالبات مبتدئات، وأن تجهمه جاء من أجل ضبط هذا العـــــدد الكبير من الفتيات الصغيرات خشية أن يفلت زمام الأمور إذا هو أبـــدى تبسطا في التعامل معهن. وقد أخبرت البنات بوجهة نظره، وأعلمتهن بأنا قد "نجحنا في الامتحان" ، فردت إحداهن، بأن الصف كاد أن ينفجـــر بالضحك إزاء منظر تكشيرته الغريبة.

لقد شعرت في هذا الصف المكتظ بالفتيات الصغيرات، بأني لا بـد أن أكون ممثلا في مسرح للأطفال لكي أدخل في ذاكرة هذا الحشد تلـك الحروف الجديدة، و تلك المفردات، والعبارات، وأن أشرك كل واحـــدة منهن في هذا المسرح، وأن أصل إلى كل طالبة بمفردهـــا مـــن خـــلال إشراكها في اللعب اليومي مع اللغة، وأن أربط المعاني الجديدة بحركـــات تعبر عنها، والتي لا بد أن تكون حركات مملوءة بالحيوية حتى تنغـــرس في ذاكرتهن الغضة .

واستطعت بالفعل أن أخلق مسرحا طفليا لم تعـــد معــه اللغــة الإنجليزية مادة للتعذيب بالنسبة لهذا العمر من النشء . وقد كنت دائمـــا شديد التعاطف مع سن الطفولة، وربما لأن جيلنا الذي تفتح على عـــام النكبة وآثارها الكارثية، لم يتسن له أن يعيش طفولته.

إن ذكرى تعايشي مع هذا الحشد من الأطفال مازالت حيـــــة في ذهني، وما زالت صورة الفرح والانطلاق المرتســـمة علـــى عشـــرات الوجوه، والمتدفقة من تلك الأعين الطفلية، تمنحني الـــدفء الداخلـــي. وأعتقد أن هذا الفرح، هو كل ما يحتاجه الأطفال لتتفتح طاقـــاتهم، وأن الحب الذي يغدقه المعلم على أطفاله من دون تمييز، إنما يخلق المناخ الملائم لنمو شخصيات أكثر توازنا ونضجا، وأعمق اهتماما بالمعرفة.

وبالنسبة لتجربتي مع الطالبات الأكبر سنا فقد كانت أكثر تعقيدا، والأمر يختلف تماما ما بين طالبات المرحلة المتوسطة (الإعدادية) وبـــين طالبات المرحلة الثانوية. ففي المرحلة المتوسطة، أنت تتعامل مع فتيـات لم يعدن في سن الطفولة، و لم يبلغن بعد سن النضج، إنها ســـن المراهقـــة بتدرجاتها، وإنك لتشعر هنا بأنك إزاء قوارير زجاجية سهلة الكســـر لا تدري كيف تقترب منها دون أن تعطبها، وفي هذه الحالة، فإن كل كلمة غير مدروسة، وكل حركة في غير موضعها، يمكن أن توقعك في الخطـــأ وأن تفسد العلاقة بينك وبين هذا العمر من الطالبات، وعليك بالتالي، أن تتقن فن اختيار الخطاب الذي يمس ولا يمس شعور تلك الفتاة التي تريـــد انتقادها على تقصير أو على سلوك خاطئ لكي لا يتحـــول النقـــد إلى مأساة ولكي يعطي نتيجته المرجوة. وهذا الحرص من جانبي على شـــعور تلك الفتيات، أوصلني مع مرور الوقت إلى دخيلة نفوسهن، ومكنني مـــن

الإمساك بزمام عقولهن ودفع هذه العقول نحو الضوء بعيدا عن ضبابية تلك المشاعر المتفجرة التي تعتمل بداخلهن في تلك السن الحرجة.

والأمر يغدو أكثر سلاسة مع طالبات المرحلة الثانوية، إذ هنا يبدأ التعامل مع أناس دخلوا مرحلة النضج، ومن الواضح أن الفتيات يبدأ نضجهن العقلي منذ فترة مبكرة، حيث تغدو الفتاة قابلة لأن تصبح ربة أسرة وهي دون السابعة عشرة، فتغدو مهيأة لهذا الدور، وتبدو أكثر حكمة ممن هم في سنها من الفتيان.

وإني لم أفقد حيويتي وعفويتي مع الطالبات الأكبر سنا، وإن كان علي أن أوازن بين الجدية في العمل،وبين تلك الحيوية والتلقائية. إذ عمدت لمدة شهرين أو أكثر، إلى ملء كل دقائق حصصي بالشرح المنظم لدروسي، دون أن أترك مجالا لأي عبث من جانب أية طالبة تود أن تختبر قدرتي على ضبط الصف. وخلال هذه الفترة ، لمست أنني إزاء طالبات هن أقرب إلى النضج وليس بهن أي ميل للعبث.

وفي شرحي للدروس كنت أمسك بمحور الموضوع الذي أريد شرحه فأرسخه في وعي الطالبات، ثم أبدأ بعد ذلك بعملية الربط والبناء من حول هذا المحور حتى تكتمل مادة الدرس، وكنت بذلك أخرج عن أسلوب عرض المواد في كتب الدراسة، حيث يكون السرد التلقيني للطلبة، ويكون التلخيص المشوه للمادة، المنقول عن مراجع موضوعة لمن هم أكبر سنا. وكانت الشكوى تأتيني من عدم التطابق بين ما أشرحه في الحصة، وبين ما هو موجود في الكتاب. وقد حفزني ذلك، إلى تفكيك النصوص القائمة في الكتب، وتنظيمها من جديد وذلك خلال الشرح، لكي تنجدل عناصرها من حول الفكرة المحورية التي يتضمنها الموضوع. وكانت المهمة بالغة الصعوبة، وهي أن أشرك الطلبة في عملية التفكيك

والتركيب، وإبعادهم بالتالي عن الأسلوب التلقيني الذي تعودوه خلال أعوام دراستهم السابقة. وإني أقر على هذا الصعيد، بأني قد فشلت في إبعاد الطالبات عن اسلوب الحفظ الحرفي لمادة الكتاب،وإن كنت قد سهلت عليهن عملية الحفظ في ضوء فهم عام لمادة الدروس.

وفي تدريسي لعلم الاجتماع، كنت أظهر ضيقي من تلك المقارنة الساذجة التي يعمد إليها واضعو كتب الدراسة بين مجتمعاتنا العربية الإسلامية، والمجتمع الغربي (الذي هو دوما موضع المقارنة)، إذ كانت تجري الإشارة إلى تماسك الأسرة العربية، وإلى تحلي أفرادها بالخلق القويم، وإلى كرم العربي ومروءته وشجاعته بالقياس إلى الفرد الغربي، فكنت أحاول إفهام الطالبات بأن المجتمعات العشائرية والريفية، تنتج منظومة قيم مختلفة عن منظومة قيم المجتمعات الصناعية، وأننا يجب أن نرى تمزق مجتمعاتنا بين منظومة قيمنا وثقافتنا، وبين منظومة القيم والثقافة الوافدة الغربية، وعلينا بالتالي أن نعيد إنتاج ثقافتنا وقيمنا في ضوء الظروف المعطاة المعاصرة، وأن نتحرر مما يعيق تقدمنا ويعرقل تجاوزنا لحالة التأخر التي تعيشها مجتمعاتنا، ذلك أن الاعتزاز السطحي بحالنا الراهنة، غير قادر على حماية مجتمعاتنا من الاختراق الغربي الذي يفاقم من تشوه بنانا المجتمعية، كون هذا الاعتزاز الساذج، غير العلمي وغير الموضوعي، لا يمنحنا الحصانة أمام الثقافة الغربية المقتحمة.

وكنت أعرض مثل هذه الأفكار بأبسط صورة ممكنة، وأوضحها من خلال نقد الأمثلة التي توردها كتب علم الاجتماع، إذ كنت حريصا على ترسيخ العقلانية النقدية لدى طلبتنا، ليكون اعتزازهم بموروثهم الحضاري وهويتهم اعتزازا أكثر عقلانية وموضوعية، وأكثر قدرة على الصمود أمام الغازي.

وما أود الإشارة إليه في هذا المجال، هو أني قد وجدت الطالبات في مجتمعنا أكثر تفتحا من الطلبة الذكور، وأشد اهتماما بالشأن العام، وذلك عائد إلى ما يرزحن تحته من اضطهاد مزدوج اجتماعي وسياسي، وقد أحسست من خلال تجربتي في تعليم الطالبات، أن هناك دورا للمرأة تستطيع أن تحتله بجدارة، وأن تسهم وهي تقوم بتحرير نفسها، في عملية تحرير المجتمع بمجمله. وهذا الإحساس بدور المرأة، حفزني فيما بعد، لوضع دراسة متواضعة عن مساهمة المرأة في مقاومة الاحتلال، واقتصرت تلك الدراسة على الظواهر العامة التي شهدتها دون أن يتم تدعيمها بإحصاءات لم أتمكن من العثور عليها في كتاباتنا عن الحركة الوطنية في الأرض المحتلة أو خارجها.

لقد لاحظت على سبيل المثال، أن فوز القوائم الوطنية في الانتخابات البلدية لعام١٩٧٦، قد اعتمدت في بعض المواقع على دعم المرأة الكاسح لتلك القوائم، وقد برز ذلك في المجتمعات الأكثر محافظة والتي لم تتخلص من الروابط العشائرية. وكانت تلك ظاهرة ملفتة للنظر، حيث تصدت المرأة لمخطط حكومة العدو، ولمشروع شمعون بيريس في إبراز زعامات تقليدية عشائرية عبر تلك الانتخابات، قابلة للتعاطي مع مشروع الإدارة الذاتية (المدنية) التي أريد فرضها في الداخل بمعزل عن منظمة التحرير وعن جماهير شعبنا في المناطق المحتلة عام ١٩٤٨ وفي مواقع الشتات. وقد أحبط فوز القوائم الوطنية آنذاك هذا المخطط لتتولى تنفيذه فيما بعد قيادة المنظمة بعد توقيعها لاتفاق أوسلو.

لقد حفزني ذلك التفتح الذهني الذي وجدته لدى الطالبات، لأن أضاعف من جهدي في تثقيفهن بالثقافة العقلانية، وكان يدخلنا ذلك في حوارات ومجادلات غنية خلال حصص الدراسة ، وفي بعض الصفوف،

صرت أدخل إلى حصة الدرس فأجد الطالبات قد لخصن على اللوح الدرس المنوي شرحه، وقد سجلن محاوره ونقاطه الأساسية ضمن جهد رائع. وكانت تلك مبادرة ذاتية من الطالبات أصابتني بالدهشة، وقد وقفت مندوبة الصف تشرح الموقف لتقول: بأن هناك أسئلة كثيرة تريد الطالبات مناقشتها بعيدا عن الدروس، وكانت تذهلني باستمرار جدية تلك الأسئلة وعمقها، وكان ذلك يتناقض مع الفكرة السائدة عن هذا الجيل من الفتيات اللواتي يتهمن بأن ما يشغلهن هو زينتهن ونوازعهن الحسية بما يبعدهن عن الاهتمام بالشأن العام. وكان يمر الوقت سريعا ونحن في اشتباك دائم من الحوار، فكنا نواصل حواراتنا بعد قرع الجرس، وبعد انتهاء فرص التنفس والفسح المدرسية.

وقد كانت تلك الحوارات هي الفرصة الوحيدة التي تتاح للطالبات لكي يخضن فيما هو محرم عليهن الخوض فيه، حيث تهيأ الفتاة في مجتمعاتنا منذ الطفولة، لأن تتعود على حياة السجن الذي أعد لها سلفا في بيت الزوجية، فيتم من أجل ذلك سحق نوازعها الخاصة، وقتل شخصيتها، وتدمير حسها النقدي، فلكي تكون زوجة نموذجية، عليها أن تتعود الطاعة العمياء لسيد البيت، لكن ما يجري في الحياة العملية، هو أن تعمد المرأة و بأساليب ملتوية للتعبير عن ذاتها، وغالبا ما ينعكس ذلك على ترتيبها لأبنائها، فتتم تربيتهم في مناخ من المراءاة وعدم الصدق، و من خلال إبعاد السيد الوالد عن الأسرار المشتركة مع الأبناء ليحدث ذلك الانفصال والانفصام داخل الأسرة.

وخلال تلك الحوارات، لمست حجم المعاناة التي تعيشها المرأة المصادرة الإرادة، وعرفت أية عوالم تمور خلف ذلك القناع من الرضا الظاهري بالحياة في ظل الرجل السيد، والذي قد لا يدانيها ربما في

مواهبه، وفي كرم روحه، وفي قدرته على اتخاذ القرارات الصائبة. وفي غمرة اندماجي في هذا العمل، أخذت أحس بأني أواجه جدارا صلبا من التقاليد الذي لا يسهل اختراقه، وبدا ذلك واضحا في الوضع الذي آلت إليه تلميذاتي بعد انخراطهن في مؤسسة الزواج، وحتى أقرب أصدقائنا لم يكن يعامل المرأة بأفضل مما يعاملها الرجل التقليدي، وكان المبرر لذلك، هو أن المجتمع يريد ذلك، وأنه لا يستطيع الخروج على مفاهيم المجتمع، مما أكد لي وبصورة أشد وضوحا، من أن أحدا لا يعطي الحرية للآخر بإرادته. وقد عبرت عن خيبة أملي ذات يوم للطالبات، فقلت بأن كل ما نبذله من جهد لإطلاق عقولهن من سجنها يضيع هباء وذلك حين يأتي الرجل السيد المدعوم بركام من التقاليد، ليحبط كل هذا الجهد، لكن عددا من الفتيات الخريجات جئن إلي ذات صباح ليقلن لي، بأن تلك الحوارات هي كل ما حملنه معهن من زاد طيلة فترة الدراسة، وأن علي أن اطمئن إلى هذا الزاد، وأن لا يصيبني الإحباط، ذلك أن الظواهر الخارجية لا تشف عن مدى التغير الذي طرأ على تلك الأجيال التي درستها.

وقد بدا ذلك واضحا لدى المعلمات اللواتي درستهن وأتين ليصبحن زميلات لي بعد المرور على دار المعلمات، وكذلك لدى من ذهبن إلى الجامعات من بين هاته الطالبات والتقيت بهن في بيروت بعد الإبعاد، لقد بدون أكثر استقلالية، وأكثر قدرة على محاكمة التقاليد وأكثر استيعابا لأمور الحياة وتمردا على السائد.

وأذكر أن إحدى المعلمات من اللواتي درستهن خلال الأعوام السابقة، قد عمدت إلى مغامرة تتسم بالخطورة في تعاملها مع طالباتها، فقد طلبت من أحد صفوفها، أن تسجل طالباته انطباعاتهن عن المدرسة

وذلك ضمن ورقة مغفلة من التوقيع، ثم حملت تلك الأوراق وألقت بها في وجه الهيئة التدريسية، ورأت كل معلمة ومعلم وكذلك المديرة، انعكاس صورهم في مرآة تلك الطالبات، وعلموا جميعا بأنهم يقفون أمام كاميرات قادرة على تصوير ما حسبوه خافيا على هذه الأجيال. وإزاء الصدمة، حسن البعض من أدائهم في غرف الدراسة، وازداد البعض حقدا على هذا الجيل الذي يتجرأ على رؤية ما لا يجب رؤيته عند المعلم السيد.

ولم تكن تلك الحادثة بالطبع، هي كل مآثر الآنسة فادية، فقد بذلت هذه الفتاة جهدا واضحا في تطوير أسلوبها لتعليم اللغة العربية، وكانت شديدة الحب لعملها، بادية الإخلاص لقضية التعليم انطلاقا من إخلاصها للقضية الوطنية.

(١٣)
تدريس اللغة العربية

لفت نظري من خلال عملي في التعليم، أن فقر اللغة العربية كأداة تفكير وتعبير لدى طلبتنا، يترك أكبر أثر سلبي على قدرهم على استيعاب دروسهم. وأن اغتراب الطلبة عن لغتهم الأم، بسبب الانفصام القائم بين اللغة المحكية واللغة الفصحى، يجعلهم أقل قدرة على فهم دروسهم في كافة المواضيع، وهو يفرض عليهم حفظ هذه الدروس غيبا شأن من يحفظ نصوصا بلغة أجنبية. فقد لاحظت أن الطالبات يعجزن إذا ما نسين جملة من النص، أن يستبدلنها بجملة من تركيبهن الخاص، وإذا ما حصل ذلك، تكون الجملة مستعارة من نص آخر محفوظ غيبا غالبا ما يكون من الآيات القرآنية الكريمة أو من الأحاديث النبوية الشريفة، وتأتي الاستعارة في معظم الأحيان في غير موضعها ولا تعطي المعنى المطلوب.

ورأيت أن صعوبة اللغة العربية لدى الطلبة، تتأتى من أسلوب تدريسها، حيث تدرس هذه اللغة، كمادة قائمة بذاها منفصلة تماما عن المواد الأخرى من ناحية، ولا يتم التعامل معها كأداة تفكير وتعبير، إذ يضيع الطالب بين لغته المحكية التي تعود على التفكير بها، وعلى التعبير عن أفكاره من خلالها، وبين تلك اللغة المتحدرة إليه من عصور أخرى في الجاهلية وصدر الإسلام.

وإذا ما عدنا إلى تاريخ اللغة العربية، نجد أن العربي في الجاهلية وفي صدر الإسلام، كانت لديه لغة واحدة، ولم تكن اللغة المكتوبة التي نزل بها القرآن منفصلة عن لغته المحكية، وخاصة بالنسبة لشمال الجزيرة

العربية، ولأرجاء واسعة من الحوض الجغرافي العربي، وقد بدأ الانفصال مع دخول قبائل ذات لهجات محلية، ودخول شعوب أخرى في الإسلام، واندماجهم في المجتمع العربي-الإسلامي، مما دفع اللغويين العرب، إلى وضع القواعد والضوابط والقواميس للغة العربية، للحفاظ على حدودها، وتسهيل دراستها بالنسبة لمن دخلوا إليها من خارجها، وكان رأي أي بدوي، يعتبر الفيصل بالنسبة لأية مسألة مختلف عليها، لكونه لم يتأثر بما دخل على اللغة من تحريفات وخلط داخل التجمعات المدينية.

وبعد مرور مئات الأعوام من عصور سيادة العناصر غير العربية في مجتمعاتنا، ودخول هذه المجتمعات في عصور الظلام، جرت العودة إلى اللغة العربية مجددا في عصر النهضة، كما حفظها القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، ومثلما تحدرت إلينا من الأشعار ومن تراث عصر الحضارة العربية. ورغم ما أنجزته صحافة عصر النهضة من تبسيط لهذه اللغة، ومن تقريب لها من فهم القارئ والسامع العادي، إلا أنها بقيت غريبة عن وعي سواد المجتمع، حيث تسود اللغة المحكية المنفصلة عن تلك المكتوبة والمتداولة في أوساط النخب.

وقد لاحظت فيما بعد، بأن هذه المعضلة قد شغلت العديد من المهتمين باللغة وخاصة ممن اشتغلوا بالتعليم، وكان للعلامة عبد الله العلايلي اللبناني محاولة هامة لم تكتمل على هذا الصعيد، وعلمت أن المربي وأستاذ الجامعة، والمترجم الرائع، والكاتب الجميل د.عفيف دمشقية، كانت له محاولات ناجحة في تقريب اللغة العربية من أجيالنا المعاصرة، وقد وضع العديد من المؤلفات لتخليص قواعد اللغة من تلك التفاصيل التي يضيع فيها الطالب فتبقيه غريبا عن لغته الأم.

وبدا لي، وكأن هناك صراعا صامتا يدور بين سدنة اللغة، ممن يريدون إبقاءها حكرا على النخب يستمدون منها سلطة ومكانة في مجتمعهم، وبين من يريدون إنزال هذه اللغة من برجها العاجي، لتغدو بمتناول أوسع قطاع من أبناء المجتمع، وكأن المعركة تدور حول "دمرقطة" اللغة كجزء من معركة الديمقراطية في مواجهة الموروث من التقاليد الأبوية في هذا المجتمع.

وإذا كنا نسلم بدور اللغة العربية، والقرآن الكريم بوجه خاص، في حفظ الهوية العربية خلال عصور الظلام وإبان السيطرة الأجنبية ، فقد بات مطلوبا، أن تكمل هذه اللغة دورها ووظيفتها، بأن تعود مجددا لكي تغدو ملكا لكل أبنائها، ولا يقتصر إتقانها على نخبة تقيم في أبراجها المعزولة بعيدا عن أوسع الجماهير. وذلك يفرض إعادة إنتاج هذه اللغة وقواعدها وقواميسها بما يتلاءم مع احتياجات العصر، ومع الحاجات اليومية لأبناء الأمة، وذلك يفرض جهدا منظما دؤوبا تضطلع به مؤسسات معنية على مستوى الوطن العربي، تتجاوز في فعاليتها وحيويتها تلك المؤسسات القائمة التي ظلت معزولة عن أوسع الجماهير العربية.

لقد واجهت هذه المعضلة خلال تدريسي للتاريخ، وعلم الاجتماع، والفلسفة، والجغرافيا، ولمست فقر لغة طلبتنا، وأحسست كم يلاقونه من معاناة في ترجمة النصوص الموضوعة لهم إلى اللغة المحكية، كي يسهل استيعابها من جانبهم، ثم ترجمتها مجددا إلى اللغة المكتوبة المطلوب أن يعبروا بها في امتحاناتهم، وتعطل هذه العملية في إحدى مراحلها، بما يفرض على الطالب العودة إلى الحفظ الحرفي لتلك النصوص، والعودة مجددا إلى إسار التلقين في تعامله مع دروسه المختلفة.

ودفعني هذا الوضع، لأن أعرض على الإدارة، تدريس اللغة العربية في الصف المتوسط الأول، لأرى ما يمكن إنجازه على هذا الصعيد، وقد قبلت المديرة ذلك، خاصة وأنه لن يكون على حساب تدريسي للمواد الأخرى التي كنت أعطيها في المدرسة.

وكان أول ما فعلته، هو استعادة وحدة اللغة من خلال تدريسها، والتخلي عن عملية التمزيق القسري التي تجرى لها في مدارسنا، بتقسيم عملية التدريس، إلى حصص للقراءة ، وأخرى للقواعد والنحو، وللمحفوظات، والتعبير، وللبلاغة، وللإملاء، بحيث تغدو هذه اللغة الكائن الحي، عبارة عن أشلاء ميتة، لا رابط بين أجزائها.

وقد وضعت كتب المنهج جانبا، محتفظا بزبدتها كأستاذ، مبعدا الطلبة عن الغوص في تفاصيلها، وركزت على كتاب القراءة الضخم، الذي ألغيت قسما واسعا من نصوصه، واحتفظت بتلك النصوص الغنية بمضامينها وتراكيبها اللغوية، فكنت أقف عند النص الواحد أياما طويلة، نقرأها ثم نعود إلى قراءتها مجددا من خلال إشراك كل الطالبات في هذه العملية لكي يتم امتلاك هذا النص من قبل الصف كله، ونبدأ بعد ذلك بتفكيكه وإعادة تركيبه، وتجري عملية إعادة إنشائه شفويا، ثم يتم ذلك كتابة، ونبدأ بعد ذلك، بترسيخ القواعد الأساسية في ذاكرة الطلبة التي ترد في هذا النص، والتي كان الطالب قد حفظها (القواعد) في الصفوف السابقة دون أن يضعها موضع الاستخدام العملي، فنعود للتعرف على موقع الفعل والفاعل والمفعول به من خلال القراءة، وإلى موقع وعمل حروف النصب والجر والنعوت، والحال، والمفعول لأجله، وموقع وعمل منظومة إن وكان وأخواتهما، والمضاف والمضاف إليه، وأنواع الفعل، وأنواع الجمل.. الخ، وتتحول عملية إتقان القراءة وفق القواعد

الأساسية، إلى لعبة يومية يشارك فيها مجموع الطلبة، ومع التكرار، ومع ورود هذه القواعد بصور مختلفة،وعبر عملية الخطأ والصواب، تترسخ هذه القواعد في وعي الطالب، ويغدو مع مرور الزمن، قادرا على القراءة الصحيحة وفق تلك القواعد، وعلى الكتابة الصحيحة بسهولة.

وعبر هذا الشكل من القراءة، يجري إدخال دروس التعبير (الإنشاء)، ويتم إدخال دروس الاستظهار، وقد رأيت أن تكرار القراءة في الصف- الإفرادية والجماعية - يغني الطالب عن تعذيب نفسه في حفظ استظهارات تتم في أوقات فراغه في المنزل، ذلك أنه في جو الاندماج في عملية اللعب مع هذه اللغة والنصوص التي باتت أليفة عند الطالب، يتم استظهار النصوص المطلوب استظهارها.

وكانت دروس الاستظهار، تتحول إلى مهرجان شعري ونثري، وقد برزت مجموعة من الطالبات الموهوبات في الإلقاء اللائي تتسع حلقتهن في جو التشجيع الذي نشيعه داخل الصف. وفي كثير من الأحيان، كنا ننشد الأشعار على وقع ألحان ملائمة لوزنها، وكان يضاعف ذلك من المتعة في حفظ هذه الأشعار، وقد تحولت كل الأشعار الوطنية في كتاب القراءة ومن خارجه، إلى أناشيد ثورية، كانت ترددها الطالبات مع ضبط الإيقاع. وتحولت دروس التعبير بعد ذلك، إلى جمعيات خطابية، فكنا نفسح المجال لأكبر عدد من الطالبات كي يقرأن مواضيعهن داخل الصف، وكانت المكافأة للطالبات المتفوقات، أن يقرأن هذه المواضيع على طالبات المدرسة وهن منتظمات في ساحة المدرسة قبل الدخول إلى الصفوف. وكانت هذه المسابقات، تحفز الطالبات للعناية بمواضيعهن، بل لكتابة مواضيع بعناوين من اختيارهن، وكنا نتغاضى عن مساعدة الأهل لبناتهم في كتابة تلك المواضيع.

وما أن حلت نهاية السنة الدراسية في ذلك العام، حـــتى غـــدت طالبات الأول المتوسط اللواتي تعهدت بمحو أميتهن تجـــاه لغتـــهن الأم، ممسكات بزمام هذه اللغة، وحين تسلمتهن إحدى المعلمات في الســـنة التالية، عبرت عن تقديرها الشديد لما صنعت من هؤلاء الفتيات، حيـــث وضعت لـــديهـــن الأساس المتين الذي يستندن إليه في تعلم اللغـــة وفي التعامل معها، وقـــد أفـــادت بعض المدرسات والمدرسين كذلك مـــن هذه التجربة المتواضعة، والتي كانت في الواقع تجربة عفوية، اســـتخدمت خلالها ما تعلمته من مدرسين آخرين تعلمت على يدهم ،وأضفت مـــا قدر لي إضافته، مـــدفوعا بحبي لهذه المهنة التي أعرب أمير شعرائنا عـــن تقديسه لها.

(١٤)
العلاقة مع المديرة

لقد أدركت بحكم تجربتي في العمل الحزبي، بأن أي جهد فردي لا يمكن أن يحقق نتائج كبيرة في أي مجال من المجالات، وأنه لكي نقوم بخدمة الأجيال الناشئة من أبناء شعبنا في المدينة التي نعمل فيها، لا بد من خلق إطار ما لنخبة من المعلمين، يترك تأثيره على مجمل الهيئات التدريسية في هذه المدينة. وكان المطلوب من هذا الإطار، أن ينظر باحترام إلى هذه الأجيال، وأن يتعامل معها بروح من الديمقراطية، ولا يرى في انخراطها في النشاطات الوطنية، نوعا من التسيب والفوضى والتهرب من أعباء الدراسة كما يفعل المعلمون التقليديون، أو المعلمون الذين يتجنبون التصادم مع المحتلين، أوالذين يحابون الاحتلال بما خصهم من مواقع لا يستحقونها في سلك التعليم .

وقد عملت على تشكيل هذا الإطار من بين المعلمين الشبان – كما ذكرت آنفا –، وعبر تجمع من الأصدقاء، فعملنا على تشكيل رأي عام في صفوف الهيئات التدريسية، وقد سمحت لنا ظروف الاحتلال بذلك، حيث اهتمت أجهزته في الأساس بالجانب الأمني، وتركز جهدها على مقاومة أشكال المقاومة العنيفة. وكان هاجسنا الأساسي، إقامة علاقات من التفاهم بين المدرسين والطلبة واستبعاد العقوبات الجسدية بشكل حاسم، واحترام الحس الوطني للجيل الناشئ.

وهذا الدور من الرقابة الذاتية الذي مارسناه على العملية التربوية أثار حفيظة ذلك النفر من المدراء ومساعديهم الذين أرادوا تحويل

المدارس إلى مزارع خاصة بهم، مستندين إلى دعم أجهزة الاحتلال. وبالمقابل، فقد استطعنا تحييد المعلمين الذين لم تمكنهم حساباتهم الذاتية من الانخراط في العمل الوطني، وتمكنا من كسب تأييدهم الصامت لدورنا. وكان مدير المدرسة الابتدائية والمتوسطة الرسمية، هو الأكثر عداء لنا، والأكثر شراسة في مناهضة دورنا، وقد علمت فيما بعد، أن والد هذا الإنسان المنفوخ بالغرور والصلف، كان ضابط بوليس في عهد حكومة الانتداب، وكان بالغ الشراسة في مقاومة الثوار وملاحقتهم، وقد جرى اغتياله من جانب الثوار في ثورة عام ٣٦ -١٩٣٩.

وممن جرى تحييدهم في هذه العملية، مديرة مدرستنا (منور العلمي)، والتي كانت قد وهبت كل حياتها لمهنة التعليم، وتميزت بالصرامة الشديدة في تعاملها مع طالباتها ومدرسيها، وأزعم بأني قد أحدثت تحولا جذريا في أسلوب تعامل هذه المديرة داخل المدرسة، وقد أعانني على ذلك، حسها الوطني الدفين الذي لم تبدده أعوام عملها الطويلة في مهنة التعليم إبان العهد الملكي، وكذلك الأسلوب المرن الذي استخدمناه في التعامل مع أمثالها من المربين القدامى، وهو أسلوب يبتعد عن مظاهر الاستفزاز دون التخلي عن الحزم في شق الطريق لنمط جديد من العلاقات التربوية. وقد أثر على هذه المديرة مثلما أثر على غيرها، تقدير الأهالي لما نقوم به من جهد في تحسين الأداء التعليمي في ظل غياب سلطة وطنية تعنى بمستقبل أبنائهم.

لقد عمدت هذه السيدة الحريصة على نظام مدرستها، إلى مراقبة حصصي بالأسلوب الذي تعودته خلال أعوام عملها المديدة في الإدارة، فكانت تقف متلصصة خلف باب الصف أو خلف الشباك لتستمع إلى سير الدرس كما كانت تفعل مع غيري من أعضاء الهيئة التدريسية،

وكانت الطالبات يلفتن نظري كلما لمحن شبحها يحوم حول الصف، فكنت في البداية أعمد إلى تضليلها، أو إلى الحفاظ على المظاهر، بأن أقوم بربط الحوارات التي أديرها بمادة الدرس الذي نحن بصدده، وكان ذلك يرضيها إلى حد ما، دون أن تقتنع تماما بحقيقة التزامي بحدود الدرس.

ومع مرور الوقت، وبعد أن أخذت تلاحظ بأن خروجي على المنهج لا يخلق أية مشكلات بالنسبة لوظيفتها، وأنه لا يهدد سلطتها في المدرسة، وأنه يجعل الطالبات أكثر حبا لحياة الدراسة، أخذت تغض النظر عن تجاوزاتي، بل أخذت تعلن أمام الزوار من الأهالي، اعتزازها بوجود معلم مؤهل أكاديميا وثقافيا في مدرستها، وحريص على مستقبل طالباتها.

وأكثر ما بعث الرضا في نفسها، هو أن مجموعتنا من المعلمين التي غدا حضورها واضحا داخل المدرسة، قد أخذت على عاتقها حفظ النظام وحسن سير الحياة الدراسية، واستطاعت من خلال كسبها لثقة الطالبات، واحترام أو خوف باقي أعضاء الهيئة التدريسية، أن تخلق جوا من الانسجام داخل أسوار المدرسة، وأن تشيع سمعة طيبة في أوساط الأهالي حول ظروف العملية التربوية. وقد كانت هذه المجموعة، تتحمل عبء تنظيم الامتحانات الفصلية فتجري على أحسن وجه، وكان ذلك يريح سكرتيرة المدرسة الآنسة رابحة والتي كانت بمثابة وصيفة للمديرة مما جعلها قادرة للتفرغ لاهتماماتها البعيدة كل البعد عن مهنة التعليم.

لقد حرصت على إقامة علاقات إنسانية مع هذه المديرة، فاهتممت ومن دون مبالغة، بمعاناتها كسيدة داهمتها الشيخوخة وهي تعيش وحيدة، ذلك أن انصرافها إلى عملها قد شغلها عن الزواج وعن

إنشاء أسرة، كما باعدت ظروف النكبة بينها وبين أقارها الذين لجأ قسم كبير منهم إلى غزة فلم يعد هناك من يخفف عنها أحزان الوحدة، وكانت تحس بانشغال الناس عنها كل بأسرته وهمومه، وأن لا أحد معني بتذكر تضحيتها وخدماقا في المدينة. وقد كنت صادقا في مقاربتي لهمومها، معنيا برفع روحها المعنوية، مشيرا إلى أن تلك الأجيال التي تخرجت على يدها، سوف تذكرها دائما، ولن تنسى صرامتها في إدارة المدرسة التي كان الهدف منها صيانة العملية التربوية.

وكان أكثر ما يؤلمها، إحساسها بمراقبة المجتمع لكل حركاقا وسكناقا ارتباطا بموقعها كمشرفة على تربية الأجيال، ونتيجة لعدم زواجها، فقد غدا كل أفراد المجتمع، مسؤولين عن مسلكها وتصرفاقا، فكان محرم عليها والحال كذلك، أن تذهب إلى دار السينما أو أن تجلس في المتنزهات والأماكن العامة، وكانت تعبر عن هذا الألم في أحاديثها مع بعض المدرسات، وكذلك خلال نصحها للطالبات اللواتي أبدين إعراضا عن زواج عرض عليهن، فكانت تقول لهن: أنظرن إلى ما آلت إليه حالتي بسبب تضييعي لفرص الزواج التي عرضت علي، ها آنذا الآن أبكي ندما على عدم وجود رجل بجانبي يمسك بذراعي حين نخرج من البيت، وأطمئن إلى حضوره خلال ساعات الليل المديدة، فلا أموت فرقا في كل لحظة، بأن يقتحم أحد الأشقياء علي باب بيتي دون أن يخشى وجود من يقاومه. وقد علمت من بعض المدرسات، أن مديرتنا تقوم بوضع كل أثاث المنزل خلف باها حين تخلد إلى النوم.

وهذا الاهتمام الإنساني بمديرتنا الذي كنت أعبر عنه في مناسبات مختلفة، لم يمنعني من التصادم معها في مناسبات أخرى، وذلك حين كانت تخشى على نفسها أو على موقعها من مشاركتي في نشاطات

وطنية، وأذكر أنها بدت بالغة الحنق، عندما أعلنت رفضي سحب توقيعي عن مذكرة نظمت في منطقة بيت لحم، لرفع أجور المعلمين، وكانت المديرية ومن ورائها أجهزة السلطة، قد فرضت على المعلمين هذا الإذلال، وقد قالت لي وهي تكاد تختنق حقداً: لا تسحب توقيعك أنت، ولكن لا تحرض الآخرين على ذلك داخل مدرستي. وقد بدا هذا الحقد والكره في مناسبة ثانية تتعلق بقصة "المعرض الزراعي" الذي جرى تنظيمه في المدينة، وأريد إشراك طالبات المدرسة في إضفاء جو من البهجة عليه عبر نشاطات فنية وذلك ما سأعود للحديث عنه في موضع آخر.

وقد صدقت هذه السيدة النوايا في الانتخابات التي جرت في المدينة لإدارة الجمعية الاستهلاكية، رغم أنها لم تفعل ذلك من جانبها بالنسبة لي، وعندما حققت الفوز لها بعد أن خذلها من تواطأت معهم ضد مجموعتي، أتت واعترفت بما اعتبرته خيانة من جانبها.

و لم أدرك ما تركته عندها من تأثير إلا عندما جرى توقيفي في تشرين الثاني عام ١٩٧٤، فقد أصيبت جراء ذلك بوعكة صحية، وكان ذلك أول إنذار يطلقه قلبها مما اضطرها للإقامة في المستشفى. وقد أخبرتني الآذنة التي كانت كاتمة أسرارها، بأن مرضها قد جاء بسبب سجني، ذلك أنها تأثرت كثيرا، وأدركت يومها كم تختزن هذه السيدة من مشاعر إنسانية كانت تسترها بقسوتها الظاهرة بحكم طبيعة عملها. وقد جاءني نبأ وفاتها بعد إبعادي بعامين، فحزنت حزنا صادقا عليها وخاصة حين علمت بأنها قد دفنت غريبة مثلما عاشت طيلة حياتها.

وبالنسبة لمجموعتنا في تلك المدرسة، فقد تشكلت من نواة ضمت بالإضافة لي، الأستاذ إبراهيم الحوساني مدرس العلوم، والأستاذ عيسى

مدرس العربية للصفوف الثانوية، والتفت من حولها بعض المدرسات، من بينهن الآنسة فادية مدرسة العربية للمرحلة الابتدائية والمتوسطة، والآنسة سهيلة تلك المعلمة المتفوقة في مادة الكيمياء والخلوقة والرزينة، ولم يكن الأستاذ فاروق، مدرس الفيزياء بعيدا عن هذه المجموعة رغم فارق السن بيننا، ورغم اختلاف مرجعيتنا الإيديولوجية، حيث كان من قدماء حزب التحرير الإسلامي، وهذا الأستاذ هو في الأصل من مصر، فقد قدم والده إلى فلسطين مع البوليس الإنجليزي، وعرف بطيبته واستقامته وابتعاده عن إيذاء الوطنيين بل بتعاطفه معهم، وما جذبنا لهذا الأستاذ، هو صدقه، وانفتاحه، وروح النكتة لديه، وقد أفدت كثيرا من خبراته التعليمية ولا سيما في مجال تحضير الدروس، ولكن ما أذكره جيدا من أحاديثه هو رأيه في خطورة استيراد التكنولوجيا الغربية في مشاريع التنمية الاقتصادية لمجتمعاتنا، لأن ذلك من شأنه أن يعمق التبعية للغرب وأن يعرقل بالتالي عملية التنمية، وضرورة أن تنمي المجتمعات المتأخرة، تكنولوجيتها الخاصة، بتطوير خبرات الحرفيين لديها دون الانعزال عن تجارب البلدان النامية الأخرى على هذا الصعيد وعن منجزات الحضارة الغربية. ولم أعن في ذلك الوقت بجدوى هذا التوجه، حيث كنت ما زلت أرى بأن نسخ التجربة السوفييتية، هو بمثابة العصا السحرية التي من شأنها أن تحل كل مشكلاتنا. كما انضمت إلى مجموعتنا في هذه المدرسة، المعلمات الحديثات ممن أسهمن كطالبات في معهد معلمات رام الله بالنشاطات الطالبية الوطنية.

*

(١٥)
الأستاذ إبراهيم وبعض أعضاء الهيئة التدريسية

من بين المدرسين الذين عايشتهم في هذه المدرسة، كان الأستاذ إبراهيم الحوساني الذي أتيت على ذكره في السابق، وهو خريج معهد العلوم، وكان مجدًّا في عمله، وكان يدعوني لحضور بعض دروسه لأخذ رأيي في أسلوبه التدريسي.

وهذا التقليد من العمل الجماعي غدا سارياً في المدرسة، وأقام ما يشبه الرقابة الذاتية على عملنا فيها في ظل غياب رقابة سلطة وطنية كما أسلفت. وقد تقبلت مديرة المدرسة هذا التقليد و لم تر فيه مساً بوظيفتها.

وكان إبراهيم بارعا في الألعاب الرياضية وخاصة في تنس الطاولة، فكان يعقد المباريات الودية بين أعضاء الهيئة التدريسية وزاد ذلك من جو الانسجام داخل صفوفها.

وفي فترة الامتحانات الفصلية، كان هو المبادر إلى تنظيم هذه الامتحانات، سواء بالنسبة لطباعة الأسئلة، أو بالنسبة لإعادة ترتيب المقاعد في الصفوف، أو في تنظيم الرقابة الفاعلة خلال الامتحانات.

وكان أكثر مجموعتنا نشاطا في ترتيب الرحلات الداخلية على الدراجات خلال أيام العطل، وقد وسعت هذه الرحلات الجماعية، من دائرة علاقاتنا بين صفوف المعلمين من المدارس المختلفة.

وكان لهذا الشاب شخصيته المستقلة المتماسكة، فرغم الصداقة المتينة التي ربطت بيننا، إلا أنه بقي الأكثر مماحكة في علاقته معي،

والأكثر قدرة على انتقاد التوجهات التي عبَّر عنها حزبنا وخاصة على صعيد النظر إلى مستقبل الصراع مع العدو الغازي. وكانت مماحكاته تخلق مناخاً من الحوارات الغنية داخل المجموعة.

وهو من علّمني الخط عندما درّست العربية، وذلك كي أتمكن من تنشئة جيلٍ يحسن الكتابة بخطٍ واضح. وقد تطوَّر خطي من جراء ذلك، واستدركت ما فاتني تعلّمه في سنيّ دراستي المبكرة.

وقد زرت إبراهيم في قريته، وتعرفت على حياة الشظف التي يحياها أبناء هذه القرية التي سلب الصهاينة أراضيها الخصبة منذ عام ١٩٤٨م، وكانت نساء القرية ما زلن يحملن مياه الشرب وربما مياه التنظيف أيضا بواسطة الجرار على رؤوسهن، يجلبنها من النبع القائم على مسافة نائية عن القرية. وقد حدثني أناس القرية مجددا عن المجزرة التي ارتكبها الصهاينة في مطلع الخمسينات ضد أفراد الحرس الوطني، وضد الأهالي، والتي استشهد فيها اثنان من أبناء بلدتي كانوا مجندين في الحرس الوطني آنذاك.

لقد أظهر إبراهيم عاطفة صادقة تجاهي أثناء السجن وبعد الإبعاد، وقد حمل إلى أسرتي بعد إبعادي كمية من الزيت إظهارا لتضامنه معها، متحملا عناء نقلها من قريته النائية إلى أريحا. وظل يبعث برسائل الشوق إلي في منفاي مع القادمين إلى بيروت.

وكما ذكرت فقد تعامل إبراهيم بحذر بالغ مع حزبيتي في البداية، إلا أنه أخذ يتخلى عن حذره حين رأى الانسجام الواضح بين حزبيتي* ووطنيتي، وتخلى نهائيا عن هذا الحذر، عقب قيام الجبهة الوطنية في الداخل، والتي أعلنت ارتباطها العضوي بمنظمة التحرير الفلسطينية.

الأستاذ عارف العباسي:

من بين من درسوا في بنات أريحا الثانوية إلى جانب عمله في مدرسة البنين، الأستاذ عارف العباسي مدرس الدين، وكان هذا الأستاذ نموذجا لضيق الأفق، ولصغار النفس، بحيث كانت ابنته في المدرسة تخجل من صغاره ومن سوء سلوكه، وقد شكت من معاملته لأفراد أسرته في المنزل، بينما اشتكت الطالبات، من نظراته الوقحة إلى سيقانهن، حين كان يخرجهن للكتابة على اللوح، ويطلب منهن الكتابة في مكان مرتفع لكي يرتفع ذيل ثوبهن أمامه بينما يكون جالسا في أحد مقاعد الطالبات لكي يحسن النظر إلى ما يبرز من تلك السيقان الصغيرة.

وقد بدأ الخلاف بيني وبين هذا الإنسان، لدى إعلان السادات انقلابه على نهج عبد الناصر في ١٥أيار ١٩٧١م، وذلك حين أعربت عن سخطي على السادات، وأبديت خشيتي من السياسة التي بات يعبر عنها. وقد قال لي يومها، بأنه لا يحق لكافر التهجم على رجل مؤمن (أي السادات)، معرضا من خلال ذلك بمسيحيتي أكثر من تعريضه بشيوعيتي. وعند قيام النميري بإعدام القادة الشيوعيين إثر انقلاب هاشم العطا، قمت بمهاجمته أمام المدرسين، فرفع إصبعه في وجهي محذرا، وطلب إلي ألا أعود لمهاجمة إنسان مؤمن. فما كان مني إلا أن سخرت من وصايته المزعومة على "المؤمنين"، وتحديت تحذيراته بكل ضراوة، وشككت بانتمائه إلى شعبنا الذي تجاوز منذ زمن بعيد تلك النزعات الطائفية البغيضة.

ورغم موقفه العدائي تجاهي، فإنه ما كان يتحرج من مرافقتي وبدون دعوة، للمشاركة في تناول طعام الغداء الذي تعده الطالبات في حصص التدبير المنزلي، حيث كنت الضيف المرحب به دائما من

جانب الطالبات بحكم العلاقة الطيبة معهن. وكانت تثور ثائرته، ويعبر عن غضبه، حين لا يكون الطعام دسما، وحين يقتصر على مقلي الباذنجان والبطاطا والقرنبيط، فيقاتل الطالبات على استبعاده عندما يكون الطعام غنيا، وما كان يتحرج كذلك، عن مشاركتنا في شرب القهوة، التي كنت اشترك في شرائها مع معلم الإنجليزية.

وقد جاء ذات صباح على موعد القهوة، وكنت قد أحضرت من مطبخ المدرسة فنجانين فقط لي ولمعلم الإنجليزية (وذلك قبل حضور معلمين آخرين)، فقمت بسكب القهوة لي وللأستاذ الآخر واضعا إبريق القهوة أمامه لكي يتفضل ويحضر فنجانه من المطبخ-وكان ذلك بالطبع بعد الصدامات التي جرت بيني وبينه-، فما كان منه إلا أن بدأ بتلقيني درسا في آداب السلوك، وقال معلقا على وضعي إبريق القهوة أمامه: هل أنا حمار لكي أشرب القهوة من الإبريق؟ فأجبته ساخرا: أنت قلت ذلك! فثارت ثائرته، وسعى لأن يعمل قضية من هذه الحادثة، وانتحى بالأستاذ إبراهيم جانبا، وأخذ يحرضه ضدي، ويدعو إلى عزلي داخل الهيئة التدريسية، فسأله إبراهيم بكل برود: وماذا قال لك حتى تشن عليه كل هذه الحملة؟ فأجاب بأنه قال عني حمارا! فرد عليه إبراهيم: ولكنه لم يصفك بما ليس فيك، فلو لم تكن كذلك، لما اخترتني شخصيا، وأنا أقرب أصدقائه، لكي تحرضني ضده. وقال له بعد ذلك، لو لم تكن على ما أنت عليه من سفاهة، لحاسبتك على ما تحاول إثارته من نزعات تجاوزها شعبنا منذ أمد طويل وذلك خلال صراعه مع الغزوة الاستعمارية الصهيونية لبلادنا.

ولعله من سوء طالع هذا الأستاذ "المتمشيخ"، أنه كان في المدينة، أستاذ آخر لمادة الدين، وهو شيخ حقيقي معمم اسمه عمر البدرين، وكان

في أدبه، وسعة صدره، وعلمه، على النقيض من صاحبنا القمي، ولطالما أفدت من ذلك الشيخ في حواراتي معه عن حضارتنا العربية الإسلامية، وفيما يتعلق بالسيرة النبوية، والنظرة إلى مجمل تاريخنا في مواجهة تخرصات المستشرقين، إذ كنت أحاول دائما أن أعمق فهمي لهذا التاريخ، لكي أوظف هذا الفهم في ترسيخ اعتزاز المحيطين بي بتاريخنا، ومن ثم ترسيخ الثقة بمستقبلنا.

عيسى والسكرتيرة:

الصديق الآخر الذي عايشته في ثانوية البنات هو عيسى العزراوي، ذلك أنه من سكان قرية العيزرية على مشارف القدس، لكنه في الأصل، من قرى الجنوب الفلسطيني، القائمة بين الخليل وغزة.

وكانت النظرة الأولى إلى هذا الإنسان، تنبئك بأنه قد عاش حياة ملؤها الحرمان والبؤس، حيث تركت ظروف التشريد واليتم التي عاشها، ندوبا عميقة الغور في نفسه، ولم أتعرف طيلة صداقتي معه، على طبيعة علاقته مع أمه التي لم يقيض لي رؤيتها، ولعلها لم تقم بزيارته في البيت الذي أقام فيه في أريحا، وربما كانت هذه الأم، من بين الأشياء التي يضعها صاحبنا بعيدا عن الأنظار، كونها تستحضر طفولته البائسة.

وكان هذا الإنسان، يعمد إلى إخفاء ندوب البؤس باللباس الرسمي الذي كان يصر على ارتدائه في مناخ كمناخ أريحا الحار، أي البدلة الداكنة اللون، وربطة العنق، والحذاء المغلق، مجسدا من خلال ذلك صورة الأستاذ التقليدية التي عرفها في أعوام دراسته وكان يتوق إلى تقليدها.

وعندما زرته في مسكنه، رأيت ما يزيد على الخمس بدلات معلقة على الحائط في غرفة نومه، فقلت له مازحا، بأني أملك خزانة في بيتي، وغرفة نوم رسمية، لكني لا أملك غير بدلة واحدة هي طقم العرس الذي لم أعد استخدمه، وعبثا حاولنا تحريره من هذا اللباس الذي يكبل به نفسه، والذي أكسبه بين الطالبات، لقب "الحصان الخشبي" لصعوبة وبطء حركته داخل الصف بمثل هذا اللباس الرسمي.

وقد تكشف عيسى مع مرور الوقت، عن إنسان بالغ الطيبة، بل عن طفل كبير، ولقد ورث عن والده، وربما عن والدته أيضا ضخامة الجسم. وكان أكولا كوالده-مثلما روى لنا نقلا عن أحاديث الآخرين- والذي كان يأكل كعشر رجال،-ولا أريد أن أصدق هنا بأنه قد أكل عجلا تم ذبحه في إحدى مناسبات القرية-، وكان صديقنا قادرا على التهام أربعين برتقالة بعد الغداء، ولم يكن يتحرج عن ابتلاع كل ما يزيد عن حاجة الطالبات من برتقال في الرحلات التي كنا نقوم بها في أرجاء فلسطين.

وكان عيسى يعطي دروسه بالطريقة الكلاسيكية، حيث بدا عاجزا عن التواصل مع طالبات الصفوف التي يدرسها، فيمضي في شرح درسه كما حفظه مسبقا، غير عابئ بمدى تجاوب الصف مع هذا الدرس، وقد أدخله ذلك في مشاحنات مع الطالبات، فكان يشتمهن محنقا، وكن يتذمرن من عدم القدرة على متابعة دروسه، وعبثا حاولت مساعدته على هذا الصعيد، وكان يظهر انزعاجا من حضوري لبعض دروسه رغم الصداقة المتينة التي ربطت بيننا، وقد أقلعت بالطبع عن هذا الحضور.

ومنذ الفترة الأولى لانضمام الأستاذ عيسى للهيئة التدريسية في مدرستنا، طوقته سكرتيرة المدرسة باهتمامها، إذ رأت فيه الزوج الموعود،

وذلك رغم التباين الاجتماعي القائم بينهما، والبـــون الشاســع بـــين شخصيته المتشرنقة نتيجة حياة العوز والبؤس، وشـــخصيتها المتحـــررة المنطلقة نتيجة حياة الرخاء التي عاشتها في طفولتها وصباهـــا، ونتيجـــة الحرية التي تمتعت بها في منـــزل العائلة، حيث كانت تدخن السجائر أمام والدها وأفراد أسرتها، وتقوم بالزيارات وتستقبل الزوار في بيتـــها مـــن الجنسين دون أي رقيب. وكانت تمضي وقتها في المدرسة بين فنـــاجين القهوة، والسجائر، والثرثرات الفارغة، وكانت تلك صفات المرأة الناشز في وعي صديقنا الذي عاش في بيئة محافظة.

وقد انضم عيسى إلى مجموعتنا (أنا والأستاذ إبراهيم) وذلك ضمن ثلاثي من الأصدقاء، فكان يرافقنا في نزهاتنا على الدراجات الهوائيـــة، ويشارك في لعبة تنس الطاولة، وفي رياضة السباحة، غير أننا لم نســتطع إخراجه من شرنقته، وإنه رغم حسه الوطني الصادق، ما كان لينســجم مع لجنة المعلمين الوطنية التي قمنا بتشكيلها في المدينة، ولكنه كان يشارك معنا، وبقدراته التنظيمية المتواضعة، في إدارة شؤون المدرسة التي نعمـــل فيها.

لقد لاحقته تلك الآنسة المدينية المتحررة(إلى حد الخـــروج عـــن الآداب) بدون هوادة، و لم تتراجع إزاء صموده، وإزاء جمود لديه يذكـــر بجمود أبي الهول، وظلت طيلة أعوام ثلاث تغرقنا معه بأطايب الشـوكولا وفناجين القهوة والشاي المترافقة مع جلسات الثرثرة في غرفة المدرســين، وقد كرست وبتواطؤ من مديرة المدرسة، كل وقتها لملاحقـــة العريـــس الموعود، فكثرت الولائم الجماعية التي تنظمها للهيئة التدريسية، وتواترت الرحلات المدرسية المدبرة من جانبها والتي مكنتني من التعرف على معالم فلسطين المحتلة منذ عام ١٩٤٨م، إلى أن تمكنت في النهاية مـــن الظفـــر

بمرامها مدخلة صاحبنا إلى قفص الزوجية، لتتوقف بعد ذلك جلسات القهوة، وأطايب الحلويات والشوكولا، ولتنقطع سلسلة الولائم الجماعية، ولتلغى بشكل حاسم الرحلات المدرسية، ولنخسر الصديق الذي تعودنا على رفقته بعد أن غدا ملكية خاصة لتلك المرأة.

لقد شكلت هذه المرأة في ذاكرتي نموذجا للدأب والمثابرة من أجل تحقيق أمنية العمر بالنسبة لها، إذ لم يخطر في ذهني في أية لحظة بأنها ستنجح في مسعاها، وذلك لاتساع الهوة التي تفصل بينها وبين صاحبنا فإلى جانب الفراغ المثير لمشاعر النفور في شخصيتها، فقد كانت أبعد ما تكون عن الحس الوطني بسبب انشغالها باسترضاء المشرفين على التعليم في السلطة العسكرية، بل كانت تبدي إعجابا أنثويا بهؤلاء المشرفين من ضباط الاحتلال. وقد بلغ استفزازها لمشاعر المحيطين بها من الناحية الوطنية، أن استقبلت بترحاب قطعان الجنود الذين داهموا المدرسة لإخماد روح النهوض فيها وذلك إبان هبة تشرين الثاني عام ١٩٧٤م، وذلك حين نابت عن المديرة أثناء غيابها في المشفى في تلك الفترة، و لم تتورع عن تقديم القهوة للضباط الذين رافقوا هذه الحملة القمعية، وعن الجلوس إلى الحاكم العسكري تتودد إليه في غرفة الإدارة، و لم أكن حينها قادرا على وقف هذه المهزلة، إذ كنت محاصرا في غرفة المعلمين من قبل الجنود بإيعاز من ضابط الأمن والحاكم العسكري، والذي لم يغادر المدرسة قبل أن يأمر بحملي في سيارات الجنود، وكان لم يمض على خروجي من السجن غير بضعة أيام.

ولعله في ذلك اليوم، وضع قرار السلطة العسكرية، بتنصيب السكرتيرة مديرة في تلك المدرسة،(بعد أن يغدو هذا الموقع شاغرا،) ووضع في الوقت ذاته، قرار تنصيب صديقتها معلمة الإنجليزية، والتي

شاركت معها في إكرام الضباط القتلة، مديرة على المدرســة الابتدائيــة للبنات، وقد جاءني نبأ تعيينهن في موقعهن الجديد بعد النفي بعام واحــد، حيث أحيلت المديرتان السابقتان على التقاعد.



أحداث بارزة

خلال فترة إقامتي في أريحا جرت أحداث محلية وإقليمية بارزة رأيت الوقوف عندها، لأزيد من خلال الحديث عنها، توضيح صورة تلك المرحلة التي عشتها في أريحا وداخل الوطن المحتل، ولأطل عبرها على دلالات أرى أنه من المفيد عرضها.

(١٦)
الجنازة الرمزية لعبد الناصر

داهمنا نبأ وفاة عبد الناصر صبيحة التاسع والعشرين من أيلول عام ١٩٧٠ونحن ما زلنا نعيش جرح أيلول الدامي في عمان، وما زال نوح توفيق الزياد يتردد في المدى: "يا حادي العيس سلم لي على عمان، وقبل الجرح واحضن أهلها الشجعان"، وقد جاءت هذه الفاجعة، لتطغى على فاجعة سحق الثورة على يد النظام في الأردن أو لتكملها في الواقع.

وحال سمعت النبأ، انطلقت مطوفا على الأصدقاء،مدفوعا بالحس الغريزي الذي يحفزنا للتجمع عند وقوع المصائب، وقد وجدت صديقنا سعيد قبلان مورم العينين من كثرة البكاء، وقال متوجعا حين رآني: كم هو سيئ حظ شعبنا، فبرحيل هذا القائد،ضاع الأمل في إجلاء المحتلين. وكان رضوان الحلو، أشد تماسكا أمام المصاب، فقد أخذ يفكر بما يجب عمله للتعالي على الجرح، ولتحويل الألم إلى فعل نضالي في مواجهة الأعداء، وبدأنا أنا والحاج صبحي، الذي بدا محتقن الوجه، مجتاحا بهول النبأ، بالتحضير للجنازة الرسمية التي ستنطلق في اليوم التالي، و لم نكن نعلم لحظتها أن المدن العربية جميعها ، سوف تشق شوارعها حشود الجماهير في وداع قائد الأمة، وأن جماهير الوطن المحتل، بقضها وقضيضها، ستفجر حزنها على فقد من غدا رمزا للأمة، وعنوانا لإرادتها وصمودها، بالخروج إلى الشوارع، في مسيرات سيظل يتردد صداها إلى أمد بعيد.

وبدأت بإعداد الإكليل الضخم الذي سيتقدم الجنازة، فأحضرت سعف النخل، ووصلت عددا منها ببعضها البعض، ودعمتها بالأسلاك

وأغصان الليمون، وتركت لعدد من الطالبات اللائي هرعن إلى منزلي مهمة تزيين الإكليل، حيث مضيت على دراجتي استنفر الأهالي للمشاركة في الجنازة، وتحرك معي في الاتجاه ذاته، كل الأصدقاء والرفاق، وبدأنا بعملية تحضير علنية للجنازة الرمزية في المدينة.

وفي صبيحة اليوم التالي، ذهلت من ضخامة الحشد الذي تجمع بكل انتظام في ساحة المدينة الأولى عند مدخلها، أمام جامع صالح عبده. ولاحظت أن سكان المدينة جميعهم قد نزلوا إلى تلك الساحة، وأن طاقم الوجهاء هو من تقدم الصفوف وراح ينظم الحشد. وتقدم المسيرة إكليلنا الضخم تحمله طالبتان متشحتان بالسواد.

ومضت المسيرة بصمت مدوي في البداية، ثم انفجرت الهتافات تشق عنان السماء، وانطلقت الأناشيد الثورية، ورفعت اليافطات والأعلام، ووقف ضباط الاحتلال مذهولين أمام هذه الظاهرة، وكانوا قبل صبيحة هذا اليوم، يتوهمون بأهم يفرضون سيطرة كاملة على تلك المدينة.

وعلمت أن ما جرى في أريحا، كان صورة مصغرة لما جرى في أرجاء فلسطين، وأن مسيرة القدس كانت الأضخم بين المسيرات التي شهدهما الضفة المحتلة، وقد وقف موشيه ديان وكان وزير الحرب آنذاك فوق السور، يرقب بحر الجماهير المتلاطم الأمواج، المؤكد على عروبة هذه المدينة التي بدأ الصهاينة بتهويدها عبر قرار الضم وأعمال الاستيطان، مرتكبين جريمة حرق مسجدها الأقصى في سياق تطلعهم لإزالته من الوجود.

ولقد أحدثت هذه الجنازة الجماهيرية الضخمة، تحولا في مناخ مدينة أريحا، فقد نزعت الجماهير الكثير من خوفها وترددها، ومن ردود

الأهالي على دعوتي لهم بالانخراط في الجنازة، أحسست كم يتغلغل عميقا في وجدانهم الحس الوطني، وأفادني هذا الحدث، بترسيخ موقعي داخل صفوفهم، فبعد هذا اليوم الجليل، غدت عشرات البيوت في المدينة، مفتوحة لاستقبالي، وقد سهل زواجي الذي تم في تموز من ذلك العام، دخولي إلى تلك البيوت، وإقامة أوثق العلاقات مع سكانها، ووضعهم في صورة ما يجري من أحداث بما يهم قضية شعبنا.

وبعد هذا اليوم، اتسعت دائرة أصدقائي، وبدأت تلك الرحلة الطيبة مع أحمد شتا هذا النموذج للإنسان الكادح، الذي استطاع أن يجمع بين الاهتمام بتأمين قوت أسرته الكبيرة، والاهتمام بالشأن العام، والبحث عن الطريق الأكثر جدوى التي تقود إلى انتصار شعبنا وأمتنا في صراعها التاريخي مع الأعداء.

(١٧)
المعــرض الزراعــي

لعل هذا الحدث قد جرى في أيلول من عام١٩٧١، حيـث أرادت سلطة الاحتلال، أن تقيم معرضا زراعيا ضخما في هذه المدينة، يكــون شاهدا على الرخاء الاقتصادي في ظل احتلالهم (؟)، وعلى التعـايش (؟) القائم بين جماهير الوطن المحتل وبين المحتلين. وكانت هذه السلطة، معنيـة بتشجيع الزراعات التي تغطي حاجتها للتصدير إلى الأسواق الأوروبيــة، في مواسم الزراعة المختلفة في مواعيدها (في منطقة الأغوار) عن المنــاطق الأخرى من فلسطين.

وأرادت هذه السلطة، بأن يــترافق المعــرض،مــع احتفــالات ومهرجانات، لكي تدلل على روح التعايش مع جماهيرنا، وســعت إلى إشراك التجار في المعرض، من خلال عرض بضائعـهم المختلفــة فيــه، وتحويله إلى سوق شعبية تجتذب المشترين من مناطق أخرى من الضفــة المحتلة، وشكلت لجنة من الملاكين والتجار للإشراف عليه، ليبدو وكأنــه جهد محلي بعيد عن إدارتهم المباشرة. وعلقت الملصقات الدعائية للمعرض في أرجاء المدينة باسم "الباذنجانة الباسمة".

وفي ثانوية البنات، تولت معلمة الدين والعلوم الاجتماعية، مهمــة تدريب فريق من الطالبات على الرقص على أنغام أغنيــة لأم كلثــوم، وأخفت عني الإدارة الهدف من هذا التدريب القائم على قدم وســاق، والذي كنت أحسبه من أجل حفلة مدرسية، أو نوعا من النشاط الحــر اقترحته تلك المعلمة.

وذات يوم، وبينما كانت الموسيقى تتناهى إلى أسماعنا من غرفة المعلمات إذ بطالبة تسألني عن رأيي بمشاركة طالباتنا في المهرجان الزراعي، فأجبتها ساخرا وقد انتبهت لما يدور من حولي،بأن ذلك سيكون عملا عظيما، إذ في الوقت الذي نفذ النظام في الأردن جريمة محاصرة أبناء شعبنا في جرش والأحراش وقام بالقضاء على ثورتهم وعلى وجودهم هناك، وظل يلاحقهم حتى اضطر البعض منهم، وهم مجموعة من أشبال الشهيد أبو علي إياد، للجوء إلى الأرض المحتلة عبر منطقة الأغوار،هربا من الموت الذي يطاردهم، نقوم نحن بالرقص في ظل الاحتلال، لنقدم للعالم الصورة النقيض التي تظهر مدى سعادة شعبنا بعيدا عن سيطرة النظم العربية (؟؟).

وبعد هذه الإجابة، أحجمت الطالبات عن حضور دروس التدريب على الرقص، وسكتت موسيقى "خذني بحنانك خذني" التي كنا نسمعها كل يوم،وجاءتني المديرة وهي في ذروة انفعالها محاولة إقناعي بتغيير موقفي مما يجري، وقد حاولت القول بأنها لن تسمح بوجود مصورين في المعرض يقومون بنقل مشاركتنا فيه من أجل عرضها في أرجاء المعمورة كما ذكرت. فقلت لها بأن الأمر لا يعنيني، وأني أبديت مجرد رأي على ما يدور بغير علم مني في المدرسة،وأني ما زلت أرى بأن ما يتم التحضير له،هو على نقيض من المصلحة الوطنية،وأن التراجع الآن من جانب مدرستنا هو في صالحها، وأن عليها أن تنأى بنفسها عن مثل هذا الدور غير المشرف بشق طريق التعايش مع المحتلين.

وبعد ذلك أخذنا نتحرك في المدينة لإفشال المعرض الذي كان سيفتتحه الشيخ محمد الجعبري رئيس بلدية الخليل، والذي كان قد رئس قبل أكثر من عشرين عاما، مؤتمر أريحا، الذي طالب بضم الضفة إلى

المملكة الهاشمية، ثم ليعود بعد ذلك، إلى تبني مشروع "دولة فلسطينية" تقوم في كنف المحتلين، مستجيبا لما طرحته سلطات الاحتلال على هذا الصعيد بمبادرة من حزب العمل وموشيه ديان شخصيا. عاقدا للدعاية لهذه الدولة وفي الفترة ذاتها، مؤتمرا للفعاليات الإقتصادية في بلدية بيت ساحور.

وقد اتصلنا برئيس البلدية في أريحا، وقلنا له بأن هذا المعرض هو معرض سياسي في الأساس، وأنه سيسيء إلى سمعته في آخر عمره، وقد استجاب الرجل العجوز لتحذيراتنا (أو هكذا أظهر لنا)، وانتفض انتفاضته العرمرمية، وأخذ يصب الشتائم على من خدعوه، وأفهموه بأن المعرض هو لرخاء المدينة، وأن لا علاقة له بمشاريع الاحتلال. ثم أخذ يروي لنا تاريخه المشرف في العمل الوطني، وكان يعتبر نفسه من رجالات ثورة عام١٩٣٦، مع أننا على علم، بأنه كان أحد قبضايات حزب أبناء العائلات المناوئين للحزب العربي الذي رئسه الحاج أمين الحسيني، والذي غدا قائدا لتلك الثورة بعد أن انتشر لهيبها في الريف الفلسطيني.

واتصلنا بعد ذلك بالتجار المدعوين للمشاركة في المعرض، ووضعناهم أمام مسؤوليتهم الوطنية، واتصلنا بالملاكين والوجهاء، وحذرناهم من مضمون هذا المعرض، وقلنا لهم بأننا لا نريد لأريحا أن تكون سباقة للتطبيع مع المحتلين، وأنه يكفيها على هذا الصعيد "مؤتمر أريحا" الذي بقي وصمة عار في تاريخ وجهاء هذه المدينة.

وأثرنا حول هذه القضية حوارا أخذت تتسع حلقاته، لتتحول إلى معركة وطنية في مواجهة مشاريع المحتلين، وأحست السلطة العسكرية بالانقلاب الجاري في المدينة، فاستدعانا الحاكم العسكري أنا والحاج

صبحي والمعلم شكري. واستقبلنا في مكتبه وهو يتميز بالغضب والحقد، لكنه كان يتظاهر بالهدوء، بما يليق بممثل للمستعمر الذي يضع نفسه فوق سكان البلاد الأصليين.

وقد خاطبنا بالعبرية، وعبر مترجم ركيك اللغة العربية، وقال لنا بأن المعرض جيد، وأنه في مصلحة أبناء المدينة، وبأننا إنما نقف ضد مصالح الناس. ثم قال: "أعلم بأن ما تقولونه يأخذ به أهالي المدينة دون نقاش. ولذلك فإني أطالبكم بأن تقولوا للناس بأن المعرض (كويس)، وقد أقيم من أجل رخاء المدينة، وأنه سيفتح أبوابا واسعة للتصدير وسيدر ذلك عليهم فلوسا كثيرة".

وقلنا له أنا والحاج صبحي، بأن ذلك ليس من شأننا، وأن الناس أحرار بما يفكرون به بشأن المعرض أو غيره. لكن صاحبنا شكري، رد بغلظة على الحاكم العسكري، وقال له بأننا نرفض توجيهاته، وبأننا لا نعمل تحت سلطته. فتغاضى الضابط الصهيوني عن رده بشكل ملفت للنظر، وجعلنا هذا الموقف نتشكك في صاحبنا الذي سعى إلى صدام بيننا وبين ممثل السلطة العسكرية كنا نحاول تفاديه والاحتماء بالجماهير، فكان مثل هذا الرد من جانبه، يثبت التهمة علينا، بأننا نحن من يقاوم المعرض وليس الرأي العام الشعبي.

وفي هذا اللقاء مع الحاكم العسكري، توجه إلي بالحديث بقوله: "إنك تتدخل كثيرا بالسياسة في مدرستك،وعليك أن تهتم بعملك كمدرس وحسب وإلا فسوف أنقلك إلى مدارس الزرقاء" مهددا من خلال ذلك بإبعادي إلى الأردن، متحدثا عنه وكأنه محمية تابعة لسلطته، وقال: "أعلم أنك محبوب من جانب الطالبات،وعليك أن تحافظ على هذا الحب وأن تجنب نفسك المشاكل" وقد رددت عليه بأني لا

أثير أية مشاكـــل، وأني لا أعلم من الذي يزوده بتلك المعلومات المشوهة بشـــأني.

وودعنا الحاكم العسكري بعبارات التهديد، وقال: "إذا حصـــــل شيء للمعرض فسوف اعتبركم مسؤولين عن ذلك".وتم افتتاح المعـرض، وجاء الشيخ الجعبري ليخطب فيه، وكان قد بلغ أرذل العمر في تلـــــك الفترة دون أن يتخلى عن الدور الذي ربط به تاريخه، شأنه في ذلـــــك، شأن معظم الوجهاء التقليديين، الذين وضعوا أنفسهم في خدمة السـلطان أيا كانت هويته.

و قد افتتح المعرض من دون جمهور مشارك، وبدون موسيقى ولا رقص شعبي، والأشخاص الذين تصدروا هذه الفعالية باتوا موضع إدانـــة من المواطنين، و لم تنفعهم الأوسمة التي حاولوا وضعها علـــى صدورهـــم بتصدرهم قبل عام جنازة عبد الناصر، وباتوا أشد حقدا علينا في الوقـــت الذي كانوا يظهرون لنا أطيب المشاعر كلما التقوا بنا.

وفي تلك الليلة، حدثت عاصفة رعدية هوجاء، مترافقـــة بريـــاح عاتية، وأمطار لم ترها المدينة منذ عقود من الزمن، فأطيح بالخيام الـــتي نصبت للمعروضات، وجرفت الأمطار سلال الفواكه والخضار والملابس وعلب الشوكولا وأغرقتها بالطين، وأقفل المعرض، ووقفنـــا في ســـاحة المدينة وقد غمرنا السرور، معلنين براءتنا مما حل به. وقد علـــق أحـــد الظرفاء قائلا: "ما كنا نعلم بأنكم كشيوعيين، لكم مثل هـــذه العلاقـــة الطيبة مع الخالق".

لقد أساء ذلك النفر من الوجهاء لأنفسهم ممـــن تعـهدوا هـــذا المعرض، و لم يأسف أحد عليهم من سكان المدينة، لكنني أسفت على مـا حل بتلك الآنسة معلمة الدين والعلوم الاجتماعية،والتي كان همها مـــن

المشاركة في المعرض، أن تبرز مواهبها، علها تحظى باهتمام إبن خالها معلم الإنجليزية المقدسي، الذي لم تنجح كل الأساليب التي اتبعتها معه في إثارة اهتمامه بها، وفي جذبه نحو قفص الزوجية.

وكم كانت هذه الآنسة حائرة في السبيل إلى إرضاء صديقنا الذي كانت تختلق الأعذار لدعوته إلى منزلها، بحجة تعليم أختها تارة للغة الإنجليزية، وبحجة مرض والدها أو والدها تارة أخرى. ولقد أدخلت نفسها في تناقضات محزنة جراء هذا الاهتمام بقريبها، وذلك بين تعليمها للدين من جانب، وتدريبها للفتيات على الرقص من جانب آخر، وبين ارتدائها لفترة من الزمن، غطاء الرأس، والملابس السابغة على جسمها، ثم نزعها لهذا الغطاء، لكي تبرز انسدال شعرها، وارتدائها ضيق اللباس، لكي تظهر ما هو غير قائم من إنحناءات جسدها، وكل تلك التصرفات، لم تكن تتلاءم مع نشأتها الشعبية، وتربيتها المحافظة، وأدبها ونباهتها.

لقد أحست هذه الآنسة بالهوان أمام زميلاتها وتلميذاتها بعد هذا الحدث، وقد حقدت علي أعظم الحقد من جراء ذلك، فناصبتني عداء مكشوفا ينسجم مع شخصيتها التي لا تحسن المراءاة أوالمراوغة، وفتحت معركة شرسة ضدي داخل المدرسة، مستخدمة كل أسلحتها، وراحت تحرض المعلمات بأني أشيع عنهن صورة مغلوطة بشأن اهتمامهن بوظيفتهن، وحاولت تحريض الطالبات. وانضم لها في معركتها السكرتيرة وبطانتها، وانضم أستاذ الدين، وأستاذ الإنجليزية، ذلك الرجل الشيخ الذي كنت حذرته من علاقة ابنته مع مدرس الكيمياء سيء الصيت، و لم تكن المديرة بعيدة عن هذه المعركة، حيث أملت بأن تحد نتائجها من نفوذي داخل مدرستها، لأغدو عنصرا طيعا أمام سلطتها. وقد أظهرت

هذه الآنسة قدرة على إدارة تلك المعركة، فما كان مني إلا أن وسعت دائرة الصراع، وأدخلت الطالبات وأصدقائي من المدرسين والمدرسات إلى ساحتها بعد أن وضحت طبيعة هذا الصراع،وكان أن الهزمت آنستنا شر هزيمة،فبادرت إلى طلب نقلها إلى مدينة أخرى،وغدت معلمة في مدارس نابلس، وقد صدفتها ذات يوم في تلك المدينة، وكانت في أحد المحلات التجارية برفقة خطيبها، تجهز نفسها للزواج، وقد سررت بزوال النحس عنها، وبوصولها إلى مرامها في بناء بيت الزوجية.

لقد شعرت دائما بالأسف لصدامي مع هذه المرأة التي لم أحمل لها غير التعاطف والمودة، والتي كنت أقدر معاناتها وهي تصارع للتخلص من شبح العنوسة الذي يطاردها، وقد رأيت دائما، بأن صدامي معها قد جاء نتيجة سوء تفاهم، و لم أكن يوما لأضعها في صف المستهترين بمصير شعبهم ومصير قضيتهم الوطنية.

وبالنسبة للسلطة العسكرية، فإنها لم تغفر لنا وقوفنا بوجه سياساتها، وتحريضنا على تلك السياسات، وقد استدعتني أنا والحاج صبحي ، لتبلغنا بأنه محظور علينا مغادرة الأرض المحتلة، وتوالت بعد ذلك الاستدعاءات ضدنا المرفقة بالتهديدات، وخاصة من جانب ذلك الضابط الصفيق "شلومو" والذي كان يحب أن يسمي نفسه سليمان، ضمن محاولة مبتذلة لتعريب هذا الاسم، تيمنا بتجارب أسلافه من المستعمرين الذين كانوا يتسمون بأسماء عربية.

(١٨)
معركة الكرامة

جرت معركة الكرامة (٢١آذار١٩٦٨)، قبل ذهابي إلى أريحا، ولكني وددت أن أضع شهادتي المتواضعة حول هذا الحدث الذي رأيته من موقع آخر، آملا بأن تغني هذه الشهادة مادة الكتاب.

لقد كنت أعمل يومها مع والدي في البناء، وكان والدي قد تجنب فترة من الزمن العمل لدى الصهاينة، ولكنه عاد واضطر لذلك بعد انسداد سبل العمل أمامه في الضفة المحتلة، ومضيت للعمل معه هناك، إذ رأيت بأن مرافقتي له، ستمكنني من الاحتكاك بقطاع واسع من العمال الذين كانوا يتجهون كل صباح إلى الأرض المحتلة عام ١٩٤٨ بحثا عن مورد الرزق.

وقد مضينا أنا والوالد مع أحد المقاولين الصغار، الذين أخذوا يتعهدون أعمال الإصلاح لمنازل اليهود الشرقيين (الفقراء) التي بقيت على حالها منذ عام ١٩٤٨، أي كما تركها سكانها الأصليون من الفلسطينيين العرب، إذ اغتنم هؤلاء، وجود الأيدي العاملة الرخيصة لسكان المناطق المحتلة، فقاموا بإصلاح بيوتهم، وإدخال الإضافات المتواضعة عليها.

وفي أحد زقاقات شارع يافا في القدس -حيث كان عملنا- شاهدت بؤس أوضاع اليهود الشرقيين الذين كانوا يعبرون أمامنا عن سخطهم على معاملة اليهود الأشكناز (الغربيين) لهم،والذين ينظرون إليهم كذوي ثقافة منحطة بسبب عيشهم في المجتمعات العربية.

وكنا عشية معركة الكرامة، نقوم بتغيير درج خشبي متآكل لمنزل شرطي سير من أصل عراقي، ببناء درج من الحجر المنشور مكانه. ولفت نظري يومها، تلك الأناشيد والمارشات العسكرية المنبعثة من أجهزة الراديو في الحي كله،وهي نفس الأناشيد والمارشات التي كنت سمعتها من إذاعة العدو أيام حرب حزيران.

وفي صبيحة اليوم التالي، تعالت الأناشيد والمارشات، وانطلقت بحماس أكبر، وأحسست أن حدثا ما يدور في المنطقة. فسألت يهوديا عجوزا من أصل فلسطيني،ـكان يعمل عتالا قبل أن يتولى عنه العرب من سكان المناطق المحتلة هذه المهنةـعما يجري. فقال مفاخرا: لقد ذهبوا لاحتلال "ربة عامون" ولن يلبثوا أن يعودوا،وكان يقصد مدينة عمان، معبرا عن ذلك من خلال ثقافته الصهيونية التي ترمي إلى تهويد المحيط العربي جميعه.

وما أن اقتربت الساعة من العاشرة صباحا، حتى بدأنا نرى الطائرات المروحية تمر بشكل متواتر من فوقنا متجهة كما قدرنا إلى مستشفى هداسا القائم في بلدة عين كارم المحتلة عام ١٩٤٨ والملاصقة للقدس. وأخذنا نحس بتلبد الأجواء من حولنا، وأن الأمور قد أخذت تنقلب على الفاتحين،الذين كانوا ما زالوا يعيشون نشوة النصر في حزيران.

وقبل أن ينتصف النهار، أنهينا ما بأيدينا من عمل، ولأول مرة أرى والدي يتجاوز تقاليده في العمل على إتقان ما يقوم به، فقد سارع إلى وضع الدرجات الحجرية كيفما اتفق، ودون الاستعانة بميزان الخيط الذي يستخدمه عادة،أو بميزان الماء، وقد قال لي بعد إنهاء عمله: دعنا ننفد بجلدنا قبل أن تبدأ عمليات الانتقام من العاملين العرب.

وما أن دلفنا إلى شارع يافا، وقد أخفى والدي حطته وعقاله بوضعها في كيس تحت إبطه (لكي لا يشيا بهويته العربية)، حتى أدركنا حراجة وضعنا، فقد تحول الشارع الذي اعتدنا أن نراه غاصا بالمارة وضاجا بالحركة وبالسيارات والحافلات، إلى جزء من مدينة أشباح، فكل المحلات كانت مغلقة، وحركة السير متوقفة تماما، وعلى طول الشارع لم نصدف سوى عجوز يقف في مدخل محله الصغير وقد التصقت أذنه بالمذياع يتابع ما يجري/على ضفتي النهر،و لم نعرف كيف قطعنا ذلك الشارع الطويل الخالي من الناس بشكل تام، لندلف إلى باب الخليل، حيث مركز الحافلات الذاهبة إلى المناطق المحتلة عام ١٩٦٧، وهناك وجدنا الحركة عادية، ولكن كل من صدفناهم كانوا من العمال العرب العائدين إلى قراهم وبلداتهم ومخيماتهم.

وإذ مررنا بالقدس الشرقية، وجدنا الناس متجمعين في الطرقات، وأمام المحلات،وقد عرتهم الفرحة، وكثر بينهم الهرج، وأخذنا نستمع لما جرى، ذلك أن قوات العدو التي بلغ تعدادها (١٢) ألفا، والتي اعتقدت بأنها ذاهبة في نزهة لاحتلال قرية الكرامة الواقعة على الضفة الشرقية من النهر، ولتطهيرها من "المخربين"، قد جوبهت بمقاومة عنيفة من مقاتلي الثورة، ثم أخذت تنهال عليها قذائف المدفعية والدبابات من جبال السلط المطلة على المنطقة، بعد تمرد وحدات من الجيش الأردني على تعليمات قيادتها، فعلا صراخ الجنود الصهاينة، وانطلقت نداءات قادتهم يناشدون وحدات الجيش الأردني بوقف نيرانها لأنهم في طريقهم إلى الانسحاب. وبالطبع فإن هؤلاء القادة، إنما كانوا يراهنون على حياد الجيش الأردني عندما بدأوا مغامرتهم التي تحولت إلى كابوس مرعب،مثلما راهنوا كذلك، على حتمية تقهقر رجال المقاومة أمام جحافلهم.

لقد لفت نظري ما شهدته في شارع يافا من مظاهر الرعب التي سيطرت على التجمع الاستيطاني للصهاينة، وقد قدرت،بأن سكان هذا الشارع، شأن مستوطني المدينة جميعهم، وربما مستوطني الكيان، قدهرعوا إلى الملاجئ يحتمون بها، أو ربما مضوا إلى بيوتهم مرعوبين، رغم أن من وقف في وجه جيشهم "الذي لا يقهر". والذي نسجت من حوله الأساطير نتيجة لانتصاره في حرب حزيران،هم بضع عشرات من المقاتلين الفلسطينيين، وبضع ضباط في الجيش الأردني، خرجوا على سياسة نظامهم، منتصرين لكرامتهم الإنسانية والقومية. وقد ظللت أروي ما شهدته، كدليل على هشاشة بنية هذا التجمع الاستعماري الاستيطاني، والذي لا يظهر قويا متماسكا إلا بسبب خور وتواطؤ من هم في سدة السلطة داخل المحيط العربي، نتيجة تقديمهم لتناقضهم مع جماهير شعبهم، ومع الجوار العربي، على تناقضهم مع هذا العدو.

لقد خلقت هذه المعركة تحولا واضحا في المناخ العام في المنطقة وفيما يتعلق بنظرة العالم تجاه الصراع العربي-الصهيوني، وقد أنزلت إحدى الصحف البريطانية كاريكاتيرا معبرا، صورت فيه المقاتل العربي، وهو يطوح ببسطاره الذي جرى تضخيمه في الصورة بالدبابة الإسرائيلية. وكان التحول كاسحا على الساحة الأردنية، حيث شكلت هذه المعركة ولادة جديدة للثورة، فالتحق بصفوفها مئات وآلاف الشبان من أبناء الشعبين الفلسطيني والأردني، وتدفق إلى قواعدها، مئات الشبان العرب، كما حسمت الأوساط الفلسطينية (والعديد من الرموز الأردنية) داخل صفوف الجيش الأردني موقفها من الثورة، معلنة تعاطفها معها، وانحيازها إلى فعلها الثوري، ودق ذلك كله ناقوس الخطر بالنسبة للحلف

الأمريكي/ الصهيوني/ الرجعي الذي بدأ يضع الخطط، ويعد العدة للانقضاض على الثورة.

وإن ما قام به النظام في الأردن بعد ذلك من عدوان على الثورة، ومن اجتثاث لجذورها على هذه الساحة، إنما يؤكد على الدور الذي يوكله الحلف المعادي للنظم التابعة، وللقوى المعادية للثورة، وللشرائح الطبقية المرتبطة بالمشروع الاستعماري، في ضرب قوى الثورة وقوى النهوض الوطني والقومي. ولا يمكن أن يغيب عن بالنا، بأن الدور الذي اضطلع به هذا النظام في ضرب الثورة الفلسطينية، واضطلعت به أوساط وقوى انعزالية ورجعية فيما بعد على الساحة اللبنانية بالتعاون مع العدو الغازي،قد اضطلعت بمثله القيادة الرسمية للمنظمة، المتعطشة لسلطة تابعة مسخ، وذلك في تعاونها مع العدو من أجل إنهاء الانتفاضة، ومن أجل سحق القوى التي غدت المعبر عن إرادة شعبنا وأمتنا في مواصلة الصراع مع هذا العدو حتى إلحاق الهزيمة النهائية به.

(١٩)
دلالة انتخابات الجمعية الاستهلاكية
ربيع عام ١٩٧٤

بادرت إلى إنشاء جمعية استهلاكية في ثانوية البنات، فأسهمت عشرات الطالبات في رأسمالها، وشارك في العمل فيها معظم الطالبات، حيث عملت كل مجموعة في وقت فراغها، فحضرن الشطائر،وبردن المرطبات، وقمن بالبيع خلال فترات التنفس،وأشرف على الجمعية،عدد من المتطوعين من المعلمين والمعلمات. ومع مرور الوقت، وسعنا دائرة المبيعات في الجمعية، فشملت القرطاسية بأنواعها، ثم شملت بعض احتياجات الطالبات المنزلية، وكانت كلها تباع بسعر الجملة.

وتعممت هذه التجربة في عدد من مدارس المدينة، وأشرف عليها أصدقاؤنا من المعلمين والمعلمات، وكان الهدف من ذلك، تأمين احتياجات الطلبة بأقل ما يمكن من العبء، وتربيتهم على روح التعاون والعمل المشترك.

ومع نجاح هذه التجربة على مستوى المدارس، بدأ التفكير بإنشاء جمعية استهلاكية على مستوى المدينة، فتشكلت لجنة تأسيسية، واكتتب لديها عشرات المساهمين كأعضاء للجمعية العامة الاستهلاكية، وبدأ التحضير لانتخاب هيئة إدارية ولجنة رقابة. وقد تواجد في اللجنة التأسيسية عدد من أبناء العائلات، أو من ينوب عن شريحة الوجهاء الذين ما كانوا ليظلوا بعيدين عن مثل هذه الفعالية الاقتصادية - الاجتماعية في المدينة.

وقبيل الانتخابات، فوجئنا بحجم الإقبال على الجمعيـــة، وبــدا واضحا أننا بصدد معركة انتخابية حامية،بل إنها "بروفا" لمعركة انتخابات البلدية التي كانت تلوح في الأفق، وكان "حزب الوجهاء" هو من سخن أجواء المعركة، وبعث كل من حوله للتسجيل في الجمعية. وغدا مكتب "البرنس" بمثابة غرفة عمليات لإدارة هذه المعركة، التي اتضح بأنها ستدور بين كتلتين، هما الكتلة الوطنية التي بتنا نمثلها، وكتلة الزعامات التقليديـة التي وضعت كل ثقلها في مواجهتنا.

واستطاع "البرنس" أن ينظم قائمة كاملة للانتخابات مـن (١٢) عضوا، ضمت بالإضافة لعدد من أبناء العائلات، مدير البريد، الذي كان قد قدم حديثا إلى المدينة، و لم تعرف بعد ارتباطاته المشبوهة بالسـلطة، وضمت كذلك، مدير المدرسة الابتدائية -الإعدادية ابن ضابط البوليس السابق،والذي كان الأشد عداء لنـا. ومـن بـين أعضـاء القائمـة أيضا،صاحب محطة محروقات وهو من التواقـين للانخـراط في صـف الوجهاء. وبينهم أيضا، أحد أبناء العائلات المفلسين، وهـو كـاتب في المحكمة، وكان بمثابة "قبضاي" لتلك الشريحة من كبار الملاكين ينـوب عنهم في الصدامات، وينوبون هم عنه في الاهتمام بزوجته .

وجرى تطعيم القائمة بعناصر مقبولة من الشارع أيضا، فجـرى استدراج أحد المهندسين الزراعيين، وذلك ضمن مسعى لجذب أصوات تلك "القبيلة" من المهندسين الزراعيين من أبناء الخليل. وضمت القائمـة كذلك، موظف كبير من دائرة الصحة، وتم خداع مديرة مدرستنا أيضـا التي زارها وفد رسمي من "حزب الوجهاء" ووعدها بأن يدرج اسمـها في قائمته.

وتمت الانتخابات، واستمر فرز الأصوات حتى الساعات الأولى من الفجر، وتمكنا من اختراق تلك القائمة بخمسة أعضاء هم كل مرشحينا في هذه المعركة، والتي ضمت بالإضافة لي، مديرة مدرستنا، التي انكشف لها خداع أصحابها وأتت تعتذر عما اقترفته بحقي من غدر، وضمت كذلك، أستاذ شاب من الولجة، وأستاذين من الوافدين الجدد إلى المدينة، وتم بالمقابل، إسقاط العناصر الأكثر عداء لخطنا في القائمة المواجهة.

وقد اعتبرنا هذه النتيجة، بمثابة فوز كاسح لحزبنا ولتجمعنا الوطني، وهزيمة منكرة لحزب الوجهاء من الذين كان "البرنس" عنوانهم، وقد ضاعف من حجم الانتصار، كوننا لم نضع كل ثقلنا في المعركة، معتمدين على الحس الوطني العفوي لأبناء المدينة، وبالفعل كانت تلك الانتخابات، بمثابة "بروفا" لانتخابات البلدية التي جرت بعد ذلك بأقل من عامين، ودار فيها الصراع، وعلى مستوى الضفة والقطاع المحتلين، بين القوائم الوطنية المرتبطة بسياسة "الجبهة الوطنية" الامتداد العضوي لمنظمة التحرير الفلسطينية، وبين الزعامات التقليدية، والفعاليات الاقتصادية، التي لم تكن ثابتة الولاء للهدف الوطني، والتي كان من الممكن أن تنخرط في مشروع الإدارة الذاتية الذي طرحه العدو.

ولعله من المهم الإشارة هنا، إلى أن القوائم الوطنية في انتخابات المجالس البلدية التي جرت في نيسان من عام ١٩٧٦، قد تشكلت من عناصر مماثلة لقائمتنا في انتخابات جمعية أريحا، وذلك من أناس وطنيين، ومن قادة عماليين ونقابيين مهنيين، اقتصر رصيدهم على تزكية الشيوعيين لهم، وتزكية الجبهة الوطنية الفلسطينية والقوى الديمقراطية، علما بأن قيادة المنظمة، قد عملت باستمرار على إضعاف هذه الجبهة

وكافة القوى المنظمة، مركزة اهتمامها على الوجهاء وأبناء العائلات والزعامات التقليدية، بما يكشف منذ ذلك التاريخ، تطلعها إلى السلطة، وسعيها لكسب تلك العناصر والأوساط المطروحة دائما في السوق في خدمة أية سلطة قادمة.

وبينما مني مشروع شمعون بيريس للإدارة الذاتية، بهزيمة ماحقة بسبب نتائج تلك الانتخابات، فقد أصيبت قيادة عرفات، بحالة من الانزعاج الشديد، ذلك أنها رأت بأن فوز القوائم الوطنية والديمقراطية، إنما يشكل خطرا على السلطة التي كانت تتطلع إلى إقامتها في الضفة والقطاع، وفي الوقت الذي عمدت فيه سلطات الاحتلال، إلى التنكيل برموز تلك "القيادة الوطنية" التي أبرزتها الانتخابات، وخاصة عن طريق قرارات الإبعاد، ثم عن طريق التصفية الجسدية، حيث وضعت أجهزة أمنها العبوات الناسفة لثلاثة من رؤساء البلديات المنتخبين (في نابلس، ورام الله، والبيرة)، فقد عمدت قيادة عرفات كذلك، لشراء وإفساد من تستطيع شراءهم من داخل تلك القوائم، حيث نظم محمود عباس (أبو مازن)، عمليات التوأمة بين تلك البلديات، وبلديات دول الخليج وبعض العواصم العربية، ضمن خطة لاستدراج من يمكن استدراجه من المجالس الجديدة إلى خط قيادة المنظمة وعن طريق الرشاوي المالية.

ونشطت هذه القيادة بعد ذلك، لشراء كل من يمكن شراءهم في الداخل، مدعومة في ذلك، بأموال الطفرة النفطية التي انهالت عليها من دون حساب، لكي تتمكن من احتواء تلك المناطق (الضفة والقطاع)، التي قالت عنها إذاعة لندن معلقة على نتائج الانتخابات آنذاك، بأنها بدت وكأنها "تضم أكبر تجمع للشيوعيين في الشرق الأوسط".

وإذ استميح عذر القارئ إزاء هذا الاستطراد الذي يبدو وكأنه خروج عن موضوعنا الأساسي، وهو تلك الجمعية الاستهلاكية في أريحا، فإن ما قصدت بأن أوضحه، هو أن الناس البسطاء في الأرض المحتلة، كانوا قادرين دائما على هزيمة المشاريع الرامية إلى تكريس الاحتلال تحت اسم الإدارة المدنية أو الذاتية، وكانوا قادرين على عزل تلك الزعامات التقليدية التي تمنعها مصالحها الأنانية الضيقة من محاربة تلك المشاريع والوقوف بوجهها.

أما بالنسبة للجمعية الاستهلاكية، فقد سجلت نجاحا كبيرا في الفترة الأولى، ثم لم تلبث أن تراجعت، لتصفى بعد ثلاثة أو أربعة أعوام من إنشائها، ذلك أنها أصيبت بنفس أمراض القطاع العام، جراء الإهمال بالمال العام الذي يقع فيه الجميع، في ظل غياب أو انحسار الرقابة الشعبية التي لا يمكن أن تضمنها إلا ثقافة ديمقراطية راسخة الجذور داخل المجتمع.

(٢٠)
حـــرب تشريـــن

لقد خاض عبد النـــاصر حـــرب الاستنـــــزاف ضـــد الغـــزاة الصهاينة،ضمن خطته لإزالة آثار العدوان عن طريق الحـــرب، وخـــلال ذلك، أخذ يعد الجيش المصري لمعركة العبور،وانخرط في الجيش ضمـــن نظام الخدمة الإلزامية، مئات الآلاف من خريجي الجامعات، وقدم الاتحـاد السوفييتي دعما متعدد الأشكال لهذا الجيش، بما في ذلك حمايـــة سمـاء القاهرة من الطيران المعادي. وعبر التدريب القاسي الذي أشرف عليـــه رجال مثل عبد المنعم رياض، أمكن إعداد هذا الجيش للمهمة التي كانت واضحة في ذهن القيادة المصرية.

وجاء انقلاب السادات على نهـــج عبـــد النـــاصر، كـــانقلاب للبرجوازية البيروقراطية المتحالفة مع فلول الإقطاع والبرجوازية القديمـــة، فتعثرت مسيرة العبور، وتم طرد الخبراء السوفييت ضمن مسعى السادات للتقرب من أمريكا. إلا أن ضغط الجيش، وضغط الشارع، فرضا علـــى السادات أن يمضي نحو حرب تشرين ولكن ضمن رؤية سياسية مغـــايرة لرؤية عبد الناصر.

وعلى الجبهة السورية، جرى الإعداد للمعركة بنفس الوتيرة مـــن التدريب والتسليح، وانسجاما مع قـــرار الحـــرب، أوقفـــت الحركـــة التصحيحية بقيادة الرئيس الأسد (وزير الدفاع السابق) عملية النــــزف داخل صفوف الجيش الناجمة عن الصراعات الجانبية، وتم توحيد الجبهـــة الداخلية عبر الجبهة الوطنية التقدمية. وكما ذكر العماد طـــلاس وزيـــر

الدفاع السوري، فقد أشرف الرئيس الأسد بنفسه على إعداد القوات للمعركة الفاصلة، وعقد صفقة أسلحة مع السوفييت، فاقت في حجمها ونوعيتها كل ما عقدته الحكومات السورية السابقة على امتداد ربع قرن. وكانت الصواريخ المتنوعة هي المفاجأة التي شلت قوات العدو.

لقد وضعت عشرات الكتب حول حرب تشرين، ووضع الصهاينة كتاب "التقصير" الذي يضم شهادات حية بشأن الصدمة التي حلت بقادة العدو، والتي وضعت موشي ديان على حافة التسليم بالهزيمة عبر إعلان الاستقالة، وجاء الجسر الجوي الأمريكي ليسند جبهة الأعداء المنهارة، وليتفاعل مع خيانة السادات لأهداف الحرب مما أدى إلى انقلاب في مسارها وفي نتائجها.

وكشاهد من إحدى مدن الضفة المحتلة، ليس لي ما أضيفه بشأن هذه الحرب، سيما وأن الجبهة الأردنية كجبهة محاذية للنهر الذي كنت أعيش على ضفافه، ظلت صامتة خلال هذه الحرب. وكان على الناس في أريحا، وفي مناطق الضفة وغزة، أن يتابعوا عبر الإعلام سير هذه المواجهة التاريخية مع أعداء الأمة. ولكني أستطيع على هذا الصعيد، أن أنقل ما شهدته من رعب الجنود الصهاينة، ومن تفاعل الجماهير الفلسطينية في الداخل مع هذه الحرب ونتائجها.

لقد خيم مناخ الذهول على الصهاينة، واختفى بشكل نهائي الظهور السياحي الذي كان يبرز لهم في أريحا، حيث كان ضباط الأمن يتسكعون أمام المخفر وفي الساحة الرئيسية للمدينة، وحيث يمر في كل يوم، قطعان المستوطنين المحشورين كالأغنام في شاحنات "الكيبوتسات". وينزلون عراة أحيانا في ساحات المدينة.

وقد عطل الجنود وعن سابق تعمد، عشرات الدبابات التي كانت متجهة إلى الجبهة السورية هربا من المواجهة، فعلى مدخل أريحا وحده، شاهد الناس العديد من الدبابات التي جنحت عن مسارها وتركت كجثث ميتة بعد أن غادرها أطقمها العسكرية.

ومع مرور الأيام، بدأ يبرز جو الحداد في أوساط الصهاينة، فالحاكم العسكري لمدينة أريحا أعلن الحداد على أخيه، ومضى نفر من الوجهاء بزعامة البرنس إلى مكتبه لتعزيته، والحاكم العسكري لمناطق الضفة، أعلن الحداد على ابنه، وتوقف التجار بشكل نهائي عن تجاوز "الخط الأخضر" خوفا من انتقام الصهاينة لضحاياهم، كما توقفت حركة العمال عبر "الخط الأخضر". وقد أتيح لي أن أشهد آثار الحداد في مداخل شارع يافا، حيث ذهبت لزيارة المحامية الإنسانية التقدمية فليتسيا لانجر في مكتبها هناك، فرأيت عددا ملفتا من الأعلام السوداء تطل من شرفات البنايات، وهي الطريقة التي يعبر بها الصهاينة عن فقد أحد أفراد أسرهم.

وفي أريحا وغيرها من مدن الضفة، انقلب مزاج الناس بشكل سحري، وقد فاجأتني لهجة العشرات ممن قابلتهم وكانوا قبل أيام يعلنون نفض أيديهم من هذه الأمة، وكنت اصطدم معهم بكل ضراوة جراء لهجتهم المتخاذلة والمتشفية بضعف الأمة، وإذ بهم أناس آخرون، فكانوا يبادرونني الحديث عن عظمة هذه الأمة، وكأنهم يصلون ما انقطع بيننا من أحاديث كانت تدور بالأمس، وكأن تلك هي وجهة نظرهم الدائمة التي لم تتزعزع طيلة فترة الاحتلال.

وبالنسبة للناس العاديين الذين كان الخوف على لقمة عيشهم والذعر من السجن وإرهاب العدو يمنعهم من الخوض معي في حديث

السياسة، فقد انطلقت عقدة ألسنتهم، وباتوا يستوقفونني للتعبير عن فرحتهم، وعن اعتزازهم بالنصر التاريخي الذي حققته جيوشنا على العدو المتغطرس.

وفي تلك الأيام، تضاعفت ساعات ركوبي لدراجتي الهوائية، وكنت أنتقل من منطقة لأخرى داخل المدينة لكي ألتقي بالناس الذين كانوا يستقبلوني بكل ترحاب،معربين عن تهنئتهم لي بهذا الانتصار العظيم، وكان الشعور الذي يعبرون عنه، بأننا أحق من غيرنا في الاعتزاز بهذا النصر، لكوننا بقينا في أحلك الظروف،نرفع الراية الوطنية، ونقاوم مشاعر الخوف والإحباط من حولنا من دون تردد.

وفي تلك الأيام، سرقت دراجتي من أمام محل البقالة الذي كان يوزع صحيفة الفجر المقدسية التي غدت الصحيفة العلنية للجبهة الوطنية، وقد علمت من الشرطي صديقنا، أن الدراجة أخفيت في المخفر،وسرقت بإيعاز من ضابط الأمن الصهيوني هناك.

وأمام المقهى، اتسعت حلقة الناس من حولنا (الحاج صبحي، ورضوان الحلو،وأنا)، وفي الهواء الطلق،كانت تدور ما يشبه الندوات السياسية بعد أن تخلى الناس عن حذرهم السابق. وامتدت الندوات إلى المدارس بالطبع، والتي عاش طلابها وأساتذها مناخ النصر، وعقدت التجمعات في كل مكان، وكنت أتحدث لساعات طويلة دون أن يدركني التعب، شاعرا بأنه الوقت الملائم لإعادة تشكيل وعي الناس، وبلورة حسهم الوطني في إطار حركة وطنية جماهيرية.

وقد أخرجت هذه الحرب المارد الشعبي من القمقم، وبدا واضحا أن الثورة الفلسطينية هي على أعتاب ولادة جديدة تتمثل في انخراط جماهير الأرض المحتلة فيها وعلى نطاق لم تشهده في مراحلها السابقة،

وجاءت انتصارات منظمة التحرير السياسية بعد ذلك، لتعـــزز ذلــك النهوض الشعبي، فكانت قمة الرباط التي أعلن فيها الملك حسين انسحابه من تمثيل الشعب الفلسطيني لتغدو المنظمة هي "الممثل الشرعي والوحيـد" لهذا الشعب.

وقد شكلت المذكرة الموقعة من (١٨٨)شخصية من أبناء الضفــة المحتلة، والمقدمة إلى قمة الرباط،عاملا مهما في فرض التراجع على الملــك حسين، وكنت ممن أسهموا في جمع التواقيع على تلك المذكرة. ثم جــاء قبول منظمة التحرير عضوا مراقبا في الأمم المتحدة باعتبارها الجهة المعبرة عن النضال التحرري للشعب العربي الفلسطيني.

لكن الحلف المعادي لم ينتظر طويلا ليبادر إلى احتـــواء مفــاعيل حرب تشرين وعلى مستوى المنطقة جميعها. وبدأ الاختراق على جبهــة مصر،حيث وضع السادات كل أوراق المنطقة بيد الولايـــات المتحـدة الأمريكية ليمضي في مساره الذي قاد إلى كامب ديفيد.

وعلى الجبهة الفلسطينية، بلور الصهاينة خطتهم لضرب قواعـــد الثورة،بتكثيف الهجمات العسكرية ضدها في الجنوب اللبناني،ثم بتفجـير الحرب الأهلية اللبنانية من خلال الدخول على خط الصراعات الداخليـة على هذه الساحة، إلى أن جاء اجتياح ١٤آذار عـام ١٩٧٨للجنـوب، وجاءت الغارات المتلاحقة التي طاولت بـيروت واسـتهدفت منطقـة الفاكهاني، ثم الغزوة الأمريكية -الصهيونية عام ١٩٨٢، والتي استهدفت كما كان معلنا، تدمير البنية التحتية لمنظمة التحرير، وإخضاع القـوى الوطنية اللبنانية لسلطة تابعة في لبنان، وتوجيه ضربـة عنيفـة لسـورية وضعضعة مكانتها الإقليمية.

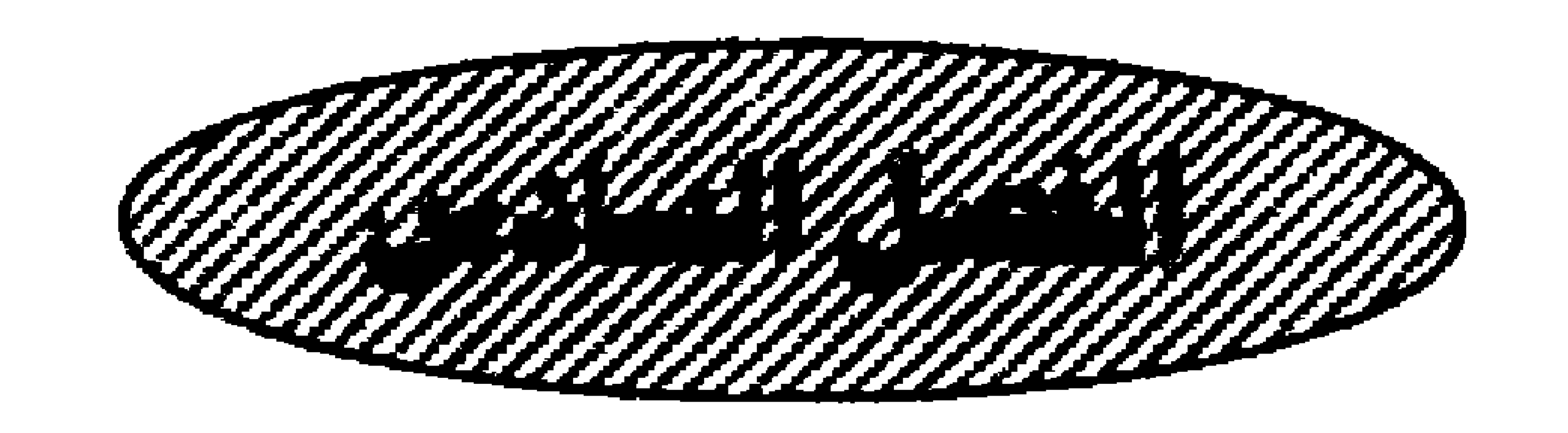
وأفاد الحلف المعادي من طبيعة القيادة المهيمنة على منظمة التحرير،فأخذ يجرها نحو خط التسوية مع الكيان الصهيوني وعلى قاعدة مشروع التصفية، مستغلا توق هذه القيادة بما تمثله من شريحة طبقية بيروقراطية تحولت إلى كومبرادورية، إلى إقامة سلطة لها ولو على رقعة من الأرض منقوصة السيادة الوطنية. وقد بدا واضحا على هذا الصعيد، أن ما اعتبره الوطنيون الفلسطينيون. إنجازا في قمة الرباط، لم يعدْ كونه فخا مدبرا للشعب الفلسطيني،ولقضيته الوطنية، التي تقع في صلب القضية القومية والصراع العربي-الصهيوني، ذلك أن النظام الرسمي العربي وهوغير بعيد عن فعل الدوائر الإمبريالية، قد أعلن نفض يده من هذه القضية ببعديها الوطني والقومي، مشجعا قيادة المنظمة على الانخراط في مؤامرة التسوية.

ومنذ ذلك التاريخ، بدأت عملية ترتيب الأوضاع الداخلية للمنظمة بما يسهل انخراط قيادتها في المؤامرة، وبدأت عمليات الإفساد الواسعة لجسم الثورة بالاستناد إلى أموال الحقبة النفطية.

ورغم اتساع المؤامرة وشموليتها، فقد ظلت الجماهير الفلسطينية في حالة نهوض متعاظمة عقب حرب تشرين، وتوالت انتفاضات جماهير الداخل، وتوجت بثورة الحجارة عام ١٩٨٧، حيث برزت قوى جديدة ذات إيديولوجية دينية تعبر عن الطاقة الكفاحية لهذه الجماهير، فما كان من حكومة العدو بزعامة بيريس وحزب العمل، إلا أن وضعت يدها بيد القيادة الهرمة للمنظمة، لتواجها معا ثورة الجماهير التي باتت تهدد بقلب كل حسابات الحلف المعادي.

لقد استمر الصراع برغم ضراوة وشمولية الهجمة المضادة للحلف الإمبريالي الصهيوني الرجعي، وسوف يستمر هذا الصراع وعلى مستوى

المنطقة برغم نتائج حرب الخليج الكارثية،وبرغم صفقة أوسلو، والوضع المأساوي الذي فرض على الجماهير الفلسطينية في الداخل والخارج نتيجة هذه الصفقة. وإني إذ أتوقف عند حرب تشرين ومفاعيلها، فإنما لأسهم بدوري المتواضع، في مواجهة تلك الأصوات التي تحاول في غمرة مناخ الهزيمة، أن تسلب الأمة أحد مصادر إلهامها، والتي ما زالت، (تلك المصادر) قادرة على إلهاضها برغم كل الظروف المحيطة بنضالها.



(٢١)
السجــن والابعــاد

جاءت عملية السجن ومن ثم الإبعاد بالنسبة لي، في سياق حملـة البطش والتنكيل التي تعرض لها الشيوعيون في منتصف السبعينات، وذلك ارتباطا بدورهم النضالي في تلك المرحلة في مواجهة مشـاريع المحتلـين السياسية، ثم في مقاومة احتلالهم بالعنف المسلح. حيث ترافقـت هـذه الحملة على الشيوعيين والديمقراطيين من جانب الصهاينة، بهجمة رجعيـة يمينية، شكلت القيادة المهيمنة في منظمة التحريـر أداتها الأساسـية، واستهدفت قلب موازين القوى في الأرض المحتلة، من خلال تحجيم دور التيار الوطني الديمقراطي بشكل عام، والتي قادت هجمة شـاملة علـى النقابات، والجامعات ومجالس الطلبة فيها، وعلى البلديات، وعلى الجبهـة الوطنية الفلسطينية. وقد جاء الانقلاب اليميني في الحزب ليتكامل مـع ذلك كله،وليؤدي إلى ضرب الخط الثوري -الكفاحي للشيوعيين، ثم إلى عزلهم وتهميش دورهم، وذلك قبل أن يحدث الانهيار في الاتحاد السوفييتي ومنظومة البلدان الاشتراكية.

وإذا كانت الحملة الصهيونية على الشيوعيين وأصدقائـهم، قـد بلغت ذروتها في الثاني والعشرين من نيسان عام ١٩٧٤، والتي طـالت معظم قادة وكوادر التنظيم الحزبي، مترافقة مع موجـة مـن التعذيـب الوحشي كرد على العمليات العسكرية التي نفذها الجهاز الحزبي باسـم

الجبهة الوطنية الفلسطينية، فقد بدأت هذه الحملة قبل ذلك التاريخ، وذلك من خلال إبعاد ثمانية من قيادة الجبهة، بمن فيهم مسؤول التنظيم الحزبي الرفيق عربي عواد، وذلك في العاشر من كانون الأول عام ١٩٧٣.

واستمرت تلك الهجمة بعد ذلك طيلة عامي ٧٥و١٩٧٦، فجرى إبعاد عشرات القادة والكوادر الحزبية خارج الوطن، وفي الآن ذاته، شجعت سلطات الاحتلال عملية بروز التيار اليميني داخل الحزب،فأطلق سراح بشير البرغوثي من السجن عقب إعلانه داخل المحكمة العسكرية: "الاعتراف بحق إسرائيل في الوجود، وإدانته لأشكال المقاومة العنيفة للاحتلال، ودعوته للحوار الديمقراطي مع التيار الديمقراطي الصهيوني من أجل الوصول إلى التعايش السلمي مع دولة إسرائيل". وكان الرفيق المذكور وهو عضو في المكتب السياسي للحزب الشيوعي الأردني، قد أرسل من قبل مركز الحزب في عمان في ربيع عام ١٩٧٤، لكي يتولى قيادة التنظيم الحزبي عقب إبعاد عربي عواد ورفاقه.

لقد بدأت المطاردة من قبل أجهزة أمن الاحتلال بالنسبة لي عقب حرب تشرين، فاستدعيت مرات عديدة إلى مقر الحكم العسكري في أريحا وفي بيت لحم،وأجريت معي خلال ذلك الحوارات التي تستهدف معرفة موقفي من الاحتلال وأسلوب مقاومته، وجرى تحميلي بالتهديدات السافرة بالسجن وبالإبعاد إذا لم أوقف "نشاطي" ضد الاحتلال.

وفي التاسع من تشرين الثاني عام ١٩٧٤، جرى توقيفي احترازيا خلال فترة عرض القضية الفلسطينية على الأمم المتحدة، والذي أدى إلى قبول المنظمة عضوا مراقبا فيها.

ودام توقيفي بضعة أيام قضيتها في سجن رام الله حيث التقيت بحشد من قادة الحزب هناك وكوادره،والتقيت بمجموعات من المناضلين الشبان، الذين كانوا يعبرون بحيويتهم، واستعدادهم للتضحية، عن مرحلة جديدة من المواجهة بين جماهير الداخل والمحتلين الغزاة.

وقبل ليلة القبض علي، تعرضت لحملة مراقبة مكثفة، فكنت أينما ذهبت أصطدم بعناصر الأمن والمخبرين، وكانت سيارة الأمن تمر من أمام منزلي مرات عديدة في اليوم الواحد، وقد أحسست أن غرفة نومي مراقبة أيضاً، ففي أكثر من ليلة، كنت أحس بحركة غريبة على الشجرة المطلة على شباك الغرفة، وهي شجرة البيجلو الضخمة، وعندما كنت أخرج لاستجلاء الأمر، كنت أرى أحداً يهرب بين الأشجار، وكان واضحاً أن أجهزة الأمن تريد التأكد من وجودي داخل المنزل عندما تحضر للقبض عليّ.

وقد خلقت هذه الأجواء لديّ حالة من الخوف والترقب الدائمين، وفي كل ساعة كنت أنتظر قدومهم إلى منزلي لانتزاعي من فراشي إلى السجن، حيث أكون موضوعاً لعمليات الإرهاب التي كنت سمعت عنها ممن تعرضوا لظروف السجن من معارفي وأصدقائي.

وأخيرا قرع باب منزلي بكل عنف في منتصف الليل، وما أن فتحته حتى دلف إلى المنزل أكثر من عشرة جنود كانوا مدججين بالأسلحة، يتوسطهم ضابط الأمن الجديد (يعقوب) الذي عين في أريحا بعد تنحية شلومو، وكان يشهر مسدسه في وجهي، وأمرني بعربيته الركيكة بأن أرتدي ملابسي لكي أذهب معه.

وفي تلك اللحظة غادرني كل ما عشته من خوف وذعر طيلة الأيام المنصرمة، فمضيت بكل هدوء نحو ارتداء ثيابي، وتخيرت الملابس

المناسبة لحياة السجن، ولم يكن معي في المنـــزل ليلتها غير ابنتي الصغرى التي كانت في الثانية من عمرها وقد أفاقت في سريرها على الجلبة الـــتي أحدثها الجنود.

ارتديت ثيابي، وودعت الطفلة، وتركتها لجدها التي قدمت مـــن المنـــزل الملاصق، ومضيت إلى تلك العلبة المشـــؤومة المعـــدَّة لحمـــل المعتقلين، ومضت بنا تلك العلبة محروسة بلاندات الجنود الذين تجـــاوز عددهم الثلاثين عنصراً إلى أن وصلنا إلى مخفر المدينة، وهناك تم تكبيـــل يدي بتلك الكلبشة البلاستيكية التي وصفتها المحامية اليهودية لانجر بأنهـــا للاستخدام لمرَّة واحدة، ثم رُبطت عيناي بعصابة، وأصعدت إلى شـــاحنة لنقل الجنود محاطاً باثنين من الحُراس المسلحين بالرشاشات.

واتجهت الشاحنة بنا نحو رام الله على الطريق العسكري الذي يمـــر قرب قرية الطيبة، وذلك ما قدرته من اتجاه السيارة، وفي ساعات الفجـــر الأولى تسلمتني إدارة سجن رام الله، فأعطيت بطـــانيتين، وألقـــي بي في مدخل السجن في غرفة صغيرة تقع أمام الزنازين (الأكسات) الثلاث التي تعرفت عليها بعد ذلك.

وحاولت أن أنام نوما عميقا استعدادا لحفلة التحقيق التي كنـــت أنتظرها، والتي لم تأت بعد ذلك، إذ لم يجر معي أي تحقيق خلال فـــترة مكوثي في التوقيف، وقد وضعت الحذاء تحت رأسي بمثابـــة وســـادة، وفكرت قليلا من سيكون ذانك المناضلان النائمان بجواري، لأعلم فيمـــا بعد، أنهما سجينان مدنيان من ذوي السوابق وقد عزلا عـــن الســـجناء الأمنيين الذين يرفضون الاختلاط بهم.

وفي الصباح فُتحت الأبواب الحديدية التي تفصل أقسام الســـجن عن بعضها البعض، وخرجت مع من خرجوا إلى باحة السجن المغطـــى

سقفها بالأسلاك الشائكة، وفي تلك الباحة شهدت أوّل ما شـهدت، رجلاً في منتصف العمر كان يدور في الباحة متريضـاً وكـان ذلـك الشخص هو بشير البرغوثي الذي لم أكن قد التقيت به قبـل ذلـك، ثم إمتلأ المكان بمئات المعتقلين الذين أخذوا يدورون في طابور حول الباحـة بانتظار طعام الإفطار، والذي كان بمثابة فنجان الشاي، وبيضة وقطعـة خبز، وعلمت بعد ذلك، أهم يخرجون قاطني السجن على دفعتين لكـي تتسع الباحة لهم، وبدا أن طعام العشرات الذين يتسع لهم هذا السـجن، قد جرى توزيعه على المئات ممن حشروا فيه، بحيـث بـدت الغـرف والزنازين معدومة الهواء مما يؤدي إلى صعوبة التنفس ويورث مع مـرور الزمن، العديد من الأمراض.

وبعد المرور على الحمامات، وتناول طعام الإفطار، والقيام بالفورة الصباحية، وكل ذلك خلال ساعة واحدة، أعيدت تلـك الحشـود إلى مواقعها، وأدخلت حينها إلى إحدى الزنزانات الثلاث التي كانت مكانـا للمعتقلين الجدد وكان يتكدس في كل واحدة مـن هـذه الزنزانـات (الأكسات)، التي لا تزيد مساحتها عن عشرة أمتار مربعة، عشـرة إلى اثني عشر سجينا.

وتعرفت بعد ذلك على زملائي في قسم الزنازين، وكانوا جميعـهم من أبناء مخيم الجلزون، وغالبيتهم من طلبة مدرسة واحـدة، وكـانت أعمارهم دون الثامنة عشرة ما عدا إثنين أو ثلاثة منهم كانوا قد بلغـوا العشرين من العمر، وأحدهم كان عامل كهرباء، وآخر عامل بلاط.

وكانت تلك المجموعة قد شكلت بعد حرب تشرين،تنظيما مـن تلك التنظيمات التي نبتت كالفطر في الأرض المحتلة، أسمته "تنظيم بـاطن الأرض"، وهو الاسم الذي يدل على الوعي الطـلابي البسـيط لهـذه

المجموعة، والتي أخذت تصدر النشرات الخاصة بها، بعد أن استحوذت على آلة نسخ من مدرسة لوكالة الغوث، وأخذت تكتب الشعارات المقاومة على الجدران مذيلة بتوقيعها، وبدأت بأعمال المقاومة ضد المحتلين واستخدام الحجارة ضد دورياتهم، والتحضير لاستخدام القنابل الحارقة (المولوتوف).

وفي اليوم الثالث لمكوثي مع هؤلاء الشبان، كان موعد أول زيارة لهم من قبل ذويهم (والتي تتم بعد مرور شهر على توقيف المعتقل)، فكانوا يرتقبون تلك الزيارة بقلق بالغ، متوقعين مواجهة غضب ذويهم ونقمتهم بسبب ما سيفرض عليهم من غرامات مالية سوف تقتطع من قوت أسرهم، وذلك بالإضافة لتكاليف المحامي الذي عينه الأهل لمتابعة قضيتهم في المحكمة العسكرية.

وقد حاولت بأن أهدئ من روع أولئك الفتيان، وأن أخبرهم بأن ذويهم على استعداد لتحمل تلك الأعباء، فهم يدركون ما يواجه شعبنا من عدو يستهدف انتزاع أرضنا وإذلالنا وتغييبنا من ساحة المواجهة، وأن آباءهم سيكونون فخورين بهم أمام الناس رغم قلقهم عليهم. وبعد عودتهم من الزيارة، أحسست كم كانوا سعداء وقد غمرتهم البهجة، حيث قابلهم أهلهم بكل اعتزاز، وطلبوا منهم بأن يكونوا رجالا أمام الجلادين وأن يرفعوا رؤوس أهلهم عاليا، وأن لا يحملوا هم أسرهم خارج السجن، وأن يعتنوا فقط بأنفسهم.

وقد استضافني هؤلاء الشبان بالتناوب في زنازينهم،فسعيت إلى تعميق وعيهم السياسي من خلال الأحاديث الطويلة التي كانت تدور بيننا، وشعرت كأني ما زلت في مدرستي أواصل دروسي فيها، لكن أمام طلبة هم أكثر تفتُّحاً وأكثر قدرة على الحوار والفهم، وحاولت تلقينهم

بما أحفظه من الأناشيد التي نبتت في حياة السجون، والتي تحض على تحمل أعباء السجن وعسف الجلادين.

وفي السجن أيضا، التقيت مع مجموعة طلبة أريحا وكانوا ضمن إحدى الغرف الأكثر بعدا عن الزنازين، وكان هؤلاء قد مضى على اعتقالهم بضعة شهور، فكنا نتجاذب الأحاديث خلال فترات الفورة وأثناء تناول طعام الإفطار، ذلك أن الغداء والعشاء كان يتم داخل الغرف والزنازين المغلقة، وقد استضافتني هذه المجموعة على موعدها في الاغتسال، ولم أدرك لحظتها كمستجد على حياة السجن أن أحد الشبان قد ضحى بفرصته في الاغتسال إكراما لأستاذه القديم.

وخلال فورة اليوم الأول في الصباح، التقيت مع أحد الزملاء في لجنة المعلمين الحزبية وهو رفيق من عناتا، فسألني عن ظروف سجني، وعن وضع الناس في الخارج، وإن كنت أحتاج إلى السجائر (وكان يحق للسجين أربع سجائر في اليوم) فقلت بأني أستطيع المكوث من دون تدخين. وعرفني بصورة عابرة على بعض الرفاق الذين كنت سمعت بأسمائهم من قبل دون أن أعرفهم، وكان جميع الرفاق في هذا السجن، هم من المعتقلين الإداريين الذين تجدد السلطات مدة سجنهم كل ستة أشهر دون أن توجه إليهم لائحة إتهام يحاكمون بموجبها، وكان هناك رفاق آخرون من المعتقلين الإداريين في سجن الخليل، أما الرفاق الأكثر خطورة، والذين كانت لهم علاقة بالعمل المسلح، فقد أودعوا في السجون القائمة داخل فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨.

ولقد سألني الرفاق عن صورة الوضع في الخارج، فأخبرتهم بأن هناك حالة من الغليان الشعبي، وأن البلاد مقبلة على هبة شعبية هي الأضخم في اتساعها وعنفها، وأن الناس قد فقدوا إلى حد كبير الخوف

من المحتلين بعد حرب تشرين، وبتنا نرى الشبان يدخلون باسمين إلى السجون ويخرجون وهم أكثر نضجاً واستعداداً للمقاومة. وقد أيدَّ الرفاق هذا التصوُّر، ولاحظت بأنهم وهم في السجن كانوا أكثر متابعة للوضع ممن هم خارجه.

وأشار عليَّ الرفيق العاناتي في اليوم التالي أن أدلف إلى غرفتهم بعد انتهاء الفورة، وهناك في الغرفة رقم (١)، جلس كل سجين على برشه، وكان الرفاق يحتلون ركناً من أركان تلك الغرفة، فأخذوا يستمعون إلى نوعٍ من التقرير الذي قدمته عن الوضع، وتحدثت عن الهبة الشعبية التي تلوح في الأفق، وكان بشير البرغوثي يجلس في الجوار، ولم يحادثني طيلة الوقت لاعتبارات احترازية، ولم يظهر بأنه كان يستمع إلى ما أقوله أو أنه يعرف علاقتي بالحزب.

ولم يكن انطباعي إيجابياً عن هذا الإنسان، فقد شعرت بأنه يتعامل مع رفاقه بشيء من الاستعلاء والاستخفاف، وكان يخاطب الشبان منهم، ممن تحلقوا حوله، بتلك السخرية اللاذعة التي يتقنها أفراد عشيرته، وكان يقول لهم، بأن هذه السجنة لن تسجَّل له كونه قضاها مع أمثالهم من الصبيان.

وقد علمت فيما بعد، أن السيد بشير بعد خروجه من السجن عبر تلك الصفقة مع المحتلين، قد واصل تعاليه على الرفاق، واستنكف عن الانخراط في العمل الحزبي اليومي، ونأى بنفسه عن الانشغال بمهام إعادة بناء التنظيم الحزبي، حيث أخذ يطرح نفسه كمثقف وكصحفي، فتولى من قبل قيادة المنظمة (عرفات)، رئاسة تحرير صحيفة الفجر المقدسية، رغم أن عرفات كان قد شرع آنذاك في إضعاف ومحاصرة الجبهة الوطنية بسبب قيادتها الشيوعية، ذلك أنه كان يتجنب التعامل مع قوة سياسية

منظمة تشاركه في صياغة القرار السياسي، و لم يلبث البرغوثي بعد ذلك، أن أنشأ جريدة أسبوعية خاصة به، وكانت باسم أحد عناصر الحزب الشيوعي الإسرائيلي العرب، وهي جريدة الطليعة المقدسية التي غدا بشير رئيس تحريرها وصاحبها الفعلي، وقد غدت هذه الجريدة شغله الشاغل، تاركاً للتيار الكوسموبوليتي في عمان، بالتعاون مع الموثوقين من قيادة الداخل، مهمة إعادة بناء التنظيم الحزبي على قاعدة سياسية جديدة، تقوم على أساس الخط الذي عبَّر عنه في صفقته مع المحتلين، وهو خط الاعتراف بحق إسرائيل في الوجود، وبنبذ الكفاح المسلح(الارهاب حسب تعبير الصهاينة).

ومن تعرفت عليهم في السجن إلى جانب العديد من الرفاق القدامى، ذلك الثائر الشعبي المتميِّز عبد الله البيَّاع، وهو من كفر مالك، تلك القرية التي تقع في منطقة رام الله باتجاه نابلس شمالاً. وعبد الله فلاح بسيط وراعي أغنام، قضى طفولته وصباه في البراري والفيافي الشاسعة، فكان ينتقل مع الأغنام إلى منطقة الأغوار والبحر الميت شرقاً في فصل الشتاء، وينتقل معها صيفاً، إلى منطقة نابلس شمالاً، حيث تعرَّف على الشيوعيين في قرية سلفيت، عندما كان يسرح بأغنامه في أراضي تلك القرية، وكان ذلك في مطلع الخمسينات.

وعرف رفيقنا حياة السجون، فكان دائماً في مقدمة المطلوبين من جانب أجهزة النظام في الأردن، وقد روى لي رفاقه العديد من الحكايات عن صلابته داخل السجون وفي غرف التحقيق، حيث كان يغالي في استفزاز سجّانيه، معتبراً أن ذلك هو من لزوميات الروح الثورية. وقد اعتمد عليه الحزب في فترات الملاحقات والأحكام العرفية، فكان يعمل كدليل يقوم بتهريب الرفاق المطلوبين وسط تلك الفيافي التي يعرفها جيداً، كما اعتمد عليه في قضايا توفير السلاح وتهريبه، وذلك في الفترات التي اتّجه فيها الحزب نحو المقاومة المسلحة، وقد تعرض بسبب هذا الدور، لألوان من التعذيب التي فاقت في ضراوتها كل ما تعرض له غيره من الشيوعيين.

وفي عام ١٩٦٧-اعتمد عليه ضباط الجيش المصري الذين كانوا في منطقة الشمال مع قطعات الجيش الأردني، في تهريبهم عبر النهر بعد الهزيمة، وكان بسبب هذا الدور، موضع ملاحقة مخابرات المحتلين الذين حاولوا تصفيته في أكثر من مناسبة لشعورهم بخطورة الدور الذي يمكن أن يضطلع به في مقاومة احتلالهم.

وبسبب ذكائه الفطري، وموهبته غير العادية في القص، فقد كان يحيل غرف السجن إلى مجلس من مجالس القرى، حيث يتولى رجال موهوبون بفنون القص، إمتاع الحضور بأحاديثهم الطلية وحكاياتهم الشيقة. وقد اتسع أفق هذا الرفيق خلال فترات السجن الطويلة وتجاربها، فبدل أن يقتصر في أحاديثه على رواية ذكرياته عن حياة الرعي، حيث كان يصطاد الأفاعي بأنواعها، وأمسك ذات مرة بضبع ضخم، فقام

بتكميمه، وبسوقه إلى ساحة القرية لكي يتسلى الناس برؤيته، أخذ يروي الحكايات التي لا تنتهي عن حياة السجن، خاصة لأولئك السجناء المستجدين، مشيراً لهم بأن ما يلاقونه من عناء سيتحوَّل مع مرور الزمن إلى حكايات شيِّقة يقصونها في مجالسهم.

لقد كان يجلس متربعاً على برشه عندما رأيته، وكان يقصُّ حكاية ما لمجموعة من الشبان الذين تحلقوا من حوله، وكان يروي حكايته بصوتٍ خفيض لكي لا يشوِّش على بقية السجناء الذين تكتظ بهم الغرفة، وبين فترة وفترة، كان يسحب نفساً عميقاً من بزِّ سيجارته ليعود بعد ذلك إلى إكمال حكايته التي بدا وكأنها بلا نهاية.

ولقد بادرته بالقول وأنا أنظر انسجامه فيما هو فيه، وقد طوى ساقيه تحته في جلسة مريحة، وبدا وكأنه لاه عما يحيط به من زحام: "إن من ينظر إليك يا رفيق عبد الله، يحس وكأنك في منزلك وبين أهلك وليس في السجن"، فرد علي باسما و قال بصوته العريض الواضح النبرات: "وماذا تظن أيها الرفيق.... فأنا أمضيت في السجون فترات أطول من تلك التي عشتها في منزلي وبين أهلي"، وبالفعل فقد كان البياع من بين الرفاق الذين قضوا معظم حياتهم في السجون، فمذ بلغ الثامنة عشرة من عمره، وهو لا يكاد يغادر السجن حتى يعود إليه من جديد.

وما زال عبد الله البياع ذلك الثائر الرومانسي الجميل يروي حكايته المشوقة في قريته، وما زال ذلك الفلاح والراعي البسيط الذي لم يخلع ثوبه رغم ما بلغه من مواقع حزبية ذهبت بفطرة وبساطة العديد من رفاقه، وقد علمت بأنه ممن جرى إهمالهم والتنكر لتاريخهم وتضحياتهم من جانب القيادة الجديدة للتنظيم الحزبي، والتي تركز اهتمامها على

الأكاديميين لتقيم منهم حزبها، نابذة أولئك المناضلين الذين خرجوا من أوساط الجماهير الشعبية و لم ينفصلوا عنها.

(٢٢)
الابعــــاد

لقد أُطلق سراحي من سجن رام الله في ١٦تشرين الثاني، فذهبت مباشرة إلى أريحا عن طريق القدس، وفي موقف الحافلات في بيت المقدس، طلبت من أحد السائقين من أبناء بلدتي، بأن يخبر أهلي بخروجي من السجن، وأني سأزورهم في الغد بعد انتهاء دوام المدرسة، وأنه لا داعي لأن يتحملوا جميعاً عناء السفر إلى أريحا لرؤيتي.

وفي البلدة في اليوم التالي، تجمَّع الأهل والأقارب والأصدقاء في منزل الوالد، وكانت مناسبة للحديث عن حالة النهوض التي تعيشها الأراضي المحتلّة، والانتصارات التي تحققها قضيتنا الوطنية، وقد تحدثت يومها عن إمكانية قيام دولة فلسطينية في الضفة والقطاع، بما يعنيه ذلك من خلع الاحتلال، وحماية الأرض من التهويد في هذا القسم من فلسطين، ولم نتصور يومها ضخامة الهجمة المضادة التي يشنها الحلف المعادي على أمتنا، والتي استهدفت في الأساس تصفية القضية الفلسطينية بوصفها محور الصراع العربي - الصهيوني.

وفي الثامن عشر من تشرين الثاني وخلال الدوام المدرسي، لمست من حركة الطلبة والطالبات بأنه يجري التحضير للمشاركة في الهبة الشعبية المندلعة في أرجاء الأرض المحتلّة، وكان الجو في المدينة مشحوناً بالتوتر، وفي المساء جاء أحد عناصر الشرطة إلى منزلي ليبلغني بأمر استدعائي من قبل الحاكم العسكري والذي انتقل مقرُّه إلى مخيم عقبة جبر. وعلمت أن السلطات العسكرية، قد استدعت يومها العشرات من

وجهاء المدينة، ومدراء المدارس، ومن الوطنيين أيضا، وكان الحاج صبحي يومذاك قد مضى على إبعاده قرابة أسبوعين ولذلك لم يكن من بين المستدعين.

وفي مقر الحكم العسكري، أدخلت إلى مكتب الحاكم بعد منتصف الليل -حتى جاء دوري- وكان الحاكم الجديد-ولم ألاحظ رتبته العسكرية - شابا بالقياس إلى الحاكم السابق فيلدمان، ولم يكن قد تجاوز الثلاثين إلا بعام أو عامين (وكنت يومها قد شارفت على الثلاثين) فقال لي بعد التهديدات والتحذيرات التقليدية: "أنت معروف في المدينة بأنك لا تضحك"، وكان يشير بذلك إلى جديتي بسبب انخراطي في العمل السياسي.

فقلت له (عبر مترجم) بأني لا أضحك فقط أمام من ينقلون له المعلومات عن أبناء المدينة، وفيما عدا ذلك، فإنني أحاول أن أعيش حياتي العادية برغم واقع الاحتلال المكرب.

ثم سألني متعاليا وكأنه يشرفني بالجلوس معه في مكتبه: "ما هو شعورك ونحن نجلس معا بسلام كشاب مع شاب آخر". فقلت له: "لقد كان من الممكن أن نكون أصدقاء لو التقينا في ظروف غير هذه الظروف، ولو لم يكن هو في موقع المحتل المستعمر وأنا في موقع المستعمَر. ثم أنني ماثل أمامه الآن بأمر عسكري، وقد أتيت وأنا أنتظر بأن أساق مجددا إلى السجن بعيدا عن أسرتي وعن أصدقائي". وقلت له أيضا بأنه سيكون واهما هو وغيره، إذا ما اعتقد بأن هذا الشعب الذي يقاومهم منذ أكثر من نصف قرن، وبرغم إمكاناته المحدودة، ورغم ضخامة الهجمة ضده، سوف يرضخ ويتعامل مع الغزاة كأصدقاء يمكن التعايش معهم.

وكان يستمع بانتباه واضح لما أقول، وعندما انتهى اللقاء، أحسست بأني قد خطوت خطوة واسعة نحو الصدام الأكثر مباشرة مع تلك السلطة العسكرية التي يعمل كل أفرادها كرجال أمن. وقد التقيت به في اليوم التالي، وصدف أن كنت أدلف بدراجتي إلى ثانوية الطلبة التي كان قد تجمع طلابها في ساحة المدرسة متهيئين للخروج إلى الشوارع لتحريك التظاهرة الشعبية، وعندما ذهبت إلى ثانوية البنات، كان يمضي بسيارته خلفي ضمن تنقله على المواقع الأكثر سخونة في المدينة، وفي باحة المدرسة هناك، كانت الطالبات متجمهرات استعدادا للخروج إلى الشارع والالتقاء بحشود الطلبة من المدارس المختلفة وبحشود الجماهير.

وجاء رتلٌ من ناقلات الجنود، واتخذ حشد الجنود بعد ترجُّلهم وضعاً قتالياً، وبدأوا يضغطون عبر الهراوات والتهديد بالسلاح على الطالبات، كي يعدن إلى الصفوف، ومن داخل الصفوف وخارجها، كنت استمع إلى الهتافات الثورية تشق عنان السماء تنادي بعروبة فلسطين، وبسقوط الاحتلال، ثم علت الأناشيد ذاتها التي كنت قد عممتُها في المدرسة، فانداح هديرها في أرجاء المنطقة موقِّعاً على صوت الهراوات التي كانت تنهال على أجساد الطالبات مختلطة بالصراخ وبالشتائم ومظاهر المقاومة، وفي غرفة المعلمين المحروسة بالجنود انسابت من عينيَّ دموع الفخار التي فجرتها تلك الأناشيد وإرادة الصمود عند بنات شعبنا.

ولدى مغادرة الحاكم العسكري للمدرسة، أشار إلى أعوانه بأن يصطحبوني معهم، حيث أمضيت تلك الليلة في مقر الحكم العسكري في عقبة جبر، وقد وضعت في غرفة عارية من أي أثاث أو فراش، ولكنه لم

تكن بي حاجة إلى النوم، فبعد منتصف الليل، جرى إحضاري إلى غرفة الاستجواب الذي استمر حتى مطلع الفجر ليخلى سبيلي بعد ذلك.

وفي وسط الاستجواب الذي أجراه معي ضابط الأمن الذي لم أره قبل ذلك، وكان إستجوابا مترافقا مع الضرب وألوان التهديد، طرحت علي أسئلة ذات دلالة حول جواز سفري، وحول انتهاء أو استمرار صلاحيته، (وكان جوازي منتهيا منذ عام ١٩٦٨)، وقد جاء هذا السؤال وكأنه موضوع عابر ولا أهمية له، لأن التحقيق قد تركز في الأساس، على دوري في الإعداد "لأعمال الشغب" التي شهدها المدينة في اليوم الذي مضى، وكان الضابط المحقق يؤكد على معرفتي بموعد اندلاع المظاهرات لأني قمت بتأجيل الامتحان الذي كان مقررا لأحد الصفوف.

لقد كان قرار الإبعاد بالنسبة لي قد وقع وانتهى الأمر، أما لماذا جرى إطلاق سراحي في ذلك اليوم ولم يتم إبعادي مباشرة من داخل الموقع الذي احتجزت فيه، فأعتقد بأن لذلك علاقة بالمناخ الذي كان سائدا في المدينة، ذلك أن احتجازي كان سيضاعف من نقمة الطلبة، وسوف يزيد من اشتعال غضبتهم المتفجرة على المحتلين.

لذلك فقد اهتم ضابط الأمن بمطالبتي بأن "اذهب إلى مدرستي، وأن لا أعود إلى أعمال التحريض" وقد فعلت ذلك، أي ذهبت مباشرة إلى المدرسة لأتابع ما يجري داخل المدينة.

وبعد نهاية الدوام المدرسي مضيت نحو منزلي، وفي الطريق إلى هناك مررت ببعض الأصدقاء من المزارعين فسألوني عن أحوالي فقلت لهم أشعر بأن مهلة وجودي في هذه المدينة قد انقضت، وأني في انتظار الحدث المشؤوم، السجن الطويل أو الإبعاد.

وفي منتصف الليل وحين قرع الباب بعنف، كنت كمن ينتظر مجيئهم، ففتحت الباب، وتدفق حشد من الجنود شاهرين أسلحتهم وبينهم الضابط يعقوب بمسدسه الجاهز للعدوان. وأمرني كالمرة السابقة بارتداء ملابسي، فارتديت نفس الثياب التي رأيت أنها الأكثر ملاءمة لحياة السجن، وقمت بتوديع الزوجة والطفلتين، ومضيت في الرحلة التي قلبت حياتي رأساً على عقب، ووضعت حداً لسياق من هذه الحياة، وهو السياق الذي يحيا فيه الإنسان بين أهله وأصدقاء طفولته وصباه، وعلى الأرض التي درج عليها وأحبها وحملت ذكرياته، ليحيا بعد ذلك مقطوعاً عن كل تلك الذكريات.

ولقد قرأت بعد ذلك الكثير من كتب الأدب عليّ أجد ما يعبِّر عن حالة الفلسطيني الفرد والإنسان المقتلع من وطنه، فلم أجد ما يعبر عن ذلك، لكن عبارة استوقفتني في رواية ليون الإفريقي لأمين المعلوف، والتي يعبر فيها ابن غرناطة الذي اقتلعه العنصريون الأسبان من مدينته، ليتشرد بعد ذلك في أرجاء المعمورة انطلاقاً من تونس، حيث يقول ما معناه: إن من يفقد مسقط رأسه، ويتشرد عن أسرته وأهله، يظل غريباً أينما ذهب بعد ذلك، ومهما حل بأوطان جديدة والتقى بأهلٍ جدد.

وأضيف هنا، بأن من قطعت جذوره بعد اقتلاعه من وطنه، لا تعود تنبت له أية جذورٍ بعد ذلك، ويظل يعيش الحنين إلى تلك الجذور، لذلك فقد جاء عنوان كتابي: "الحنين إلى أريحا"، كتجسيد للحنين إلى تلك الحياة التي أخرجت عن سياقها فوق تربة الوطن وكانت أريحا معلماً بارزاً من معالمها.

لقد أصعدني الجنود وضابطهم إلى سيارة "البوكس" المشؤومة، ومضت بي إلى مخفر المدينة مثل المرَّة السابقة؛ وعُصبت عيناي وكُبلت يداي، ثم مضت بي السيارة نفسها مخفورة بسيارات عسكرية نحو منطقة رام الله، وبعد مسيرة قرابة الساعة، توقفت السيارة، وأُنزلت إلى أحد مراكز السلطة العسكرية، والذي قدرت فيما بعد بأن يكون المركز العلم للحكم العسكري الكائن في قرية بيتين، والتي أعاد لها الصهاينة اسمها الكنعاني "بيت إيل" على أساس أنه اسم عبْري.

وبداخل مقر الإدارة العسكرية للضفة، أُجلست أمام منضدة واسعة وقد رفعت العصابة عن عينيّ، وكان الكابتن يعقوب منسهمكاً بملفٍ ضخم اعتقدت فيما بعد بأنه الملف الخاص بي لدى سلطات الاحتلال، وأنه كان يقفله بنسخةٍ من قرار الإبعاد، وقد سألته: إلى أين تمضون بي الآن، ولماذا لا تكفّون عن ملاحقتي؟؟ فرد علي وهو ماضٍ في عمله: "إنك لم تستطع أن تمكث هادئاً" ولم يستمع بعد ذلك لاحتجاجي على عبارته المختصرة.

وبعد أن عُصبت عيناي مجدداً، ساقني الجنود إلى الخارج، وأصعدوني من الخلف إلى سيارة "بان" مغلقة، بداخلها مقعدان واسعان متقابلين، فأجلست في الجهة اليمنى، ومن الحركة المحيطة بي، علمت بأنني لم أكن وحيداً في السيارة، وأن زميلين قد سبقاني إلى داخلها، وكان أحدهما يجلس بجانبي والآخر في الجهة المقابلة، ومن أسفل العصابة، رأيت شعراً رمادي اللون تطاير في الهواء وتشعّث من وضع العصابة على أعلى الوجه، وكان ذلك رأس مدير مدرسة الهاشمية في البيرة كما علمت فيما بعد، أما الرأس الأنيقة المواجهة، فكانت لطبيب أسنان معروف مقيم في رام الله.

ولم تكد السيارة تنطلق بنا مخفورة بسيارات عسكرية، ومحروسة من الداخل بعناصر كانوا يمنعوننا من الحديث أومن رفع أيدينا نحو العصابة، حتى توقفت مجددا، وأصعد إليها شخص رابع، هتف وهو يدفع من الأسفل من قبل الجنود: أنا فلان، وكان مدير جامعة بير زيت ووريث العائلة التي تملك تلك الجامعة، وهو دكتور فيزياء من خريجي الجامعة الأمريكية ببيروت، ومضت بنا السيارة غربا باتجاه الساحل مرورا بمنطقة نابلس، حيث أضيف لفريقنا شخص خامس، وهو مقاول معروف، كان يضيف إلى اسمه لقب مهندس، وقد علمنا فيما بعد، أنه قد تم نقله من نابلس بطائرة مروحية، إذ قبض عليه في منزل أحد أقاربه هناك بعد أن جرى البحث عنه في منزله القائم في رام الله.

ومن اتجاه السيارة، أخذنا نحس بأننا إزاء الإبعاد، وأننا ندفع نحو الحدود اللبنانية مثلما جرى مع الدفعة التي سبقتنا والتي كانت تضم الحاج صبحي وثلاثة من المناضلين السياسيين، وكانوا جميعهم من الشيوعيين أو من أعضاء الجبهة الوطنية كما هو الحال بالنسبة لدفعتنا.

وفي الطريق الطويل إلى الحدود اللبنانية، كنت أحاول رفع العصابة رغم التهديدات، وأنا أنظر إلى من هم حولي، ولم يكن من السهل التعرف على ملامحهم بتلك العصابة التي تحجب أعينهم، وكان المواطن الذي يجلس إلى يميني (مدير الهاشمية)، يحمل سجائر فشاركه البعض بالتدخين، وتبادلنا إلى جانب ذلك بعض الكلمات مشيرين إلى أن ما نواجهه هو الإبعاد، لكن تلك الوجهة في التفكير، لم تذهب عنا الشعور بخطر التصفية، حيث جرى مثل ذلك، مع سجناء ومعتقلين، أدعى الجلادون بأنهم حاولوا الهرب فأطلقت النار عليهم.

وبعد مسار طويل امتد بنا حتى ساعات الفجر، (حيث أخذنا نحس ببزوغ ضوء النهار) توقفت بنا القافلة، وأنزلنا من السيارة، وأوقفنا في نصف دائرة صغيرة إلى جانب بعضنا البعض، وأزيحت العصبات عن أعيننا ثم فكت الكلبشات من أيدينا، فوجدنا أنفسنا نقف على حافة منحدر وعر، يحيط بنا حشد من الجنود والضباط من ذوي الرتب المختلفة. وتقدم ضابط برتبة عالية فقرأ علينا قرار الإبعاد، موقعاً من الحاكم العسكري العام للضفة الغربية، ومن وزير الحرب الصهيوني، ثم طلب إلينا أن نضع تواقيعنا على القرار، فرفضنا ذلك، فلم يلح في الطلب، ثم قال لنا: ستتجهون الآن إلى الأراضي اللبنانية عبر هذا المنحدر، وستجدون في ذلك المبنى الصغير الظاهر في أسفل المنحدر، رجل دين (خوري)، تسلمون أنفسكم له وهو يعرف إلى أين يرسلكم، ثم هددونا بألا نلتفت إلى الخلف، وألا نحاول العودة، لأنه في هذه الحالة سيطلق علينا الرصاص.

ومن أجل المظاهر التي يراد لها أن تغطي عنصرية هؤلاء الغزاة المحتلين، جرى إعطاء كل واحد منا سلة بلاستيكية، فيها مطرة ماء من النوع البلاستيكي، وفيها شطيرتان، بالإضافة إلى طاقية شمسية كالتي يستخدمها المصطافون على شواطئ البحر. ولعل هذا التدبير قد بدأ مع الدفعات التي أبعدت قبلنا عبر الحدود الأردنية، حيث كان يتم الإبعاد، عبر منطقة صحراوية في وادي عربة، فكان المبعدون بحاجة للماء ولبعض الطعام ولغطاء الرأس.

ومضينا لا نلوي على شيء وسط احتجاجات كنا ندرك عدم جدواها إزاء قوة عسكرية جاءت لتنفذ قرار سلطتها، فانحدرنا في الطريق الوعر، وبدأت أتعرف على زملائي في الإبعاد، وكنت أصغرهم سناً، إذ

كان مدير الهاشمية يكبرني بأربعة أعوام فقط، برغم كثافة الشيب الذي علا رأسه، وكان مدير جامعة بير زيت يكبرني بعشرة أعوام، وقد بدا فتيا نشيطا عميق التأثر بالنمطية الأمريكية، وبدا طبيب الأسنان على مشارف الخمسين من عمره، وكذلك المقاول الذي يتخطاه بعامين أو ثلاثة أعوام.

وقبل أن نبلغ المبنى الصغير الذي أشار إليه الضابط الصهيوني، وجدنا أنفسنا أمام عنصرين من عناصر الدرك اللبناني وقد كمنا خلف صخرة وبنادقهم مشهرة نحونا، فعرفنا بأنفسنا، فقالوا لقد سمعنا خبر إبعادكم من الإذاعات وكنا ننتظر وصولكم، وأخذونا إلى المبنى الصغير الذي كان في حقيقته مخفرا للدرك أقيم في قرية الحبوشية القريبة من رأس الناقورة الحدودية، ومن هناك جرى الاتصال بمركز الأمن في صور لإبلاغهم بقدومنا، وجرى حملنا داخل سيارة للدرك نحو صور، وفي الطريق أخذنا نستمع إلى اللهجة اللبنانية الغريبة على مسامعنا والتي بدا لنا أنها خارجة من مسرحيات فيروز، حيث أخذ الدركي المرافق يروي لنا ما يشاهده من صدامات في هذه المنطقة الحدودية التي أطلق عليها العدو اسم "فتح لاند".

وفي مبنى الأمن اللبناني في صور، وبعد إجراءات روتينية من جانب ضابط الأمن، جرى تسليمنا إلى مبعوثي منظمة التحرير الذين كانوا في انتظارنا، ومن هناك مضوا بنا إلى بيروت، وفي مقر المجلة المركزية للمنظمة، كان عرفات في استقبالنا، وبدا شديد الابتهاج على أخبار الهبة الشعبية في الأرض المحتلة والتي جرى إبعادنا في ذروتها، حيث أدت جريمة الإبعاد، إلى زيادة اشتعالها كما علمنا، لتستمر بعد ذلك أياما طويلة،

ويسقط خلالها العشرات من الشهداء والجرحى ويساق إلى السجون مئات المناضلين.

وبالنسبة لأريحا، فقد شهدت هذه المدينة غداة اليوم الذي أبعدت فيه، أعنف تظاهرة حتى تاريخه، حيث نزلت زوجتي الى ثانوية البنات، وأخرجت الطالبات في تظاهرة عاصفة انضمت اليها التجمعات الطلابية من المدارس المختلفة، والتحقت بها أقسام من الجماهير الشعبية، وحين حاول الجنودورجال الأمن اعتقال الزوجة، حيث قاموا بوضعها في سيارة البوكس المشؤومة، أحاط الطلبة الغاضبون بالسيارة، ومنعوها من الحركة، وانتزعوا الأسيرة من بين أيدي الجنود ورجال الأمن ومضوا بها بعيدا عنهم. واستمرت التظاهرات والصدامات بعد ذلك عدة أيام وذلك كما جرى في المناطق الأخرى من الضفة والقطاع المحتلين.

لقد استمع عرفات إلى أخبار الهبة الشعبية، فتحدث كل منا عن منطقته، و عن الصورة التي رآها في موقع تواجده، ثم قدم لنا طعام الغداء على عجل، وكانت الساعة قد شارفت على الرابعة مساء، وأعلمنا بأنه سيعقد لنا مؤتمر صحفي في الخامسة في نفس مقر المجلة، وقد أشار إلي الرفاق، وبينهم الحاج صبحي، بأن أبرز في حديثي دور الجبهة الوطنية الفلسطينية في النضال وفي الهبة الشعبية، إذ أن هناك محاولة لطمس هذا الدور من جانب التيار المهيمن في المنظمة، وهو تيار عرفات الذي كان يفضل التعامل مع زعامات تقليدية رغم الشك في ولائها لمنظمة التحرير.

وقدأبرزت في حديثي، دور أولئك الأبطال الذين يقبعون الآن في سجون العدو من قادة وكوادر الجبهة، والذين جرى إبعاد قسم منهم خارج الوطن، في الإعداد لهذه الهبة الشعبية، من خلال عملية التعبئة

الدؤوبة التي قاموا بها طيلة الأعوام التي انقضت على الاحتلال، وقلت بأننا يجب أن لا ننسى هؤلاء الأبطال، ونحن في غمرة احتفالنا بالانتفاضة، وخلال تقييمنا لمفاعيلها ومنجزاتها، فبدون أولئك الأبطال وتضحياتهم، والتثقيف الذي قاموا به بشأن وحدة النضال ووحدة الشعب الفلسطيني ووحدة تمثيله عبر منظمة التحرير، ما كانت لتكون الانتفاضة بذلك الاتساع وبتلك الشمولية والعظمة.

ومنذ المؤتمر الصحفي، جرى تقسيمنا (مجموعة المبعدين)، إلى قسمين، قسم من المستقلين الذين تم كسبهم بسهولة من جانب القيادة الرسمية للمنظمة، وقسم من الملتزمين بالحزب الشيوعي، والذين يمكن الإفادة منهم دون كسبهم بشكل نهائي من جانب قيادة عرفات.

وقد التزم معي بإبراز دور الجبهة الوطنية، وإبراز دور الحزب، مدير الهاشمية محمود قدري، حيث قام في مهرجان خطابي، بتشبيه الجبهة الوطنية، بذلك الشبح الذي يجول في الخفاء، مشعلا نار المواجهة ضد المحتلين، مستعيرا في ذلك كلمات "البيان الشيوعي" الذي وضعه ماركس وإنجلز في حديثهما عن الحركة الشيوعية، ذلك الشبح الذي يطوف في أرجاء أوروبا، أما الآخرون وضمن حساباتهم الذاتية، فقد انصرفوا نحو استرضاء التيار الرسمي في المنظمة، فغدا اثنان منهم أعضاء في اللجنة التنفيذية، بينما ارتحل الثالث إلى الإمارات، مواصلا عمله كمقاول كبير قبل أن يعود معفى عنه إلى الأرض المحتلة.

وبعد أن قدمنا كل ما لدينا من معلومات عن الهبة الشعبية في الأرض المحتلة، وذلك خلال المقابلات الصحفية والإذاعية والتلفزيونية، وكذلك في المهرجانات والاحتفالات الجماهيرية، غادرنا الفندق الذي أسكنتنا فيه المنظمة لمدة عشرين يوما وهو فندق البوريفاج، وكانت

بيروت آنذاك ماضية في التهيؤ للفتنة، حيث شهدت التظاهرات الشبابية والشعبية الحاشدة، التي كانت تدعو لعدالة سياسية واجتماعية في لبنان، مهددة بالإخلال بالصيغة القائمة منذ الاستقلال كصيغة اقطاع سياسي، ثم جاءنا نبأ إطلاق النار في تظاهرة الصيادين في صيدا على النائب والزعيم الشعبي معروف سعد، ووفاته بعد ذلك متأثرا بجراحه، فاحتقنت الأجواء، لتفجرها بعد ذلك شرارة حافلة عين الرمانة في الثالث عشر من نيسان من العام الجديد. فأدخلنا بذلك في دوامة الصراع الذي استمر حتى جرى اقتلاعنا من بيروت بعد سبعة أعوام من الحياة غير المستقرة فيها، والتي تركت أثرها السلبي على استقراري العائلي.



هكذا أنهي الحديث عن تلك المرحلة من الحياة التي عشتها في أريحا، آملا أن أكون قد قدمت ما يفيد القارئ بشكل ما. ولقد عشت بعد ذلك مرحلتين أو ثلاث من حياة النفي، ظللت خلالها مرتبطا بالشأن العام، ولم أقرر بعد كيف أعبر عن تلك المراحل وخبراتها.

ففي **المرحلة الأولى** التي استمرت سبعة أعوام، وكنت عشتها في بيروت، تمحور عملي حول متابعة ما يجري في الوطن المحتل من تطورات، وقد أحسست منذ عام ١٩٨٠م، بأن جماهير الداخل تتهيأ لانتفاضة شعبية تاريخية، مدفوعة بتوقها إلى خلع نير الاحتلال، والتخلص من جرائمه ومشاريعه التهويدية. ذلك أن هذه الجماهير، قد أخذت تتجه نحو الاعتماد على طاقاتها الذاتية في مقارعة المحتلين، بعد أن تلاشى حلم الدولة في الضفة والقطاع، الذي أيقظته في النصف الثاني من السبعينات مفاعيل حرب تشرين، حيث جرى تطويق هذا الحلم عبر الهجمة المضادة للتحالف الاستعماري، ونتيجة تخاذل القيادة الرسمية للمنظمة.

وفي ختام هذه المرحلة، عشت مع الآخرين، جحيم الغزوة الأمريكية-الصهيونية للبنان، وأمضيت فترة الحصار الطويلة بما حملته من تجارب وخبرات نضالية حاولت التعبير عنها ذات يوم، لكنني انشغلت بمعطيات الصراع الذي دار داخل صفوف الحزب، بين النهج التقليدي الكوسموبوليتي، والتيار الثوري الذي انضممت إلى صفوفه.

وفي **المرحلة الثانية** المار ذكرها، والتي عشتها في دمشق، خضت مع الرفاق الآخرين معركة بلورة النهج الثوري لحزبنا الوليد، وتم ذلك في

ظروف قاسية من الحصار. وقد تقدمنا خطوات واسعة على طريق فهم طبيعة الصراع الذي يدور مع العدو الصهيوني، وطبيعة الكيانات الاستعمارية الاستيطانية بوجه عام، والاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين وفي قلب الوطن العربي بشكل خاص. لكن دخول المرحلة الثالثة، التي افتتحتها الانهيارات التي جرت على الصعيد الإقليمي عقب حرب الخليج الثانية، وعلى الصعيد الدولي مع تفكك الاتحاد السوفييتي واندثار منظومة الدول الاشتراكية، وضعنا أمام أسئلة جديدة، تتعلق بإعادة إنتاج حركة التحرر الوطني العربية في ضوء تجربة نصف قرن من الصراع مع الحلف المعادي.

وفي هذه **المرحلة الثالثة**، أخذت أعطي اهتماما أكبر للكتابة الفكرية ـــ الثقافية، وكان أبرز ما كتبته، تلك المراجعة النقدية الأولية لمسار وفكر التيارات الثلاث في حركة التحرر العربية، وهي المراجعة ـــ الدعوة، لإعادة النظر بمسلماتنا السابقة، بهدف تجاوز الثغرات والأخطاء، وذلك دون التخلي عن المبادئ والقيم الثورية باسم "الواقعية"، وباسم "الانسجام مع روح العصر" وسائر تلك المقولات التي يجري التعبير عنها في الأوساط المهزومة.

وإنه مع مواصلة المساهمة في البحث عن كيفية تجاوز الأزمة التي تعيشها حركة التحرر العربية، ومن ضمنها الحركة الوطنية الفلسطينية، في ظل المستجدات الإقليمية والدولية، فلعلي أواصل الاهتمام بالكتابة عن المراحل التي مضت من هذا العمر.

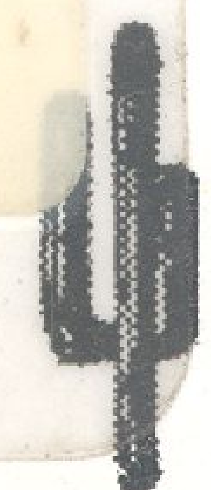
فهـــرس

الحنين إلى أريحا

هذا الكتاب ليس سيرة ذاتية بقدر ما هو تسجيل وملامسة للأحداث و التطورات، خلال فترة هي من أغنى الفترات في تاريخ المنطقة العربية.

فكما يتلمس الكتاب، عملية النمو البطيئة والدؤوبة، لمجتمع مدينة أريحا، الذي أثخنته حرب حزيران بجراح قلما أثخنت بمثلها غيره من المجتمعات المحلية الفلسطينية في الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧، ينخرط في مسيرة الكفاح الوطني ضد المحتلين الغزاة. ويتابع وعلى مستوى أشمل، وعبر رؤية حميمة، عملية معافاة الجسم العربي عقب تلك الحرب مما مكنه من إنجاز انتصار تشرين، الذي كشف عن عظمة الطاقات الكامنة في جسد الأمة رغم حالة التشتت التي تعيشها .

لكن الكتاب يبقى في الأساس قصيدة عشق مهداة إلى أريحا، تلك المدينة التي احتضنت بعطائها السخي، أول اجتماع بشري والتي بقيت رغم كل العصور ورغم كارثة الاحتلال "جـنة الله على الأرض" كما يراها الكاتب وكما حملها في ذاكـرته بعد أن طوحت به أيدي المحتلين نحو المنافي البعيدة...



الروّاد
التوزيع في لبنان والأقطار العربية الأخرى
لبنان ـــ بيروت ☎ ٨٠٤٣٤٩